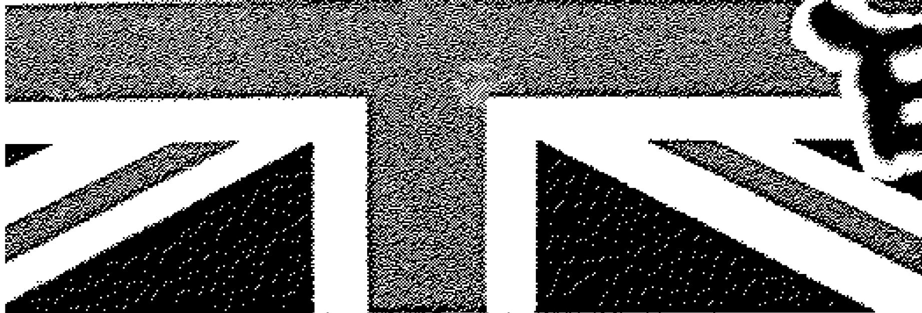
BERNARD LAW MONTGOMERY



مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

مذكرات مونتجمري







B. L. Montgomery
General
Eighth Army

مكتبة النافذة

مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

مذكرات مونتجمري

مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

مذكرات مونتجمرى

عرض وتحليل وتقديم

د. أيمن محمد عادل

مكتبة النافذة

مذكرات مونتجمرى

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧
رقم الإيداع ١١٦٣٤ / ٢٠٠٧

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى
الثلاثينى(ميدان الساعة) - فيصل
تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٢
alnafezah@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الفيلد مارشال مونتجومرى.. هذا القائد العسكرى البريطانى الفذ، هذا القائد الذى خاض غمار معارك الحرب العالمية الأولى كضابط صغير، واشترك فى الحرب العالمية الثانية ووصل خلالها إلى أعلى المناصب العسكرية محققا النصر تلو الآخر.

لقد عاش حياته العسكرية، مخلصا لوطنه ومليكه، مدافعا عن الحق غير مبال لومة لائم، أو نقد حاسد.

وكان فكره العسكرى يسبق عصره، وقد جاهد كل الجهد ليحقق فكره، وليثبت لأقرانه ورؤسائه صحة رأيه.

عرفه العدو قبل الصديق، عرف مهارته وحذقه، واستطاع أن يكسب حب جنوده وضباطه، لإيمانه الشديد بأنهم أساس أى انتصار.

كما انتصر فى الحرب، انتصر فى السلم، فلقد كان مصرا كل الإصرار على تقوية وتحديث الجيش الإنجليزى، وعلى تنظيم الدفاع الغربى فى أوروبا.

إنه أحد القواد العسكريين العظام خلال القرن الماضى، والعسكرية الحديثة اليوم مدينة لهؤلاء بكل تقدم فى مجالها.

إن هذه المذكرات القيمة التى أقدمها لك أيها القارئ العزيز، **مذكرات الفيلد مارشال مونتجومرى** التى كتبها بنفسه، وانتهى من كتابتها فى سبتمبر ١٩٥٨ تروى أخطر فترة من فترات تاريخ العالم ١٩١٤ - ١٩٥٨، بما فيها من أحداث غيرت وجه التاريخ، فواجب كل مسئول وكل قائد، بل كل مواطن عربى، قراءة هذه المذكرات التاريخية الرائعة

أيمن محمد عادل

مقدمة المؤلف

لم أقدم على وضع هذا الكتاب لميل خاص إلى الأدب، ولا حاجة إلى شهرة أوسع، وإنما دفعني إلى ذلك رغبتي فى أن بعض ما يشتمل عليه من أفكار قد يكون ذا نفع. وهدفى من هذا الكتاب، أن أنقل إلى الأجيال المقبلة الانطباعات التى تجمعت لدىّ خلال حياة لم تكن تخلو من متعة، وأن أحدد المبادئ التى كانت تسدد خطاى فى الفكر والعمل.

ولقد كتبت كل أحرف هذا الكتاب فى البداية بقلمى، وكنت كلما أنهيت فصلا من فصوله دفعته إلى النسخ على الآلة الكاتبة، ثم يقرأه ثلاثة أصدقاء، لى فيهم كل الثقة ولآرائهم عندى كل التقدير، وكنت بعد ذلك أعود فأنقح هذه الفصول على ضوء ما يبدونه لى من تعليقات وملاحظات، وأخيرا عاد هؤلاء الأصدقاء الثلاثة أنفسهم النظر فى الكتاب بمجمله زيادة فى التدقيق.

وأبرز هؤلاء الأصدقاء البريجادير «أ. ت. وليامز» مدير رودس هاوس فى أوكسفورد، وقد ذكرته مرارا فى كتابى باسم بيل وليامز.

وثانيهم، السير «جايمس جريج»، الذى أشرت إليه أيضا فى عدة مواضع من الكتاب، **وأما الصديق الثالث**، فهو السير «أرثر بريانت»، ذلك المؤرخ الكبير الذى خصص جزءا من وقته لمراجعة فصول الكتاب.

فإلى هؤلاء الأصدقاء الثلاثة أوجه جزيل شكرى.

وأنا مدين بالشكر أيضا للذين عملوا فى النسخ على الآلة الكاتبة، والذين أذنوا لى بنشر مقتطفات من رسائلهم وكتبهم، وأعتذر فى الوقت نفسه عما قد يتضمنه الكتاب من مقتبسات نشرت دون إذن سابق.

لم أخش يوما أن أقول مـا أعتقد أنه حق، ولم أتردد يوما فى التـمسك بما أقول عندما أكون مقتنعا بصواب ما أقول، وأعترف بأن هذا كثير ما سبب لى إزعاجات.

ولم أقصد فى هذا الكتاب إلى الرد على الانتـقادات التى كانت توجه إلىّ، وإنما أردت أن أروى قصة حياتى العسكرية الطويلة على أبسط وجه ممكن.

ولقد سبقنى الكثير من رفقائى في السلاح فى الحرب العالمية الثانية أن رووا قصة حياتهم واليوم يجىء دورى.

آلتون - هامبشاير　　　　　　　**الفيلد مارشال مونتجومرى**

سبتمبر ١٩٥٨

الفصل الأول
السنوات الأولى

ولدت فى لندن، بأبرشية سانت مارك فى السابع عشر من نوفمبر عام ١٨٨٧، وأستطيع أن أؤكد أن طفولتى كانت طفولة بائسة، وقد نتج ذلك عن اصطدام إرادتى بإرادة والدتى لقد كنا على ما أعلم، عائلة من العائلات الفيكتورية الأصيلة، وكان عمر والدتى حين خطبها والدى أربعة عشر عاماً، وما كادت تغادر المدرسة حتى تزوجته فى شهر يوليو ١٨٨١، وبعد شهر واحد من زواجها، احتفلت بعيد ميلادها السابع عشر فى ٢٣ أغسطس ١٨٨١، وكان والدى آنذاك راعى أبرشية سانت مارك، فى حى «كنتجن أوفال».

وما لبث الزوجان أن رزقا أولاداً، ولم تكن والدتى قد بلغت الخامسة والعشرين حين بلغ عدد أولادها خمسة، وفى ١٨٨٩، عين والدى أسقفا لتاسمانيا.

وكنت الولد الرابع، وبعد انقطاع عن الحمل دام سبع سنوات، رزق والدى طفلين آخرين فى تاسمانيا، وبعد خمس سنوات ولد لهما طفل آخر، بينما لم ير أخى الأصغر «بريان» النور إلا بعد عودتنا إلى لندن.

لقد أعطت والدتى الحياة إذن لتسعة أولاد، أما البكر، وكانت بنتا، فقد ماتت بعد وصولنا إلى تسمانيا بقليل، كما مات أحد أخوتى الصغار عام ١٩١٩، بينما كنت فى الهند ملتحقا بفيلقى، وهكذا بقى سبعة أولاد، جميعهم ما يزالون على قيد الحياة لليوم.

وكان أطفال آخرون يعيشون معنا، ففى بيت الخورى فى كنتجون، كان يعيش ثلاثة فتيان هم من أبناء العمومة البعيدة الذين ذهب آباؤهم إلى الهند، وفى

تاسمانيا، وصلنا من إنجلترا أبناء عم لنا منحرفوا الصحة يحتاجون إلى الهواء الطلق، وفي لندن، بعد عودتنا من تاسمانيا، كانت العائلة أيضا وافرة العدد باستمرار، فكان يستحيل بالفعل على والدتى أن تضطلع بواجباتها كزوجة راع لندنى، أو كزوجة أسقف، وأن تخصص وقتها فى آن واحد لأولادها وللأولاد الذين يعيشون معنا، وكان سبيلها إلى القيام بذلك فرض نظام قاس على العائلة كى تستطيع أن تجد الوقت الكافى لأداء مهمتها إزاء الأبرشية أو الأسقفية، التى هى مهمة أساسية.

أما بالنسبة إلينا نحن الأولاد، فكانت أصول النظام محددة بوضوح، وعلينا أن نتقيد بها بدقة، وكل من يعصاها ينال عقابه على الفور.

ولم يكن إخوتى وأخواتى مزعجين بمقدار ما كنت أنا، بل كانوا يتكيفون وفقا للنظام تكيفا أفضل ولا يخلقون المتاعب، أما أنا فكنت ولد العائلة الثائر المتمرد المتعب، وكانت النتيجة أننى تعلمت فى سن مبكرة أن أتحمل مسئولياتى، ولم نعرف نحن الأخوة الكبار روح العائلة إلا قليلاً، وربما حظى بها أخوتى الصغار، لأن والدتى أصبحت مع تقدمها فى السن أكثر لينا وتفهما.

وكانت والدتى امرأة ممتازة ذات مزاج يتميز بالنشاط وخلق يتحلى بالاستقامة، لقد نشأت أولادها على طريقتها، فعلمتنا أن نقول الحقيقة على الدوام مهما حصل.

ولقد كنت أخشى والدتى طوال سنى طفولتى الأولى، ثم جاء وقت لم تعد فيه سلطتها ذات تأثير على، فزالت الخشية وحل محلها الاحترام، ومنذ انتسابى إلى الجيش حتى وفاة والدتى، كان إعجابى بشخصيتها يزداد كل يوم، واتضح لى بوضوح أننى أنا كنت المسئول الأول عن المتاعب التى شهدتها طفولتى.

ومهما يكن من أمر، فلا عجب أن يتجه كل حبى وكل عاطفتى كطفل فى هذه الظروف نحو والدى، لقد كنت أحبه حتى العبادة، إذ كان صديقا لى.

وتوفى والدى فى عام ١٩٣٢ بينما كنت أقود الفوج الأول من فيلق ورروكشاير الملكى فى مصر، وكانت وفاته خسارة كبرى، لقد كان والدى وزوجتى وابنى أشخاصاً لهم فى نفسى مقام إستثنائى.

وعندما عدنا من تاسمانيا فى آخر عام ١٩٠١، دخلت أنا وأخى دونالد مدرسة سانت بول فى لندن فى يناير ١٩٠٢، وكان عمرى آنذاك أربعة عشر عاماً، ولم أكن قد أعددت للحياة فى كلية إنجليزية، ففى تاسمانيا عهد بأمر تعليمى إلى أساتذة قادمين من إنجلترا، وتعلمت أشياء قليلة، وكنت أسبح كالسمكة، متين البنية قويا، بالغ النشاط، ولم أكن أعرف لا الكريكيت ولا كرة القدم، وانغمست فى الرياضة حتى أصبحت فى خلال ثلاث سنوات رئيس فريق الروغبى الخامس عشر وفريق الكريكت الحادى عشر، أما دروسى فكان نجاحى فيها ضئيلاً.

وكانت علاماتى الدراسية صدمة لى، فقد كنت أطمح إلى دخول الكلية العسكرية، ولذلك انصرفت بجد إلى الدرس، فاجتزت الإمتحان دون صعوبة، وقبلت فى يناير عام ١٩٠٧ فى كلية ساند هورست العسكرية الملكية.

وسانت بول مدرسة ممتازة شرط أن تتوفر لدى الطالب إرادة الدرس، ولأول مرة فى حياتى استطعت أن أقوم بعمل يبدو لى فيه سلطان، فلأول مرة أتيح لى أن أرسم خططى فى القتال على أرض ملعب كرة القدم، وكانت الانتقادات التى وجهت إلى هذه الخطط بالغة العنف، فقد وجد بعض زملائى تكتيكى غير مألوف.

وكان عمرى تسعة عشر عاما عندما تركت مدرسة سانت بول، وكانت الأعوام التى قضيتها فيها مفيدة للغاية،

والحرية فى الكلية أكبر منها فى المدرسة الإعدادية أو الخاصة، حيث يخشى أن يخلط الطفل بين الحرية وترك الحبل على الغارب، ولقد طبعت سانت بول أخلاقى بطابعها، وأسفت لفراقها أبلغ الأسف، وكانت المرحلة التالية لى فى ساند هورست.

وعندما أصبحت رجلا تركت الصبيانات كما يقال، ودخلت إلى ساند هورست في يناير ١٩٠٧.

إن بعض الناس يستطيعون بلا شك إذ يلقون نظرة جديدة على طفولتهم، أن يجدوا فيها ما يقولون مرة أخرى، أما فيما يتعلق بى فهناك أمران يدعوان إلى الأسف، وكلاهما يعودان إلى أن والدتى كانت هى التى تحكم العائلة، وأن والدى بقى فى الخط الخلفى، لقد تعلمت الخوف في سن مبكرة جداً، فانكمشت شيئاً فشيئا داخل قوقعتى مدافعا عن نفسى وحيداً، وكان لهذا، بدون أدنى شك، نتائج عظمى أثرت على التطور اللاحق لمزاجى، أضف إلى ذلك أنه قد قذف بى فى كلية كبرى دون أن تفسر لى مسبقا بعض الأمور، فاضطررت لأن أبدأ فى فهمها فى مضطرب الحياة المدرسية القاسى دون أن أصل مع ذلك إلى معرفة كل شىء قبل دخولى إلى ساند هورست فى التاسعة عشرة من عمرى، وكان يمكن أن يكون لهذا الإهمال نتائج سيئة، ولكنى لا أظن أنه أدى فعلا إلى شىء منها، وعندما غادرت الكلية، كانت فكرة هامة قد أخذت تتجلى فى ذهنى، فحواها أن الحياة معركة قاسية، وأن على الفتى أن يكون قادراً على مواجهة الصراع ومواجهة النكسات، كما أنه عليه لكى ينجح أن يكتسب كثيرا من الصفات، أثنتان منها أساسيتان، هما العمل الجاد والتجرد المطلق، ولم تكن قد بدت لى بعد ضرورة الأساس الدينى، وكان والدى يأمل دائماً فى أن أصبح من رجال الدين، ولكن هذا لم يحدث، وما أزال أذكر خيبة والدى عندما قلت له: إننى أريد أن أصبح جنديا، ولم يحاول أبدا أن يبدل من اقتناعى، ولو أتيح لى أن أحيا حياتى مرة آخرى، لما تصرفت على غير هذا النحو، ولاخترت أن أكون جنديا.

* * * *

الفصل الثانى
أيامى الأولى فى الجيش

فى عام ١٩٠٧ ، كان الإلتحاق بكليـة ساند هورست العسكرية الملكية يجرى إثر مسابقـة، فكان هناك أولا إمتحان لابد أن يثـبت المرشح فيه إمتـلاكه لحد أدنى من الطاقات العقلية، ثم تجرى المسابقة بعد حوالى عام لاختيار المتفوقين، ولقد استطعت اجتياز هاتين العقـبتين دون صعوبة، واحتللت المرتبة الثانيـة والسبعين من بين ١٧٠ ناجحاً.

وكانت التكاليف فى سـاندهورست تبلغ ١٥٠ جنيها فى العـام لمن كان من أبناء المدنيين، وتشتـمل على نفقات الطعام والمسكن وغير ذلك من النـفقات الضرورية، ولم يكن هناك غنـى عن شىء من المال لنفـقـات الجـيب، ووافق والداى على أن يعطيانى جنيهين فى كل شهـر وفى فترات العطلة أيضا، وهكذا بلغ دخلى الخاص ٢٤ جنيها فى العـام الواحد ولا شك فى أن يكون كثيـرون من رفاقى على ما كنت عليه أنا من الفقر، ولكننى تكيفت مع هذا الوضع.

وحيث أن ألوان اللهو الخارجى كانت محجوبة عنى بسبب افتقارى إلى المال، فقد انغـمـست فى الـرياضـة، وفى الدرس، وكـانت بداياتى فـى الدرس تدعـو إلى الارتياح، وكانت العادة جارية آنذاك بأن يسمى عدد من أفضل الطلاب عرفاء بعد مضى ستة أشهر على حضورهم الدروس، وكانت هذه التسمية تعتبر امتيازاً كبيراً، وهؤلاء العرفاء يصبحون دائماً رقـباء خلال نصف السنة الثانى، وكان واحد أو اثنان منهم يسميان حاملين العلم، ويحمل كل منهما سيفا، وكانت هذه هى أعلى درجة يبلغها طالب من طلاب الكلية العسكرية.

وسميت عـريفا، وكان هذا سببـا لمتاعبى، وأيا ما كان الأمـر فإلى ذلك التاريخ يعود بدء سقوطى، فقد كان فـريق الفتيان من السرية (ب) الذى أتولاه، يضم عددا كبـيراً من الأشـداء الصاخـبين ذوى الأيد، فـأغرتنى سلطتـى بوصفى عـريفا أن اترأسهم، ودخلنا فى حرب مع فتيـان السرية (أ) المقيمين فى الطابق الأعلى، ونقلنا الحرب إلى قطاعات أخرى، وسميت سريتنا السـرية (ب) الدموية، وكثيرا ما جرت المعارك الشديدة فى الأروقة بعد إطفاء الأنوار، واستعملت فيها القضبان المعدنية وما شاكلها من الأسلحة، وكثيرا ما اضطر عدد من الطلاب لأن يتوجهوا إلى المستشفى لتضميد جراحهم.

وتركز الانتبـاه على السرية (ب) الدموية وعلىَّ، وبلغ هذا الانتباه أقـصاه حيث أصيب أحد الطلاب غـير المحبوبين بحروق شديدة فى مؤخـرته، وقد تصرف هذا الطالب بطريقة مثـالية حين رفض الإفصاح عن مـرتكب العمل المشين، ولكن كل ذلك لم يكن ليـفيد فى شىء، إذ أن الذنوب تـنتهى دائما إلى الانكـشاف، وهكذا أعدت إلى الصف وصـدرت مذكـرة فى الأمر اليومى بسـاند هورست، تعلن أن العريف مونتـجومرى قد كسرت رتبـته دون أن تذكر أى سبب لهذا التـدبير، وكان علىَّ أن أعتبـر نفسى سعيداً، لأننى لم أطرد من الكلـية، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الماجور «فـوربس» من فرقة الرماة الأسكتلنديين الملكـية، كما يعود إلـيه فضل افتتاحى صفحة جديدة وعودتى إلى الصراط المستقيم.

وتلقيت مرة أخرى صدمة ثانية، فقد سمى عدد من زملائى الطلاب ضباطا فى ديسـمـبر ١٩٠٧ بعد أن قـضوا سنة كاملة فى سـاندهورست، ولم أكن بينهم، بل اضطررت إلى الانتظار سـتـة أشـهـر بعـد ذلك، ولكن هذا الدرس كـان لى بالغ الفائدة، فقـد أقبلت على العمل بتـصميم خلال نصف هذا العـام عازما على أن أكون من بين الأوائل.

وكنت منذ بعض الوقت قد أدركت أننى لا أستطيع لأسباب مالية أن أقوم بالخدمة فى إنجلترا، وكانت المرتبات فى جيش الهند مرتفعة ويمكن العيش بها فى فوج بريطانى مقيم بتلك البلاد، وعلى ذلك سجلت اسمى للالتحاق بجيش الهند، ولكن التنافس كان شديداً للأسباب المالية التى ذكرتها، ولم أوفق فى الإلتحاق بجيش الهند، والتحقت بفيلق «ورروكشاير» الملكى، ولم أندم يوماً على هذا الاختيار، ففى هذا الفليق اكتسبت المبادىء الرئيسية لمهنة السلاح، وكان يشجعنى على العمل قائد سريتى الأول الكولونيل «ماكدونالد»، المتقاعد اليوم بعد تجاوزه الثمانين، فقد كان لى صديقا على الدوام.

وفى ديسمبر ١٩٠٨، التحقت بالفوج الأول فى بيشاور على حدود الهند الشمالية الغربية، وكنت قد بلغت الحادية والعشرين منذ عهد قريب.

وكانت وسائل النقل لدى الفوج تتألف من عربات تجرها البغال، ومن بغال لحمل الأثقال، وكنت أجهل كل شىء يتعلق بهذه الحيوانات، وكان على أن أتعلم ذلك، وعند نهاية الدروس كان يجرى امتحان شفهى يتولاه فاحص من الخارج، وكان يأتى من الهند الوسطى، ومثلت أمام هذا الرجل المرعب لأجتاز الامتحان الشفهى، واجتزت الامتحان دون كثير من الصعوبات، وعدت إلى فيلقى بألكيل الغار الذى نلته بحق. ولقد غادر الفوج بيشاور فى آخر عام ١٩١٠ متوجها إلى بومباى، حيث كان عليه أن يمضى العامين الآخرين من أعوام خدمته فى الخارج، وانصرفت إلى العمل بكل جد، وعاد الفوج إلى إنجلترا عام ١٩١٣، وعين فيه ضابط من ضباط فوجنا الثانى لم يكد ينهى تدريبه لمدة عامين فى مدرسة أركان الحرب فى كامبرلى، وكان هذا الضابط هو الكابتن «لوفروى»، وكان أعزب، وقد اعتدت على أن تكون لى معه محادثات طويلة حول الجيش وأخطائه، وخصوصا حول السبيل إلى تعريفى فعلاً بفن الحرب، فأثارت حماستى اهتمامه على الفور

وأعطانى نصائح ثمينة محدداً لى الكتب التى يجب أن أقرأها والأسلوب الذى يجب علىَّ اعتماده فى العمل، وأعتقد أن «لوفروى» كان أول من دلنى على الطريق التى يجب على سلوكها وشجع حماسة الشباب فى، ولقد قتل فى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، وكان غيابه خسارة كبرى لى وللجيش.

وفى أغسطس ١٩١٤، بلغت السادسة والعشرين وكنت ملازما أول، ولقد عبىء «فوجى» فى شورنكليف، ونزلنا إلى البر فى فرنسا مع الفرقة الرابعة، متأخرين بضعة أيام عن معركة مونس، وتقدمنا على الطريق نحو كاتو.

وفى فجر اليوم السادس والعشرين من أغسطس ١٩١٤، عسكر اللواء العاشر الذى ينتمى إليه «فوجى» فى حقول القمح قرب قرية هوكور، بعد سير طويل أثناء الليل، وتمركز فوج على رابية مغطيا بقية اللواء الذى كان خلفه فى الوادى، وما لبث هذا أن هوجم من قبل الألمان الذين فتحوا النار عليه من مسافة قريبة، فهرول مسرعا على انحدار الرابية باتجاهنا فى فوضى كبيرة.

وكان فوجنا منتشرا على خطين، وكانت سريتى وسرية أخرى فى الخط الأمامى، والسريتان الأخريان غير مرئيتين على بعد بضع مئات من الأمتار إلى الوراء، وجاءنا قائد الفوج مهرولا صارخا يأمرنا بمهاجمة العدو فوراً على الرابية، وكان هذا الأمر الوحيد الذى تلقيناه، دون استطلاع مسبق، ولا خطة، ولا ستارة من النيران، فتسلقنا الرابية تحت نار شديدة، وجرح قائد سريتى وتكبدنا خسائر كثيرة، ولم يكن أحد يعرف ماذا يمكن أن يفعل، فأرتددنا إلى نقطة انطلاقنا، وإذا كانت فعلا هذه هى الحرب، فقد بدت لى بالغة الغرابة وليس لها أية صلة بما كنت قد قرأت عنها، وكانت الأيام التى تلت ذلك شديدة الإيلام، وقصتها أصبحت جزء مما يستدعى الانسحاب من مونس، ولم تتلق السريتين المتقدمتين اللتين باشرتا الهجوم أى أوامر أخرى، وتركونا فى الخلف عندما بدأ الانسحاب، وخلال ثلاثة

أيام سرنا بين ستـار الخيالة، وبين المجموعـة العظمى من قوات العدو، متـحركين أغلب الأحيان خـلال الليل، مختبـئين فى النهار، وأصبحـنا الآن بأمرة ضابط ذى وزن كبير هو الماجور (أ. ج . بول)، ولم نستطع إلا بفضله أن نلحق أخيراً بالحملة البريطانية ونلتحق بوحدتنا، وعلمنا آنئذ أن قائد فوجنا قد عزل، كما عزل أيضا قائد فوج آخر من أفـواج اللواء، وبعد تنحيـته دخل الليوتنان كولونيل «الكنـغتون» الذى كان يقود فوجنا، الفرقة الأجنبية الفرنسية حيث كانت له أعمال لامعة.

وبعد بضـعة اشتـباكات ثانويـة على جبهـة الأين، نقلنا مع ما تبـقى من الحملة البريطانيـة إلى الجناح الشمالى لجبـهة الحلفاء، ودارت بعدئذ معـارك شديدة هناك، وفى ١٣ أكتوبر أمرنا بالهجوم للمرة الثانية، لكن كان «بول» هو الذى يقودنا فى هذه المرة، وكانت هناك خطة وأوامر محددة، وكانـت هناك سريتان فى المقدمة، وكانت سريتى على الميـسرة موجـهة نحو مجـموعة من المبـانى فى جوار قرية (ميـتران)، وعندما دقت ساعـة الهجوم أخرجت سيفى من غمده وصرخت فـى فصيلتى أن تتبعنى، وتقـدمنا فى المدينة بخطى سـريعة بينمـا كانت تنهـال علينا نيران شـديدة فأصيب رجالى بإصابات متعـددة ،ولكنا واصلنا سيرنا، وما كدنا نقترب من هدفنا حتى شاهدت فجأة خندقا مليئا بالألمان، ما لبث أحدهم أن شهر بندقيته باتجاهى.

وكان واضحا أن إتخاذ قرار سريع هو أمر حـيوى، فأندفعت بأقصى سرعة إلى الألمانى ضاربا إياه بقبـضة يدى بأعنف ما استطعت فى أسـفل بطنه، وكانت الضربة محكمة وفى مـوضع حساس، فوقع أرضا وقد آلمتـه الضربة أشد الإيلام، وهكذا اعتقلت أسيرى الأول.

وقاتلنا طوال النهار، وكانت مهمتنا تطهير القرية من الألمان الذين يحتلونها، وفى خلال الاشتـباكات التى دارت بين المنازل جرحت برصاصـة أصابتنى فى صدرى، ولكننا طردنا الألمان من القريـة، ومن أجل هذا العمل فى (ميتـران)، منحت وسام الخدمة الممتاز.

ولقد بقيت يومئذ حيا بفضل أحد جنود فصيلتى، فلقد سقطت على الأرض مكشوفاً، فرقدت بلا حراك آملا أن لا أثير انتباه الألمان، ولكن أحد جنودنا هرع إلى، وكان قد بدأ يضمد جرحى حين اخترقت رأسه رصاصة فهوى أمامى صريعاً، واستمر إطلاق النار علينا فأصبت بجرح فى ركبتى، وأصيب الجندى بعدة طلقات كانت موجهة لى، ولم تقم فصيلتى بأية محاولة أخرى لنجدتنا، فقد كان جنودنا فى الواقع يعتقدون أن كلانا قد مات، ونقلت إلى إنجلترا حيث لزمت المستشفى، ولم أشترك فى الحرب مدة بلغت بضعة أشهر.

وعندما شفيت التحقت بهيئة أركان حرب، وعدت إلى فرنسا فى بداية عام ١٩١٦ برتبة مقدم، وخلال معركة السوم فى الصيف التالى كان على أحد ألوية المشاة أن يكون هو اللواء الضارب فى هجوم تقوم به الفرقة، وكان من الأمور الهامة أن يتلقى قائد اللواء بسرعة معلومات عن التقدم الذى تحققه قواته المتقدمة، فعلى هذا التقدم تتوقف حركة القوات الاحتياطية فى المؤخرة، وكانت المشكلة فى معرفة الطريقة التى يجب أن تؤمن بها سرعة وصول المعلومات المتجمعة، وأظهر مقر اللواء العام اهتماماً كبيراً حين علم أن حمامة يمكن أن تستعمل لنقل الأخبار، وقد تسلمنا هذه الحمامة فى الوقت المناسب، وبقيت بضعة أيام فى قفص خاص، وعندما جاء يوم الهجوم عهد بالحمامة إلى جندى كان عليه أن يرافق وحدات الطليعة، وقيل له إن أحد الضباط سيكتب فى وقت من الأوقات رسالة تربط فى إحدى أرجل الحمامة، وعليه عندئذ أن يطلقها فتطير عائدة إلى قفصها فى مقر اللواء العام، وشن الهجوم، وأخذ قائد اللواء ينتظر بقلق عودة الحمامة، ولكن الوقت أخذ ينقضى دون أن تصل الحمامة، وأخيراً هبطت الحمامة هبوطا هادئاً نحو قفصها، وسلمت الرسالة إلى الجنرال، فإذا به لا يجد فيها إلا هذه العبارة: لقد سئمت من نقل هذا الطير المقدس معى فى أنحاء فرنسا ولقد قضيت الأشهر

الأخيـرة من الحرب كـرئيس لأركان حـرب الفرقة الـسابعة والأربعـين فى لندن، فدرست مطولا مشكلة معرفة كيفيـة الحصول بسرعة فى القوات العامة للفرق على المعلومات الدقـيقة بالغـة الأهمية حـول تطورات القتال، وهى المعلومـات التى تتيح للجنرال تكييف استعداداته وفقا للوضع التكتيكى كـما يتبدى، وأخيرا ابتدعنا طريقة تتلخص فى تزويد هيئات أركـان حرب أفواج الطليعة بضبـاط لديهم أجهزة إرسال ومكلفين بأن يبعثوا الرسائل باللاسـلكى، وكانت الصعوبة آنذاك فى الحصول على أجهزة إرســال ملائمة يمكن أن يحملها الجندى، ولم تكـن هذه الطريقة إلا وسيلة لبلوغ الغاية، ولكنها أعطت نتائج حسنة فى كثير من الأحيان.

وكان فى ذلك نواة الطريقة التى قـمت بتحسينها فى الحرب العالمـية الثانية، والتى أصبحت أخيـراً تتمثل فى فريق ضباط الاتصال المزودين بسـيارات الجيب والعاملين إنطلاقا من المقرات العامة التكتية المتقدمة.

وفى تلك الفتـرة من حياتى اتخـذت قرارى القاضى بأن أنذر نفـسى كليا لمهنتى فأتعـمق فى جميع تفـاصيلها وأدع كل ما تبـقى جانبا، وكنت أجـهل آنذاك كيف أستطيع المضى فى ذلك، ولم أكن أعرف أحدا من كـبار قادة الجيش، ولكننى كنت مقتنعا بأن أول مـا يجب علىَّ فعله هو متابعة دروس مدرسـة الأركان، وقد عادت هذه المدرسة ففـتحت أبوابها عندما وضـعت الحرب أوزارها، وجرى اعطاء دروس الصف الأول التى لم يتم اختيارى لمتابعتها فى عام ١٩١٩ وكانت دروسا مختصرة، وعلقت آمالى على الصـف الثانى الذى كان يجب أن تبـدأ دروسه فى يناير ١٩٢٠ وتستمر سنة كـاملة على الأقل، ولكنى عندما نشرت أسماء المقـبولين لم يكن بينها اسمى كذلك، غير أن الفرصة مع هذا لم تفت بالكلية.

وكان القـائد العام للجـيش فى ألمانيا آنذاك الـسير «وليم روبرتـسون»، ولم أكن أعرفه، وكـان يعشق رياضة التنس، فدعـيت يوما من الأيام إلى ملاعبـته فى منزله

بكولونى، وقررت أن أجازف بـكل شىء للحصول على ما أريد، فأطـلعه على ما يشغل بالى بكل تفصيل، وكـان هو أيضا قد كافح كثيرا فى شبـابه، فهو لهذا يؤثر مساعدة الشباب، وكنت أعلم ذلك فيزيدنى علمى به امتلاء بالثقة والأمل.

وبعـد لعبـنا التنس بفتـرة قـصيـرة من الزمن، علمت أن اسـمى أضـيف إلى اللائحة، وتلقيت الأمـر بأن أحضر فى يناير ١٩٢٠ إلى مدرسـة أركان الحرب فى كامبرلى، فلقد فعل القائد العام ما كنت قد سألته أن يفعل.

وبدت السبل الآن ممهدة، ولكنها ما كانت بالغة اليسر.

* * * *

الفصل الثالث
بين الحربين

دخلت كلية أركـان الحرب فى كامبـرلى فى يناير ١٩٢٠ دون أن أدعى الذكاء، وإنما كنت أظن أننى أملك مقداراً معـينا من الحس السليم لم يتح له التدرب، وكان يبدو لى أن المهم هو امتلاك حس سليم مدرب.

وكان رفقائى فى كامبرلى يعتبرون نخبة الجيش والضباط المهيئين لأعلى القيادات، على أن قلة نادرة منهم استطاعت الوصول إلى هذه القـيادات، وكان المعلمون هم أيضا رجال مختارين، ولكن واحدا منهم بلغ القمة، هو الضابط اللامع ديل.

وكان لأحد رفقائى تأثير كبـير علىَّ، فقد كان ذو عقل من الطراز الأول وكانت طاقاته عظيمـة، ذلك هو «جورج لندسى» من لواء الرماة، وقد تقاعد بـرتبة ماجور جنرال.

وكان جنرالات الحرب الجيدون يحتلون كل المناصب العليا، ويستمرون فيها وقتا أطول كثيـرا مما ينبغى، فكان «ميلن» رئيسا لهـيئة أركان الحرب الامـبراطورية خلال سبع سنوات، من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٣، ولم يحالف الجيش التـوفيق بعده فى اختيار قادته الكبار، فقد حل محل ميلن، مونتجومرى ما سنجبرد، الذى شغل منصبه فى فترة بالغة الأهمية لشئون الجيش ، من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٦، وفى رأيى أن تعيينه كان خطأ كبيراً، إذ أن الجيش فقد تحت إمرته كل حـيويته وأصبح كسفينة من دون دفة، أما من كان مؤهلا آنذاك لهذه المهمة فهو «جوك بورنت ستيوارت»، ألمع جنرال فى الجيش البريطانى، ولو أنه كان رئيس الأركان، لكان الجـيش أفضل استعداد للحرب عام ١٩٣٩ .

وفى عام ١٩٣٦، خلف ديفرل، مونتجومرى ماسنجبرد، ولكنه لم يكن على تفاهم مع وزير الحربية، هوربليشا، وأعفى من منصبه بعد ثمانية عشر شهراً، ولو أنه ظل فى هذا المنصب لقام بعمل ممتاز بكل تأكيد، غير أن هوربليشا فضل عليه غورت، الذي لم يكن مناسباً لهذا المكان إطلاقا، ولكنه احتفظ به حتى إعلان الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩.

وكان نتاج هذا كله أن الجيش البريطانى بلغ الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ بتنظيم وعتاد يصلحان لحرب ١٩١٤، وعلى رأسه قادة غير أكفاء.

وفى ديسمبر ١٩٢٠، اجتزت إمتحان التخرج فى كلية أركان الحرب، وأظن أن علاماتى كانت جيدة.

ولقد أرسلت برتبة ماجور إلى لواء المشاة السابع عشر فى كورك للاشتراك فى حرب أخرى هى الحرب ضد السن فاين فى إيرلندا الشمالية، وكانت هذه الحرب من أوجه كثيرة أسوأ من الحرب الكبرى التى انتهت عام ١٩١٨.

وبعد انتهاء القتال ضد السن فاين فى عام ١٩٢٢، شغلت فى إنجلترا مناصب مختلفة فى أركان الحرب إلى أن أرسلت فى عام ١٩٢٦ لأعمل مدرسا فى كلية الأركان.

وفى عام ١٩٣٠، اختارتنى وزارة الحربية لتعديل كتاب المشاة الموجز، وكان فى هذا بادرة كبيرة من بوادر التقدير، فقررت أن أجعل من هذا الكتاب رسالة فى الحرب يستطيع أن يفهمها ضابط المشاة، وكان لابد من أن تقر الكتاب لجنة من وزارة الحربية، فجرت مناقشات حامية حول بعض النقاط ولم استطع الموافقة على معظم التعديلات التى تناولت عقيدتى بشأن استخدام المشاة فى زمن الحرب، واقترحت آنئذ أن تنفض اجتماعات اللجنة لأنصرف إلى إعادة النظر فى الكتاب

بهدوء، فـقبل اقـتراحي، ووضعت بعـد ذلك النص النهائي الذى حـذفت منه كل التعديلات المقترحة من اللجنة، وعندما نشر الكتاب اعتبره الناس ممتازاً، وفى طليعة من اعتبره كذلك مؤلفه.

وبينما كنت مـدرسا فى كليـة الأركان فى كامـبرلى، وقعت فى شـباك الحب، وتزوجت فى ٢٧ يوليو ١٩٢٧، وولد ابنى دايفد فى ١٨ أغسطس ١٩٢٨، وتوفيت زوجتى ١٩ أكتوبر ١٩٣٧.

وفى أكتوبر ١٩٣٨، بعـد أن قضيت ما يزيد قليلا على العـام فى بورتسموث، تلقيت الأمر باستـلام قيادة الوحدات المشتركة فى شمـالى فلسطين فى قمع الثورة العربية، وكان على أن أنشىء منهـا فرقة جديدة، الفرقة الثامنة التى ستـتخذ مقرها العام فى حـيفا، وكانت هذه مـهمة سرتنـى أعظم السرور، فأنا الآن برتبة مـاجور جنرال، ولكن الإقامة فى فلسـطين ستفصلنى عن دايفد، فـتطوع بعض أصدقائى المخلصين بأن ينوبوا عنى بالنسبة إليه، ومنذ ذلك التاريخ لم يكن باستطاعتى أن أوفر له جو المـنزل قبل عام ١٩٤٨، إذ أن الحـرب اندلعت عام ١٩٣٩ بعـد ذهابى إلى فلسطين بوقت قصير. وفى شـتاء ١٩٣٨ - ١٩٣٩، بينما كنت أقاتل فى فلسطين، عينت قائداً للفرقة الثالثة فى إنجلترا، وكانت هذه الفرقة نظامية مقرها العام فى سهل سالسبورى، وكانت تضم لواء المشاة التاسع الذى قدته فى بورتسموث قبل أن أرسل إلى فلسطين، وكـان علىّ أن أتولى قيادة هذه الفـرقة فى شهـر أغسطس ١٩٣٩، ولكنى مرضت فجأة فى شهر مايو، ونقلت فى سيارة إسـعاف إلى مستشفى حيفا، أن الصورة الشـعاعيـة أظهرت لطخة فى الـرئة، فقد ذهب الظن إلى أنى مـصاب بالسل، ولما لم تتـحسن صحـتى طلبت أن أعود إلى إنجلتـرا، وكنت مقتنـعا بأننى سأستعيد عافيتى عندما أترك مناخ حيفا الحار الرطب، وتوجهت رأسا إلى مستشفى

ميلبانك فى لندن، حيث طلبت إجراء فحص طبى مدقق، واستمر هذا الفحص ثلاثة أيام صدر بعدها القرار بأننى لا أشكو شيئاً.

وبعد أن قضيت بضعة أيام فى الراحة، توجهت إلى وزارة الحربية، وسألت إذا كان باستطاعتى الآن أن أتسلم قيادة الفرقة الثالثة، وكانت غيوم الحرب قد أخذت تتلبد فى تلك الأثناء، وكان الجيش على أهبة التعبئة، وقيل لى إن التعيينات السابقة تلغى أتوماتيكيا فى حالة التعبئة ويبقى كل قائد فى قيادته، وكان قائد الفرقة الثالثة على وشك الإلتحاق بمنصبه الجديد، ولكنه بقى الآن فى قيادة الفرقة، فطلبت عندئذ أن أعود إلى فلسطين لأستعيد قيادة الفرقة الثامنة، ولكن الجواب كان كلا، إذ قد حل محلى قائد آخر على رأس هذه الفرقة، وقيل لى إننى أصبحت أحد الضباط برتبة ماجور جنرال ممن هم تحت التصرف، ولم يكن ذلك يناسبنى مطلقا، فبريطانيا العظمى تعبأ للحرب، وأنا تحت التصرف، وأخذت ألاحق وزارة الحربية وألح فى الطلب، وفى آخر المطاف تولى الجنرال تمورت وظيفة حاكم المستعمرات، وتسلمت أنا قيادة الفرقة الثالثة قبل بضعة أيام من إعلان الحرب.

* * * *

الفصل الرابع
بريطانيا تدخل الحرب العالمية الثانية

فى ٢٨ أغسطس، تسلمت قيادة الفرقة الثالثة، وكانت التعبئة الجزئية يومئذ جارية، أما التعبئة الكاملة فقد تقررت فى أول سبتمبر وهو اليوم الذى غزا فيه الألمان بولونيا، ووجه الحلفاء فيه إنذاراً إلى ألمانيا.

كان كثير من وسائل النقل فى فرقتى يتألف من شاحنات أتى بها من مدن مختلفة بإنجلترا وكانت فى حالة سيئة، وعندما انتقلت فرقتى من موانىء إنزالها نحو منطقة احتشادها القريبة من الحدود الفرنسية البلجيكية، أخذت السيارات المحطمة تنتشر على أرض الريف الفرنسى.

أما العتاد المضاد للدبابات فى فرقتى، فكان يتألف من مدافع من عيار(٢ ليبرا)، وكان سلاح المشاة ضد الدبابات البنادق من عيار (٠,٨ بوصة)، وسارعنا إلى شراء بضعة مدافع صغيرة على عربات ذات أيد من الفرنسيين، وأعطى كل فوج مشاة عدداً منها، وفيما عدا ذلك كانت هناك قطع من عيار (٢٥ ليبرا) فى مدفعية فرقتى، مفروض أن تلعب دوراً فى القتال ضد الدبابات، وكان فى مكان ما من فرنسا تحت تصرف مقر القيادة العليا لواء دبابات.

وبدأت العمليات الفعلية فى ١٠ مايو ١٩٤٠، وفى اليوم التالى كان تشكيل الجبهة من لونجوى إلى البحر على النحو الآتى من الشمال إلى الجنوب:

١ - مجموعة الجيوش رقم (١) بقيادة الجنرال بيلوت، مؤلفة من الجيش الفرنسى الثانى، والجيش الفرنسى التاسع، والجيش الفرنسى الأول، وكانت هذه الجيوش ترابط على جبهة ممتدة من لونجوى حتى وافر، مرورا بسيدان،

وكان فى قسم الأردين - الموز من هذه الجبهة الجيشان الثانى والتاسع الفرنسيان المؤلفان على الأخص من فرق من المرتبة الثانية، وكان الجيش الأول الفرنسى يجاور جيش الحملة البريطانية، ويتألف معظمه من فرق من المرتبة الأولى.

٢ - قوات الحملة البريطانية، وهى ليست تحت قيادة الجنرال «بيلوت»، بل تتلقى أوامرها مباشرة من الجنرال «جورج»، وكانت فرقتى الثالثة هى فرقة الميسرة لقوات الحملة البريطانية، وكان إلى يسارها الجيش البلجيكى.

٣ - الجيش البلجيكى، مستقلا وبقيادة ملك بلجيكا.

٤ - الجيش السابع الفرنسى، بقيادة «جيرو»، وكان فى الأصل ملحقا بمجموعة الجيوش رقم (١)، واتجهت نية الجنرال «جورج» إلى إبقائه كاحتياطى خلف الجناح الأيسر، وكان قرار الجنرال جورج هذا صحيحا، ولكن «غاملان» قرر خلاف ذلك، فأصدر أمره بأن يعمل هذا الجيش المؤلف من سبع فرق مجتازا بلجيكا باتجاه أنفرس، بغرض دعم القوات البلجيكية والهولندية، فتكبد خسائر فادحة، وعانى من نقص الذخائر، ولم يستطع أن يحصل على أية نتيجة.

وبصرف النظر عن خطأ القيادة هذا، لم تكن حالة المخابرات لتسهل الأمور، فمنذ اليوم الذى أعلنت فيه الحرب، أصر الفرنسيون إصراراً بالغا على أن تلزم جميع الموجات الصمت حتى أصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل إجراء الاتصالات على هذا النحو، ولهذا السبب كانت القوات الحليفة تكاد لا تجرى اتصالاتها فيما بينها إلا بواسطة الهاتف المدنى مما كان يشتمل على مخاطر كبيرة.

أضف إلى ذلك، أن مقر القيادة العليا لقوات الحملة البريطانية لم يقم أبدا بإدارة أية تمرينات، بجيوش أو بغير جيوش، بين اليوم الذى نزلنا فيه فرنسا عام ١٩٣٩،

واليوم الذى بدأت فيه العمليات الفعلية في أيار ١٩٤٠، وكانت نتيجة ذلك عدم وجود خطة مشتركة أو مبدأ تكتيكى فى جميع قوات الحملة البريطانية.

وفى يوم ١٢ مايو، جرى الاتفاق على أن يقوم الجنرال «بيلوت» باسم الجنرال «جورج» بتنسيق عمليات قوات الحملة البريطانية والجيش البلجيكى، وهذا التنسيق لم يكن أبدا قيادة فعلية لجميع القوات المعنية، ومثل هذه القيادة شأن أساسى فى القتال وغاب الجنرال «بيلوت» فى ٢١ مايو بعد أن أصيب بجروح خطيرة فى حادث سيارة وتوفى بعد يومين، ولم يبق عندئذ أحد ينسق العمليات الفرنسية والبريطانية والبلجيكية، وبعد ثلاثة أيام عين أخيراً الجنرال بلانشار قائد الجيش الفرنسى الأول خلفا للجنرال «بيلوت»، ولكن بعد فوات الأوان.

واستمر الهاتف المدنى الوسيلة الرئيسية للمخابرات، يتمم عمله ضباط الاتصال والزيارات التى يقوم بها القواد وأركان حربهم، وابتداء من ١٦ مايو أخذ التقدم الألمانى يقطع الخطوط الجوية، وفى اليوم نفسه توقفت الاتصالات الهاتفية بين مقر القيادة العليا «غاملان» والمقر العام للجبهة الشرقية «جورج» ، وفى اليوم نفسه أيضا قطعت جميع المخابرات المباشرة بين الجنرال جورج ومجموعة الجيوش رقم (١) «بيلوت»، ومنذ ١٧ مايو لم يبق تحت تصرف «غورت» خطوط هاتفية للإتصال بالمقر العام البلجيكى على ميسرته، وبالجيش الأول الفرنسى على ميمنته وبالمقر العام للجبهة الشمالية الشرقية «جورج» فى مؤخرته.

وأخيراً جرى حل مصلحة الاستخبارات ، وفى ١٥ مايو أخذ الفرنسيون يواجهون المصاعب على ميمنة قوات الحملة البريطانية، وجرى الاختراق الألمانى على جبهة الجيش الفرنسى التاسع، ولم يكن لمقر القيادة العليا فى مقر هذا الجيش العام ضابط اتصال كما كان له لدى الجيش الفرنسى الأول المرابط مباشرة على ميمنة قوات الحملة البريطانية، ونتيجة ذلك لم يحصل مقر القيادة العليا فورا على

تفاصيل عن عملية الاختراق، ولم يبلغه الفرنسيون معلومات لا عن أوضاع جيوشهم الخاصة ولا عن وضع العدو، واتخذ عندئذ قراراً مذهلاً، إذ أستدعى غورت رئيس مصلحة استخباراته، الماجور جنرال «ماسون ماك فالين» ، وأسند إليه قيادة قوة صغيرة مكلفة بحماية المؤخرة اليمنى لقوات الحملة البريطانية، وأخذ الجنرال معه أقدم ضابط أركان حرب في هذه المصلحة بصفة ضابط عام في أركان حرب سلاح الجو، وهو الليوتنان كولونيل «جرالد تمبلر»، واستتبع ذلك أن «غورت» أصبح أكثر الوقت دون معلومات دقيقة عن العدو، ففي كل مكان، كان توزيع مهمات أركان الحرب، بين مقر القيادة العليا ومنصب القيادة، توزيعا سيئ التنظيم منذ البداية، وكانت الخطة مجرد عمل من أعمال الهواية، وتفتقر أكثر ما تفتقر إلى اللمسة المهنية، وما قلته كاف لكي يدرك القارىء أننا- من حيث القيادة والإشراف على القوات الموجودة في فرنسا في مايو ١٩٤٠- كنا قد خسرنا المعركة فعلا قبل أن تبدأ ، وكانت المنطقة المنوطة بفرقتي تقع جنوبي مدينة (ليل)، وكانت مهمتي في العمليات العمل في التحصينات الدفاعية التي يجب أن يمتد بها خط (ماجينو) وراء الحدود البلجيكية، وحتى ١٠ مايو كانت بلجيكا بلدا يلتزم الحياد بدقة، وكنا ننتظر بصبر أن يهاجمنا العدو، وكان علينا إذا هوجم البلجيكيون أن نتقدم ونحتل قطاعا على جانبي مدينة لوفان، وراء نهر ديل، ودربت الفرقة على هذه المهمة على مسافة مماثلة باتجاه الغرب، أي في فرنسا، وأصبحنا خبراء فيما يتعلق بالانتقال مسافة طويلة أثناء الليل، محتلين موقعا دفاعيا في الظلام ومنجزين تشكيلنا الكامل لدى الفجر ومستعدين لمواجهة الهجوم.

وفي الشتاء قرر مقرر القيادة العليا أن ترسل بعض الفرق، كل بدورها، ألوية مشاة إلى جبهة اليسار، لاحتلال مواقع أمام خط «ماجينو» تحتك بالمواقع الألمانية على خط (سيغفريد)، وقد توجهت في يناير ١٩٤٠ لتفتيش أحد ألويتي وقضيت

هناك بضعة أيام لأقوم بجولة عامة، وكانت هذه أول خبرة لى حول الجيش الفرنسى فى حال العمل، فأنتابنى قلق جدى، وتوجهت لدى عودتى لمواجهة قائد جحفلى، الجنرال «بروك»، فعرضت عليه مخاوفى بشأن الجيش الفرنسى وما يمكننا أن نتوقعه من هذا القطاع فى المستقبل، وكان بروك قد زار هذا القطاع بنفسه وعاد منه بالرأى ذاته.

ولست أنوى أن أصف بالتفصيل عمليات الـفرقة الثالثة فى الحملة التى بدأت فى ١٠ مايو ١٩٤٠، ولكن بعض الحوادث تثـير الاهتمام، فقد كانت أول مـهمة علينا أن ننفذها تلك التى كنت أتوقـعها بالضـبط، وهى التقدم واحتـلال قطاع على نهر ديل على جانبى مدينة لوفـان، وقد نفذت الفرقة المهمة أحـسن تنفيذ، وكان القطاع على نهر ديل محتلا من جانب فرقـة بلجيكية لم تكن قد اشتبكت آنئذ مع الألمان، وعندما استيقظ الجنود البلجيكيون صباح يوم ١١ مايو وجدوا فرقة بريطانية تساندهم فى القطاع، وقد وصلنا بهدوء أثناء الليل وكان أكثر البلجيكيين نياما.

وذهبت لأقـابل الجنرال البلجـيكى وطلبت منه أن يسـحب فـرقتـه ويسـمح لى باستـلام الجبهة والمحـافظة عليها، فـرفض قائلا: إنه لم يتلق أوامر بهـذا الصدد، وأضاف أن من واجب القـوات البلجيكية الحفـاظ على مدينة لوفان القديـمة، وكان الألمان يتقدمون، والجيش البلجيكى الذى كانـت جبهته على خط قناة ألبرت يتراجع بسرعة، وكان فى القطاع كـثير من القوات فوضعت لذلك فرقتى كـاحتياطى خلف الفرقـة البلجيكيـة، وارتأيت أن أفضل سـبيل لجـعل البلجيكيـين يرحلون والحلول محلهـم هو دغدغة كـبريائهم بعض الشىء، فـقلت للجنرال البلجيـكى: إنه لأمر أسـاسى ألا يكون فى هذا القطاع إلا قائـد واحد مـسئـول هو الجنرال الذى ترابط فرقته فى الجبهة، ووضعت نفسى على هذا الأساس تحت إمرته فسر أبلغ السرور.

وبلغ النبأ مقر القيادة العليا حيث أحدث دهشة بالغة، وجاء قائد جحفلى يرانى، ولكننى قلت له أن يطمئن بالا، فـأنا أهدف إلى تنحية البلجيكيـين وعندئذ سأتولى أنا الجبهة وأصبح أنا القائد المسئول.

وعندما وصل الألمان إلى نقطة يطالهـا مدى المدفعية وبـدأ القصف ، لم أجد أية صعوبة فى احتلال الجـبهة التى ترابط فيها الفرقة البلجـيكية، فقد انكفأت هذه إلى موقع الأحـتياطى، ثم توجهت نحـو الشمال والتحـقت بمجموعة الجـيش البلجيكى العظمى.

ولقد رويت كثـيرا قصة إنسحـاب قوات الحملة البريطانية، والمعـارك اليائسة التى نشبت، والجلاء الأخيـر بطريق دنكرك وشاطئها، ولقد قامت فـرقتى بكل ما طلب إليها القيام به، وأعتقد أن أصـعب عملية نفذناها كانت تلك التى جرت فى ٢٧ مايو عندما تلقيت الأمر بوضع الفـرقة على ميسرة الجبهة البريطانيـة وسد ثغرة كانت قد فتحت بين الفـرقة الخمسين والقـوات البلجيكية، وكانت هذه العمليـة تشتمل على تحرك الفرقة كلها ليلا على مسافة كيلو مترين تقريباً من جبهة الفرقة الخامسة، حيث كانت لا تزال تدور معركة شديدة احتـدمت طوال النهار، ولقد نفذت العملية دون أية عقبة، وسدت الثغرة فى فجر ٢٨ مـايو، وكم كانت مفاجأتى كبيرة حين علمت فى صباح اليوم نفسه أن ملك بلجـيكا سلم جيشه للألمان فى ٢٧ مايو عند منتصف الليل، بينما كنت أنا أنتقل بفرقتى لأسد الثغرة المفتوحة، وإذا بى فى وضع محرج، إذ بدلا من أن يكون على ميسرتى جيش بلـجيكى، لم يعد هناك أحد، وكان علىَّ أن أتخذ قراراً سريعاً.

وقد أخذت فرقتى الثالثة مـركزها على ميمنة رأس جسر دنكرك فى ليل ٢٩ - ٣٠ مايو، ورابطنا على خط القناة بين (فورن) و(نيوبورت)، وكان مقرى العام يوجد فى الروابى الرملية بجـوار لابان، أما مقـر القيادة العليـا- أو ما بقى منه- فكان فى منزل من منازل جبهـة البحر، ولم يكن يضم إلا «غورت» نفسه وعـددا من ضباط أركان الحرب.

وفى صبيحة ٣٠ مايو، جـاء «بروك» يزورنى فى مقرى العام، وقال لى إنه تلقى الأمر بالـعودة إلى إنجلتـرا، وكان شديد الإنـزعاج، وقال لى إنـنى سأتولى قـيادة

جحفله، (الجحفل الثانى)، ففوجئت بذلك إذ كنت أصغر ماجور جنرال فى هذا الجحفل، وسافر «بروك» إلى إنجلترا فى المساء ذاته.

وعقد اللورد «غورت» آخر مؤتمر فى مقر قيادته العليا بجبهة البحر ظهر ٣٠ مايو لإعطاء أوامره، وحيث أننى أصبحت أقود الآن الجحفل الثانى فقد حضرت المؤتمر، وتلى علينا «غورت» البرقية التى تتضمن تعليمات الحكومة الأخيرة.

وفى مساء ٣٠ مايو، جمعت قواد فرق الجحفل الثانى، وأصدرت إليهم أوامرى من أجل الإنسحاب والجلاء بطريق الشاطىء فى الليلة التالية، وفى الليلة التالية أجليت الجحفل الثانى، ولم يكن الوضع حسنا، ذلك أن بعض العبارات المرتجلة التى أنشأناها لنبلغ عليها السفن أخذت تتحطم، واضطر كثير من الجنود إلى الذهاب إلى دنكرك، وأخيراً توجهنا نحن أنفسنا سيرا على الأقدام، إلى دنكرك التى كانت تبعد عن ذلك المكان ٥ أو ٦ أميال، ومعنا البغادير «ريتشى» وسائق سيارتى، ووصلنا عند الفجر، وركبنا مدمرة ونزلنا فى دوفر صباح اليوم الأول من يونيو.

وبفضل وضوح الرؤية البالغ لدى «غورت» فى مجاله المحدود، استطعنا أن نغادر جميعا دنكرك، لقد رأى «غورت» بوضوح أنه قد كان عليه، - على الأقل - العودة بجنود الحملة إلى بريطانيا ومع كل فرد منهم أسلحته، وأنا معترف بفضله كليا فى ذلك، وأرجو أن يكون التاريخ شاكراً له هذا الفضل أيضا، لقد أنقذ رجال الحملة البريطانية، أما وقد أنقذوا فقد أصبح بإمكانهم أن يعودوا إلى القتال من جديد يوماً من الأيام، وهذا ما فعلوه فى سبيل هدف معين على نحو ما استطاع الألمان بعد ذلك أن يتبينوا.

* * * *

الفصل الخامس
الجيش فى إنجلترا بعد دنكرك

وصلت إلى لندن مساء اليوم الأول من يونيو، وتوجهت صباح اليوم التالى إلى وزارة الحربية كى أقدم تقريراً شخصيا إلى صديقى القديم «جاك ديل».

وعلى الرغم من أننى توليت قيادة جحفل فى دنكرك، فقد طلبت وأجبت إلى طلبى أن أعود إلى فرقتى الثالثة لإصلاحها وإعدادها لما سيحدث فى المستقبل.

ولم يكن فى إنجلترا آنئذ كسلاح وكوسائل نقل إلا ما يكفى لإعادة تجهيز فرقة واحدة تجهيزاً كاملا، واتخذ القرار بإعطائها للفرقة الثالثة، وجعل هذه الفرقة جاهزة لاجتياز المانش مرة أخرى للإنضمام إلى الوحدات البريطانية القليلة التى ما تزال تقاتل إلى جانب الجيش الفرنسى، وقد عين «بروك» القائد الأعلى الجديد.

وأصلحنا حال الفرقة فى (سمرست)، وتلقينا عتادنا الجديد وكنا جميعاً على استعداد لاجتياز المانش فى حوالى منتصف يونيو، ولكن فى ذلك الوقت وقعت فرنسا الهدنة فى ١٧ يونيو، فتلقت فرقتى عندئذ الأمر بالتوجه إلى ساحل إنجلترا الجنوبى، وإحتلال قطاع يضم برايتون والمنطقة الواقعة غربى هذه المدينة، وجعل هذه المنطقة فى حالة دفاع لكى تستطيع مقاومة غزو كان يعتبر وشيك الوقوع، فاكتسحنا إذن الساحل الجنوبى متساقطين تساقط مجرى الثلج الزاحف من أعالى الجبال على سكان تلك المنطقة.

كان مقر فرقتى العام قرب ستايتج، فى منزل يقع شمال الروابى الرملية، وعلمت أن «ونستون تشرشل» رئيس الوزراء، يرغب فى زيارة فرقتى بعد ظهر يوم ٢ يوليو، وأنه سيصل فى سيارة ويكمل جولته فى برايتون بحيث يستطيع العودة إلى

لندن بالقطار فى المساء، وكنت متلهفا لرؤية هذا الرجل، ولقد ذهبت به إلى كلية الرماية التى يحتلها رماة «أولستر» الملكيين، وأشهدته هجوما مضادا على أرض الطيران الصغيرة الواقعة على الشاطىء والتى كان يفترض أن الألمان قد استولوا عليها، فسر أبلغ السرور، ثم تابعنا زيارتنا على طول الشاطىء لنصل إلى برايتون فى حوالى الساعة ١٩,٣٠، فاقترح تشرشل أن نتناول طعام العشاء معا فى فندق «رويال ألبيون»، وتحدثنا عن مشاكلى، خاصة عن جمود فرقتى، فقد كانت هذه الفرقة فى إنجلترا هى الفرقة الوحيدة الكاملة التجهيز والوحيدة القادرة على قتال العدو أينما كان، ومع ذلك فنحن نقوم هنا بدور جامد مكلفين بحفر الخنادق على الساحل الجنوبى، لقد كان يجب أن تحل محلنا قوات أخرى وأن نعطى سيارات وأن يحتفظ بنا كاحتياطى متحرك للقيام بدور الهجوم المضاد، فلماذا هذا الجمود؟ واعترف رئيس الوزراء أن اقتراحى لا يخلو من الرأى السديد.

وهكذا قرر واضعوا الخطط فى يوم من الأيام أن علّى أن أستعد لأتوجه بفرقتى إلى ما وراء البحار للاستيلاء على أرخبيل أسورس، ثم أبلغت أن الأمر لا يتعلق بأرخبيل أسورس، بل بجزر الرأس الأخضر، واخيراً بعد عمل شاق، طلب إلى أن أعد خطة للاستيلاء على كورك وكوينستون فى أيرلندا الجنوبية بحيث يمكن استخدام المرفأ فى كل منهما كقاعدة بحرية للحرب ضد الغواصات فى المحيط الأطلسى، ولم توضع أية خطة من هذه الخطط موضع التنفيذ.

وفى يوليو ١٩٤٠ عينت قائداً للجحفل الخامس، وإلى ذلك التاريخ يعود بدء تأثيرى الفعلى على تدريب الجيش، وفى أبريل ١٩٤١ تسلمت قيادة الجحفل الثانى عشر فى مقاطعة (كنت) حيث كان من المتوقع حصول غزو لإنجلترا، وفى ديسمبر ١٩٤١ عينت قائداً لجيش الجنوب الشرقى الذى كانت منطقته تشمل مقاطعات كنت وسارى وساسكس.

وفى مستهل أغسطس ١٩٤٢، كان يجب أن يجرى تمرين على نطاق واسع فى استكلندا، واقترح الجنرال باجيت- الذى كان آنئذ قائداً أعلى لقوات الداخل- أن أحضر هذا التمرين برفقته.

وكنت سعيداً بأن تتاح لى فرصة مشاهدة ما تستطيع قوات أخرى أن تفعله، فتوجهت إلى الشمال فى القطار الخاص بالقائد الأعلى، وعندئذ أخذت الأحداث تتعاقب بسرعة، ففى اليوم الثانى من أيام التمرين اتصلت بى وزارة الحربية طالبة إلى العودة فوراً إلى لندن، فقد كان علىَّ أن أخلف «الكسندر» على رأس الجيش الأول وأبدأ فى العمل تحت إمرة «إيزنهاور» فى خطط الإنزال فى شمال أفريقيا الذى سيجرى فى نوفمبر ١٩٤٢، وقد اتفق على تسميته بعملية المشعل.

وحوالى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى(٨ أغسطس) كنت أحلق ذقنى عندما اتصلت بى وزارة الحربية هاتفيا لتقول لى إن الأوامر التى أعطيت لى فى الليلة السابقة فى موضوع الجيش الأول وعملية المشعل قد ألغيت وأن علىّ أن أستعد للذهاب فورا إلى مصر لتسلم قيادة الجيش فى الصحراء، وكان «الكسندر» قد سبقنى إلى مصر ليصبح قائداً أعلى للشرق الأوسط، وسأعمل تحت إمرته.

ولقد غادرت إنجلترا بطريق الجو فى ليل العاشر من أغسطس، ووصلت إلى جبل طارق فى فجر اليوم التالى، وبقينا فى جبل طارق طوال النهار وأستأنفنا الرحلة مساء الحادى عشر من أغسطس إلى القاهرة.

وفى أثناء الرحلة فكرت فى المشاكل التى تواجهنى، وكونت فكرة فى خطوطها الكبرى، عن الطريقة التى يجب أن أحاول حلها بها.

* * * *

الفصل السادس
عقيدتى فى القيادة

غادرت بريطانيا لأمارس مهام قيادة عليا لقوات تخوض المعارك، ولقد ذكر هارى ترومان فى مذكراته أن دراسة التاريخ علمته أن القائد هو الرجل الذى يملك القدرة على جعل الناس يفعلون ما لا يريدون أن يفعلوا، وأن يحملهم على إيلاف ذلك.

وتعريفى الخاص للقيادة، هو أنها القدرة والعزم على جمع الرجال والنساء حول هدف مشترك، يضاف إليهما الخلق الذى يوحى بالثقة.

ولكن امتلاك هذه القدرة لا يكفى، فالقائد عليه أن يقول الحقيقة لأتباعه أو لمرؤوسيه، فإذا هو لم يفعل فسرعان ما سيظهر لهم ذلك وتتضاءل ثقتهم فيه، أما أنا فلم أقل دائما كل الحقيقة لجنودى أثناء الحرب، فلو أنى فعلت لتعرض سر العمليات للخطر، ولم يكن ذلك ضروريا، وإنما قلت لهم كل ما يجب أن يعرفوه لكى ينفذوا مهماتهم تنفيذا فعالا، على أن كل ما قلته لهم كان دائما هو الحقيقة، وكانوا يعرفون ذلك، فنتج عن هذا قيام الثقة المتبادلة بيننا.

وعلى القائد العسكرى الحق أن يسيطر على الأحداث، فإذا هو سمح لها بأن تسيطر عليه فقد ثقة رجاله، وفى هذه الحال يكف عن أن يكون قائدا حقا.

وعلى القائد، بعد أن يكون كل شىء قد قيل وعمل، أن يمارس تأثيرا فعالا، ومدى هذا التأثير يتوقف على شخصية الرجل، على مقدار الحماس الذى هو قادر على إبدائه، وعلى اللهب الذى يشتعل فى نفسه، والجاذبية التى تشع منه وتدخل قلوب جميع الذين هم تحت إمرته.

والذى كنت أود شخصيا أن أعرفه عن القائد هو الآتى:

إلى أين هو ذاهب؟

هل يمضى فى سيره حتى الغاية؟

هل يملك الموهبة والعلم والخبرة والشجاعة؟

هل يتخذ مقراراته متقبلا كل المسئولية ،مجازفا بالأخطار إذا اقتضى الأمر؟

هل هو قادر على تخويل سلطاته لسواه، وعلى اعتماد اللامركزية فى المنظمة التى يكون هو قد أنشأها أولا وتضم مراكز متعددة لاتخاذ قرارات معينة على نحو يجعل من الممكن تنفيذ الخطة بيسر وسرعة؟

إن مسألة التقرير مسألة حيوية، والاتجاه الحديث هو إلى تجنب اتخاذ القرارات، وتأجيل اتخاذها أملا بتغير الأحوال، والنهج الوحيد الذى يتبعه القائد العسكرى هو التقرير أثناء العمل، والدم البارد أثناء الأزمة، وليس هذا كذلك نهجا سيئاً للقائد السياسى.

وعلى القائد أن يعرف ما يريد، إن عليه أن يرى هدفه بوضوح، ويجتهد من ثم فى بلوغه، وعليه أن يتصرف بحيث يعرف كل واحد ماذا يريد، ويعرف الأسس الجوهرية للخطة، إن عليه فى الواقع أن يعطى توجيهات واضحة وأوامر جازمة، ومن الضرورى أن يخلق ما أدعوه مناخا يعيش فيه مرؤوسوه ويعملون.

إن المعركة الحديثة يمكن أن تخرج عن الخط بسرعة، ولضمان النجاح يتوجب على القائد الأعلى أن يؤمن لنفسه منذ البداية قبضة حازمة على آلته العسكرية، فعلى هذا النحو فقط تحافظ قواته على التوازن والتماسك وتنمى طاقتها على القتال تنمية كاملة، وهذه القبضة لا يجوز أن تعنى التدخل فى مبادرات المرؤوسين أو مضايقتهم، فالمعركة إنما تربح فى النهاية بفضل مبادرتهم هم، ولكن الحزم ضرورى

لتجنب نسف الخطة الأساسية بأفكار شخصية لأحد المرؤوسين فى وقت من أوقات المعركة، فالعمليات يجب أن تجرى وفقا لخطة عمل مقررة مسبقا، فإذا لم يكن هذا هو الوضع فسيفسر الأمر عن تسوية بين الأفكار الشخصية حول الطريقة التى يجب أن تجرى بها العمليات، أو هى تجرى بنتيجة المواقف الناشئة عن عمل المرؤوسين وبطريقة لا تكون مطابقة للخطة المبدئية، وهناك افتراض ثالث هو انتقال المبادرة إلى العدو.

والخطة المبدئية يجب أن لا تكون أبدا جامدة إلى حد لا يستطيع معه القائد الأعلى تعديلها أو تكييفها وفق وضع تكتيكى جديد، ولكن يجب أن لا يسمح لأى أحد سواه بأن يعد لها كما يشاء، وأن لا يسمح بذلك خصوصا للعدو.

ومن المهم تحديد المكان الذى يمكن أن يعقد فيه مؤتمر عندما تكون العمليات الفعلية جارية، وعلى القائد أن يعرف ماذا يريد أن يفعل وماذا يمكن فعله، وذلك بالتنبؤ وبالبحث مع أركان حربه، وبالبقاء على اتصال وثيق مع قواد وحدته، فإذا وجد من الضرورى عقد مؤتمر معهم فيجب دائماً أن يتجنب استدعائهم لإعطائهم أوامره، إذ عليه هو أن يذهب إليهم، فمثل هذا المؤتمر المعقود بغية إلتقاط الأفكار لا يدعو إليه إلا قائد ضعيف.

ومن الخطأ الاعتقاد أنه يكفى إعطاء الأمر، فإن عليك أن تتأكد من أنه قد نفذ بالروح التى أصدرته أنت بها.

وعندما ينهى القائد الأعلى رسم الخطوط الكبرى لخطته وطريقة تنفيذ هذه الخطة، عليه أن يكتب بنفسه الأوامر الأولى والتوجيهات الخاصة بالعمليات، ولا يسمح لأركان حربه بأن يقوموا مقامه فى ذلك، وإنما ينصرف أركان حربه ومرؤوسوه إلى عملهم فى التفاصيل مستندين إلى أوامر القائد الأعلى الخطية، وهكذا تقل الأخطاء إلى أدنى حد.

وليس هناك قائد مهما بلغت عظمته يستطيع الحفاظ على مركزه إذا لم يحرز إنتصارات، إن القتال يقرر كل شيء، فكيف تحوله إلى إنتصار؟

والمادة الأولية التى يجب أن يستخدمها القائد هى الإنسان، وكثير من القادة لم يدركوا هذه المسألة الأساسية إدراكا كاملا، ولم يفهموا كل تشعباتها، وكان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى ما منوا به من فشل.

وفى الحرب يجب أن يكون الجيش صلبا كالفولاذ، أما عنصره الأساسى فهو الرجال، ولاستخدامه استخداما ملائما لابد من فهم الطبيعة البشرية، فإذا كان احتكاكك بالعنصر البشرى باردا وغير شخصى فلن يكون بإمكانك أن تحرز شيئاً، أما إذا كسبت ثقة رجالك فأصبحوا يشعرون أن مصالحهم فى أمان بين يديك فعندئذ تكون قد امتلكت قوة لا تقدر، حتى لتصبح أعظم المطالب ممكنة التحقيق.

ومعنويات الجندى هى أهم عامل فى الحرب، وأفضل سبيل للحصول على معنويات عالية هى النجاح فى القتال، والقائد الجيد هو الذى يكسب معاركه بأقل ما يمكن من الخسائر، ولكن المعنويات تبقى مرتفعة حتى بعد تكبد خسائر كبيرة شرط أن تربح المعركة، وأن يعرف الجنود أن الأرواح لم يفرط بها، وأن كل ألوان العناية تقدم إلى الجرحى، وإن القتلى قد جمعت جثثهم ودفنت بكل احترام.

ومن المهم أن يدرك القائد أن جميع الرجال مختلفون ، بعض الجنود يفضلون القتال نهارا، وبعضهم يؤثرون القتال ليلا، وبعضهم أفضل فى معركة متحركة سريعة، وبعضهم ذوو مزاج أنسب للقتال فى ميدان محدود، ولذلك تختلف جميع الفرق، والأمر نفسه ينطبق على القادة، فجميعهم مختلفون، بعضهم مهيأ للقتال المتحرك، وبعضهم مهيأ للقتال الثابت، والقادة هم أيضا يجب أن يتم اختيارهم حسب المهمة التى يكلفون بتأديتها.

والنقطة التالية على الصعيد البشرى أيضاً هى اختيار القادة، وكنت أقوم شخصياً بتسمية الضباط الذين سيتولون قيادة من القيادات، بما فيهم قواد الفوج أو الفليق،

والمعيار الوحيد الذى اعتمدته، كان الجدارة وموهبة القيادة والقدرة على الاضطلاع بالواجب وحرصت على أن أعرف جميع القواد وعلى أن يكون مستواهم عاليا.

إن من أهم مزايا القائد العام قدرته - دون ريب - على إشعاع الثقة التى له فى الخطة وفى العمليات حتى عندما لا يكون هو فى ذات نفسه متأكداً كل التأكد من النتيجة فعلى القائد الأعلى أو قائد الجيش إذن أن يكون خبيراً بالرجال وأن يكون قادراً على وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب. ولكى تطبق هذه الفلسفة إزاء الذين يعملون تحت إمرتك، عليك أن تراقب معنوياتك أنت مراقبة دقيقة، فكل معركة هى فى الواقع صراع بين إرادتين: إرادتك، وإرادة القائد الخصم، فإذا أخذ الهلع يستولى على قلبك عندما تكون النتيجة غير أكيدة فمن المحتمل أن يربح المعركة خصمك.

وإنها لضرورة مطلقة أن يتجنب القائد الغرق فى التفاصيل، وفى إبان المعركة على القائد الأعلى أن يفكر باستمرار فى الطريقة التى يستطيع أن يهزم بها العدو فإذا غرق فى التفاصيل تعذر عليه ذلك، إذ يغيب عن ناظره ما هو جوهرى، ويرى نفسه مسوقاً إلى اتخاذ قرارات لن يكون لها إلا تأثير ضئيل على المعركة، إن التفاصيل هى من شأن أركان الحرب، وما من قائد أعلى يهتم يوميا بالتفاصيل ولا يجد الوقت للتفكير فى جو من الهدوء، يستطيع أن يضع خطة سليمة لمعركة من المعارك على مستوى عال، أو إدارة العمليات بفعالية على نطاق واسع.

أما لجهة العمليات فعلى القائد الأعلى أن يضع خطة أساسية للحملة التى يواجهها، وعليه دائما أن يحتاط لكل معركة، وعليه أن يحاول قراءة فكر خصمه، ويشعر سلفا بردود فعل العدو على حركاته هو، ويتخذ التدابير السريعة لتفادى حدوث تدخل من جانب العدو فى خططه، ويجب أن يكون فكره واضحا، وأن يكون قادراً على تمييز ما هو أساسى من بين مجموعة العوامل التى تغشى كل مشكلة.

وخطة العمليات يجب أن يضعها دائما القائد الأعلى، ولا يجوز أن يفرضها عليه أركان الحرب أو تفرضها عليه الظروف أو يفرضها العدو، وعليه أن يوفق بين ما هو مرغوب فيه استراتيجيا وبين ما هو ممكن تكتيكيا بالقوى المتوفرة لديه، فإذا هو لم يفعل ذلك فالأمل ضعيف فى أن يربح، وعليه أن يميز بين ما هو ممكن مع شيء من الحظ وما هو مستحيل، فهاهنا تكمن دائما المشكلة، وفى المعركة يجب أن تكون قيادة العمليات مباشرة وشخصية عن طريق قيام القائد الأعلى بزيارات لمختلف المقرات العامة حيث يعطى الأوامر شفهيا.

والقيادة يجب أن تكون مباشرة وشخصية، وفى سبيل هذه الغاية ليس أثمن من جهاز مؤلف من ضباط اتصال أثناء المعركة.

ومن المهم إدراك أن المعارك إنما تربح قبل كل شيء فى قلوب الرجال، فإذا فهم القائد العسكرى ذلك وتصرف وفقا له فسيكسب دون عناء ثقة رجاله.

وخلاصة القول أننى لا أعتقد أن بإمكان قائد أعلى اليوم أن يلهم جيوشا كبيرة أو وحدات بسيطة أو حتى الجنود، وأن يجعلهم يحققون انتصارات عظمى إذا لم يكن يتحلى بالإيمان، إن عليه أن ينفخ إيمانه فى قواته ويقودها بهذه الروح.

وعليه أن يتأكد باستمرار من أن الهدف الذى تسعى إليه هذه القوات، وقد عرض لها بوضوح، هو بالفعل الهدف الصالح، فإذا هو لم يفعل ذلك لا يمكنه الأمل بنجاح مستديم.

إن هذا ليس إلا شرحا موجزاً لموضوع كبير للغاية.

* * * *

الفصل السابع
الجيش الثامن

هبطت فى مطار قريب من القاهرة فى صباح يوم ١٢ أغسطس، فاستقبلت هناك، ثم توجهت إلى فندق ميناهاوس قرب الهرم الأكبر، حيث كان ينزل الجنرال «أوكنلك»، وبعد أن استحممت وتناولت الفطور، توجهت إلى المقر العام لقيادة الشرق الأوسط فى القاهرة، وقد وصلت إليه بعد الساعة العاشرة بقليل وما لبثت أن أدخلت إلى مكتب «أوكنلك»، وأدخلنى «أوكنلك» إلى غرفة الخرائط التابعة لمكتبه وأقفل الباب، وكنا وحيدين، فسألنى هل أنا أعلم بأنه راحل، فأجبته بالإيجاب، ثم عرض لى خطته فى العمليات، تستند على غاية واحدة هى أن الجيش الثامن يجب أن نحافظ عليه بأى ثمن، فلا يجوز أن يعرض للتدمير فى المعركة، فإذا هاجم «رومل» بقوة - كما كان يتوقع أن يحدث قريبا- فعلى الجيش الثامن أن يتراجع إلى الدلتا، وإذا لم يكن ممكنا الاحتفاظ بالدلتا والقاهرة فعلى الجيش الثامن أن يتراجع باتجاه الجنوب نحو النيل، أو يتراجع - كامكانية أخرى- إلى فلسطين، وقد أعدت الخطط الأحتياطية لنقل المقر العام لقيادة الجيش الثامن إلى النيل، وقد استمعت بدهشة إلى هذه الخطط، وطرحت على الجنرال «أوكنلك» سؤالا أو سؤالين، ولكن سرعان ما شعرت أنه إنما يجد فى كل سؤال تعديلا مباشراً للخطة التى أختارها، ولذلك عدت فلزمت الصمت، فقال لى عندئذ: إن علىّ أن أذهب فى اليوم التالى إلى الصحراء، وأقضى يومين فى المقر العام لقيادة الجيش الثامن كى آخذ فكرة عن الموقف، وأضاف إنه ما يزال قائداً للجيش الثامن، وقد كلف «رامسدن» بأن ينوب عنه، وأن على ألا أتسلم القيادة قبل ١٥ أغسطس، وهو التاريخ الذى سيسلم فيه هو قيادته إلى «الكسندر»، وأضاف: أنه فى حال قيام العدو

بهجـوم أو حدوث أزمة مـا فسيـتوجه فـوراً إلى المقر العـام لقيادة الجـيش الثامن، ويستعيـد القيادة من أيدى «رامسدن»، وقد ظهر لى كل ذلك غريبـا، فما لبثت أن انسحبت بأسرع ما استطعت وبكل تهذيب.

وذهبت أبحث عن الكسندر، فوجدته فى المقر العام هادئاً واثقا، وعرضت عليه خطتى على الفور، وكانت تتلخص فى أن ننشئ أولا قوة احتياطية للجيش الثامن، مدرعة إلى حد بعيد، شبيهة بقوة «رومل» المدرعة، فأعلن موافقته على ذلك ولكنه لم يكن قد أصبح بعد هو القائد الأعـلى، وكان واضحا أنه لا فائدة من بحث هذا الموضوع مع «أوكنلك» أو رئيس أركان حـربه اللذين سيترك كلاهما منصـبه قريبا، فرحت لذلك أرى نائب رئيس الأركان الماجـور جنرال «السرجوت هاردنج»، وكان يجهل ماذا نفعل، (الكسندر وأنا)، فى القـاهرة فأخبرته بذلك، ثم عرضت له كل خطتى وسـألته إذا كان يسـتطيع تشكيل القـوة التى أرغب فى إنشائهـا من الأجزاء والقطع المبعثرة فى مصر، وكـان ينتظر وصول ٣٠٠ دبابة «تشيرمن» من أمريكا إلى السويس فى ٣ سبتمبر، وهذه الدبابات يمكن أن تجهز الفرق المدرعة، فأجابنى بأنه سيـهتم بالأمر، واتفقنا على أن أعـود لآخذ جوابه فى السـاعة السادسة من مـساء اليوم نفسه ، مضيفا أننى سأطلب من «السكندر» أن يرافقنى.

وفى الساعة الـسادسة مساء عـدنا، «الكسندر» وأنا إلى مقر القيـادة العليا لرؤية «هاردنج»، فقال لنا: أنه يـستطيع أن يشكل الجحفل الذى نريده، وسـيكون الجحفل العاشر ويتألف من:

* الفرقة المدرعة الأولى.
* الفرقة المدرعة الثامنة.
* الفرقة المدرعة العاشرة.

وكل واحدة من هذه الفرق تشتمل على لواء مصفح واحد، ولواء مشاة واحد، وقوات تابعة للفرق.

* فرقة نيوزيلندية مؤلفة من لوائى مشاة ولواء مصفح واحد.

ووجدنا هذا رائعا بالفعل، فطلبنا من «هاردنج» أن يمضى قدما فى تحقيقه.

وفى الساعة الخامسة من صباح ١٣ أغسطس غادرت بالسيارة سفارة بريطانيا العظمى متوجها إلى الصحراء.

واستقبلنى الجنرال «رامسدن» المتسلم عمليا قيادة الجيش الثامن، وقد عرض لى الموقف وطرحت عليه أسئلة عن خطط تراجع الجيش فى حال قيام «روميل» بهجوم، وكانت بعض أوامر التراجع قد أعطيت فعلا ولكنها كانت غير واضحه، وبذلت قصارى جهدى لأحمله على أن يقول لى بالضبط ماذا تم فعله؟، فقد كان يسود كل ذلك جو من الغموض.

ولم يكن المقر العام للجيش على صلات وثيقة مع المقر العام لسلاح الجو الصحراوى، وظهر لى بوضوح أن الوضع كان غير منطقى على الإطلاق، بل هو فى الواقع وضع خطر، فقررت العمل على الفور، وكنت تلقيت الأمر بألا اتسلم قيادة الجيش الثامن قبل ١٥ أغسطس، وكنا لا نزال فى ١٣ منه، وكنت أعلم أنه لا فائدة من استشارة مقر القيادة العليا، وإن علىَّ أن آخذ المسئولية كاملة، فطلبت من الجنرال «رامسدن» أن يعود فورا إلى جحفله، فظهرت عليه الدهشة، إذ كان قد عهد إليه بالقيادة العملية للجيش، ولكنه نفذ طلبى، وبعد الغداء، أرسلت ببرقية إلى مقر القيادة العليا أقول فيها: إننى تسلمت قيادة الجيش الثامن اليوم الثالث عشر من أغسطس، ابتداء من الساعة ١٤، وكان فى ذلك تجاوز من جانبى وعدم طاعة للأوامر، ولكنه لم يكن هناك مجال للعودة إلى الوراء، وألغيت على الفور كل الأوامر السابقة المعطاة فيما يتعلق بالتراجع، وأوضحت أنه لن يكون هناك تراجع فى

حال قيام العدو بهجوم، وإنما سنقاتل على الأرض التى تحت أيدينا ونفضل الموت فى أماكننا.

وفى تمام الساعة ١٨,٣٠ اجتمعت مع أركان الحرب، وأوضحت لهم أن الأوامر التى تلقيتها من «الكسندر» بسيطة جدا، إنها تتلخص فى تدمير «روميل» وجيشه، وأعلنت تعيين «دى غوينغواند» فى منصب رئيس أركان حرب الجيش الثامن، وقلت إن كل أمر صادر عنه يجب أن يعتبر صادرا عنى ويجب أن ينفذ على الفور.

وسرعان ما ثبت لى بعد أن تحدثت مع «دى غوينغواند» أن جميع الدلائل تحمل على توقع قيام «روميل» بهجوم قريب، فهو سيحاول محاولة أخيرة الاستيلاء على القاهرة والأسكندرية، وتأمين الدلتا لنفسه، وفى هذه الحال قد يوجه جهده الرئيسى إلى الجناح الجنوبى، منعطفا بعد ذلك إلى اليمين ليلتف وراء الجيش الثامن ليبلغ القاهرة فعليه قبل كل شىء تدمير هذا الجيش، وهكذا تبدت لى بكل وضوح ملامح خطتى فالجناح الشمالى يجب أن يعزز على جبهة الجحفل الثلاثين، وأن يحصن تحصينا كبيرا بواسطة حقول الألغام والأسلاك الشائكة بحيث يمكن حمايته بأقل عدد ممكن من القوات، ولم أكن بحاجة بعد لزيارة هذه الجبهة فى هذا الحين، أما الجناح الجنوبى فيجب أن يدرس بعناية، وإليه يجب أن أتوجه دون تأخير، وكان يلزمنى كذلك قائد جديد للجحفل الثالث عشر على هذا الجناح، فلم يكن أحد قد عُين بعد خلفا لغوت.

وأمضيت النهار فى تفتيش الأرض على الجناح الجنوبى وفى ربط الجحفلين، وتبينت على الفور أهمية نقطتين مشرفتين هما: مرتفعات الرويسات ومرتفعات علم حلفا، وكانت كلتاهما هامة، ولكن مفتاح كل موقع (العلمين) هو علم حلفا، وهى مرتفعات تقع على بعد عدة أميال وراء خط العلمين وجنوب شرقى الرويسات، ولم يكن فيها دفاع، إذ لم تكن هناك قوات متوفرة لهذا المطلب.

وفكرت طويلاً فيما سمعته عن معارك المدرعات فى الصحراء، وبدا لى أن ما يحبه رومل هو أن يدعنا نهاجمه بدباباتنا، فيستعمل عندئذ دباباته خلف ستار من المدفعية المضادة للدبابات، فيخضع دباباتنا ويبقى أخيرا هو سيد الساحة، وحرصت على أن يحدث الأمر على خلاف ذلك إذا ما قرر «رومل» مهاجمتنا قبل أن نصبح مستعدين لشن هجوم واسع النطاق ضده، فلن أسمح لدباباتنا باللحاق به، وإنما سنبقى ثابتين فى موقع العلمين، وسنحافظ على مرتفعات الرويسات وعلم حلفا، وندع «رومل» يستميت ضدهما، وسنخوض معركة ثابتة فلا تتحرك قواتى أبدا، وعندئذ ستتقدم دباباتنا نصف المدفونة فى التخم الغربى لعلم حلفا.

إن كل الخطوط العامة لخططى الفورية من أجل تعزيز موقع العلمين قد أصبحت واضحة فى ذهنى، فلقد كنت مصمما على أن أجعل هذا الموقع على جانب كبير من القوة كى نستطيع أن نبدأ استعداداتنا لشن هجومنا الكبير دون أن ننشغل بأى هجوم يقرره «رومل»، وكانت كل المعلومات تحمل على الاعتقاد بأنه سيشن الهجوم فى أواخر الشهر إذ يكون القمر بدرا، وكنت أريد أن أبدأ قبل ذلك استعداداتى لمعركة العلمين والمضى فى الاستعدادات مهما فعل «رومل».

وبحثت الموضوع مع «دى غوينغواند»، وكررنا مطالبة مقر القيادة العليا بأن يرسل فورا الفرقة الرابعة والأربعين إلى الجيش الثامن وبأن تتمركز بطريقة تتمكن معها من الدفاع عن مرتفعات علم حلفا، فلن يبقى لدى أى قلق متى حافظت على هذه المرتفعات فرقة كاملة محصنة خير تحصين وتدعمها دبابات ثابته دعما ملائما.

وطلبت أن ترسل إلىَّ بعد ذلك فرقة أخرى هى الفرقة الحادية والخمسين ، وقد بدأت هذه الفرقة تصل إلى السويس، وكان على أن أدع للجحفل الثالث عشر أمر الاهتمام بتفاصيل الخطة التكتيكية على الجناح الجنوبى، ولكن فى ذلك الحين لم يكن لهذا الجحفل قائد، فقررت أن أطلب إلى «الكسندر» أن يستقدم على الفور من إنجلترا وبالطائرة الجنرال «هورروكس» ويسلمه قيادة الجحفل الثالث عشر.

وقد قام رئيس الوزراء بزيارة الجيش الثامن فى ١٩ أغسطس لدى عودته من موسكو، فأريته الجبهة وشرحت له خططى لإحباط هجوم «رومل» المنتظر، وأفكارى فيما يتعلق بهجومنا نحن، وقضى الليل معى فى مقرنا الجديد على الشاطىء قرب برج العرب، واستحم فى المتوسط قبل تناول العشاء.

وعندما أصبح فى اليوم التالى على وشك الرحيل، رجوته أن يسطر لى كلمة فى سجلى الخاص، فخط فيه الأسطر التالية ذات الطابع الشخصى:

«عسى أن تحمل ذكرى بلنهايم التى تصادف مع البدء بمباشرة القيادة الجديدة إلى قائد الجيش الثامن وقواته، المجد والحظ اللذين يستحقونهما بكل تأكيد».

٢٠ أغسطس ١٩٤٢ ونستون . س . تشرشل

* * * *

الفصل الثامن
معركة علم حلفا
٣١ أغسطس - ٦ سبتمبر ١٩٤٢

لم أكن استطيع أن أباشر الهجوم، بل كان يجب أن يتيح لى «رومل» فرصة ذلك، لكن كان لابد للحصول على كل الفائدة من أن أتنبأ على وجه الضبط بخطة هجومه. وأحدد مسبقا كيف أتمكن من دحره، ولم يكن هذا بالمطلب غير العسير.

وكان جهاز الاستخبارات لدى مقتنعا بأن اختراق مواقعنا سيحدث فى الجناح الجنوبى، يتبعه إنعطاف نحو اليسار على أن تتجه مدرعات رومل نحو مرتفعات علم حلفا والرويسات، وكان هذا هو أيضا رأيى، وقد استندت خططى إلى هذه الرؤية. وقررت أن تحتل الفرقة الرابعة والأربعون بقوة مرتفع علم حلفا، وأن أضع دباباتى بالضبط جنوبى طرفه الغربى، وإذا ثبت لى إن هجوم العدو الرئيسى سيتجه نحو المرتفع فقد وضعت مشروعا لتحرك مدرعات المنطقة الواقعة بين غربى المرتقع والمواقع النيوزيلندية من خط العلمين الرئيسى، وبلغ يقينى بأننى سأضطر إلى حمل دباباتى على القيام بهذه الحركة، حداً جعلنى آمر بإجراء تجربة عليه، وعندما جرت هذه التجربة بالفعل صبيحة اليوم الأول من سبتمبر كان لدى نحو ٤٠٠ دبابة نصف مدفونة فى التراب ومنتشرة وراء ستار من المدافع المضادة للدبابات من عيار ٦ ليبرا.

وأعطيت الأوامر الصارمة بأن لا تندفع الدبابات ضد قوات «رومل»، بل عليها أن لا تغادر مكانها، وأن يتحطم العدو ضدها ويتحمل خسائر فادحة.

وكان واضحا أن «رومل» لن يتجاهل بسهولة وجود قواتى فيتجه نحو القاهرة مندفعا فى خط مستقيم نحو الشرق، إذ لو فعل ذلك لانقضت ٤٠٠ دبابة على مؤخراته وقضت على جيشه.

إذن فقد قررت أن يبقى جناحى الجنوبى الأقصى متحركا، وأن تتولى الفرقة المدرعة السابعة جبهة واسعة وتتراجع إذا حصل الهجوم ، فإذا قام جيش رومل بانعطاف نحو اليسار و(علم حلفا)، فعلى الفرقة المدرعة السابعة أن تضايقه من الشرق ومن الجنوب.

وخضنا المعركة حسب الخطة الموضوعة، فعندما اصطدمت قوات «رومل» بمواقعنا القوية لم تتمكن من التحرك، وفتحنا عليها النار من جميع الجهات وقذفها سلاح الطيران الصحراوى بالقنابل، وكانت النتائج مشهودة، فبعد بضعة أيام اضطر العدو أمام خسائره الجسيمة فى الدبابات والسيارات غير المصفحة إلى الانسحاب.

ولقد كان من أهم العوامل التى ساعدت على إجبار العدو على الانسحاب نشاط سلاح الطيران الصحراوى بإمرة مارشال الجو «كاننجهام»، وقد عمل الجيش وسلاح الطيران وفق خطة واحدة مترابطين أوثق الترابط.

وكان هناك عامل ذو أهمية كبرى على الصعيد الجوى، هو القرار الذى اتخذه مارشال الجو «تيدر» بإرسال قاذفاته من طراز «ولنجتون» تقصف (طبرق) وراء هجوم «رومل» بحيث تبخر أمل القائد الألمانى بالتموين السريع، وكان هذا هو الحافز الذى جعل «رومل» يقرر التخلى عن الهجوم، فلقد حاقت به الهزيمة، ونقص البترول كان يعنى بالنسبة إليه استحالة النهوض، فقد كان «تيدر» يحول بينه وبين ذلك.

ولقد حدث هجوم «رومل» فى ليل ٣١ أغسطس، وعندما علمت أن قوات رومل آخذة الوجهة المرتقبة، أصدرت أمرى بالقيام باندفاعة جنوبى قطاع الفرقة النيوزيلندية لإغلاق الثغرة التى دخل منها العدو إلى مواقعنا، وكان رد فعل العدو فوريا وعنيفا، إذ تراجع بسرعة نحو منطقة حقول ألغامنا التى منها جاء، فتركناه هناك وأوقفت إندفاعاتنا وكان يناسبنى على كل حال أن تتجمع قوى جيشه على الجناح الجنوبى، إذ كنت أنوى أن أوجه ضربتى الرئيسية فيما بعد على القسم الشمالى من الجبهة.

وهكذا انتهت معركة علم حلفا على النحو الذى أردته، وكان عمل الجحفل الثالث عشر على الجناح الجنوبى مطابقا لما كنت أرغب فيه، فقد عمل هورروكس وفق الخطة الأساسية كليا.

وأخيرا فإن المعركة أعطت ما كنت أتوقع منها، فالجيش الثامن، بالإضافة إلى أنه استعاد معنوياته، قد أثبت كفاءاته تحت إمرة قائده الجديد، فلقد أحرزنا النصر قوادا وأركان حرب وقوات بالتعاون مع سلاح الطيران.

وأستأنفنا استعداداتنا لمعركة العلمين، ولكن بعض المسائل كانت تتطلب قرارا فوريا قبل الانتقال إلى التنفيذ.

وقررت أنه، لتشكيل الجيش الثامن فى سبيل الغاية الموكولة إليه، يجب أن أركز اهتمامى على ثلاث نقاط أساسية هى: القيادة، والتجهيز، والتدريب، وكان فى كل من هذه النقاط نقص.

وكنت بحاجة إلى ثلاثة قواد جحافل من الطراز الأول، وكان «هورروكس» واحداً منهم للجحفل الثالث عشر، وقد أثبت جدارته فى معركة علم حلفا، وقدرت أنه من الضرورى إبدال لامسدن على رأس الجحفل الثلاثين، فطلبت الماجور جنرال السر «أوليفرليز»، الذى كان يقود فى إنجلترا فرقة الحرس المدرعة ، فجاء بالطائرة دون تأخير، وبعد مشاورات طويلة مع «الكسندر»، وافقت على تسليم قيادة الجحفل العاشر إلى «لامسدن»، وكان قائدا للفرقة المدرعة الأولى فى الصحراء، وقررت كذلك أنه من الضرورى تعيين قائد جديد للفرقة المدرعة السابعة، فطلبت «هاردنج» من مقر القيادة العليا فى القاهرة.

وإذا نجحنا فى أن نفتح فى خطوط «رومل» الدفاعية ثغرة نتدفق من خلالها، فسيكون للمدفعية دور هام بشكل خاص، وخلصت إلى أنه يجب أن يكون لى ضابط مدفعية جديد فى مقرى العام، وطلبت أن يستدعى من إنجلترا البريغادير «كيركمان»، الذى كنت أعتبره أفضل ضابط مدفعية فى الجيش البريطانى.

وكنت أحتاج أيضاً إلى رئيس للكهنة الواعظين من الدرجة الأولى، وبعد تحريات واسعة وجدت الرجل الذى أبحث عنه فى شخص «هيوز» الذى كان رئيس واعظين فى إحدى الفرق، وقد ظل «هيوز» معى حتى نهاية الحرب، ثم أصبح الكاهن العام للجيش، وكان على رأس جهازى الإدارى البريغادير «روبرتسون»، وكان ضابطا من أقدر الضبـاط، ولم تراودنى يوما أية مخـاوف فيما يتـعلق بالمصلحة التى يديرها، وكان تحت إمرته مسـاعد فعال جدا فى شخص الليوتنان كـولونيل «مايلزجراهام»، وعندمـا غـادرنا «روبرتسـون» على إثر ترقـيتـه حل مـحله «جـراهام» على رأس المصلحة، وبقى معى حتى نهاية الحرب.

ويجب أن أذكر أيضاً «بلتشم»، وكان مكلفـا بشئون أركان الحرب والتنظيم عندما وصلت إلى الصحراء، وكان ضابطا لامعـا، وبعد أن تركنى فترة من الزمن ليصبح أولا ماجور (لواء) ثم قائدا لفيلق مدرع، عاد إلى مقر قيادتى العليا وبقى معى حتى نهاية الحرب كرئيس لأركان حرب العمليات.

وأخيـرا ألقيت نظرة على تنظيم مصلحـة الاستخبـارات فى مقر قيـادتى العليا، فاكتشفت فيه ماجـورا من حرس التنين الملكى، يدعى «وليامز»، ولـم يكن «وليامز» على رأس مصلحة الاستخبـارات عندى، ولكنى عزمت على أن يصبح رئيسا لهذه المصلحة قريبا، وقد أمضى بقية الحرب كلها معى.

وبعد أن حللت مشكلة القيادة، وأجريت التغييرات الضرورية، ارتاحت نفسى إذ وجدت بين يدى هيـئة تستطيع دون صـعوبة القيـام بالمهمة التى تـنتظرها، وقد بقى كثيـرون من أعضاء هذه الهيـئة فى أركان حربى حتى نـهاية الحرب، وأبرزهـم «دى غوينغواند»، و«جراهام»، و«هيوز»، و«بلتشم»، و«وليامز».

لقد لحـق بى الضبـاط الخمسـة المذكورون آنفـا إلى مجـموعـة الجيـوش الحادية والعشرين عندما تركت الجيش الثامن، فمـا كان يمكن أن يتاح الوقت لتشكيل هيئة جديدة قبل النزول فى نورماندى.

* * * *

الفصل التاسع
معركة العلمين
٢٣ أكتوبر - ٤ نوفمبر ١٩٤٢

لقد وقعت معركة علم حلفا إبان إستعداداتنا لشن هجومنا، فأخرتنا بعض الشيء، وكانت المشكلة الأساسية التى واجهتنا بعد معركة (علم حلفا) صعبة الحل، فقد وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع قوات «روميل» بين البحر ومنخفض القطارة على مسافة ٤٥ ميلا، وحصن العدو خطوطه الدفاعية إلى درجة لم يعرف لها مثيل حتى ذلك التاريخ فى الصحراء، وشمل هذا التحصين حقول ألغام عميقة وواسعة حتى لم يبق هناك جناح مكشوف.

وكانت المشكلة ما يلى:

١ - وجوب فتح ثغرة فى مواقع العدو.

٢ - استخدام هذه الثغرة لعبور الجحفل العاشر المدرع والمؤلف من قوات متحركة إلى أراضى العدو.

٣ - القيام بعد ذلك بعمليات من شأنها تدمير قوات «روميل».

وكانت هذه عملية ضخمة، فكيف السبيل إلى تحقيق أثر المفاجأة؟

لقد كاد يكون مستحيلا أن نخفى عن العدو أننا ننوى شن هجوم، فقررت وضع خطة للمفاجأة التكتيكية بأن نخفى عن العدو الأماكن الحقيقية المضبوطة التى سنوجه إليها الضربة وتاريخ توجيهها، وكان هذا يقتضى خطة هامة تستهدف خداع العدو. وكان يلزمنا وقت لكى نستطيع أن ننتصر، وكنا ننتظر كمية من العتاد، وكان على الجيش أن يتدرب على استعمالها ويتمرن على المهمات التى يجب أن يؤديها،

ولدى وصولى وعدت الجيش الثامن بألا نشن هجومنا قبل استكمال الاستعداد، ولم يكن ذلك ممكنا قبل أكتوير الذى يصادف البدر ٢٤ منه، وقررت أن أشن الهجوم فى ليل ٢٣ أكتوبر، وأبلغت بذلك «الكسندر»، وكان جواب «هوايتهول» سريعا، تلقى «الكسندر» رأيا من رئيس الوزراء يقول بوجوب حدوث الهجوم فى سبتمبر بحيث يتوافق مع بعض الهجمات الروسية، ومع عمليات الإنزال الحليفة التى كان يجب أن تحدث فى مطلع نوفمبر فى الطرف الغربى من ساحل شمال أفريقيا «عملية المشعل»، وجاء «الكسندر» لنتفق على الجواب الذى يجب أن يرسل، فقلت له: أن استعداداتنا لا يمكن أن تنتهى فى الوقت المناسب لشن هجوم فى سبتمبر، وأن القيام بهجوم فى هذا التاريخ سيصاب بالفشل، وقد أيدنى «الكسندر» فى ذلك، وأرسل الجواب بالمعنى الذى تمنيت أن يصاغ فيه، وكانت أسهمى مرتفعة بعد معركة علم حلفا، فلم نعد نسمع بعد ذلك أبدا من يتحدث عن هجوم فى أيلول.

ولقد علمت بأنه قيل إن خطط معركة العلمين وخطط سير الحرب فى إفريقيا بعد هذه المعركة قد وضعها «الكسندر» فى مقر القيادة العليا للشرق الأوسط، وأننى لم أفعل شيئا سوى تنفيذ هذه الخطط، وهذا غير صحيح، فجميع خطط العلمين والخطط التى وضعت فيما بعد، إنما وضعت فى مقر قيادة الجيش الثامن، ولقد كنت دائما حريصا أن يكون «الكسندر» على اطلاع كامل، ولكن لم يناقش خططى فى تفاصيلها، فضلا عن أنه لم يقترح خططا شخصية، فلقد كانت له بى وبأركان حربى أيضا ثقة مطلقة، فما يكاد يعرف ماذا نريد حتى يساعدنا مساعدة رائعة ولم يرفض لنا يوما من الأيام شيئا، ولولا هذا الدعم الكريم الذى لم ينقطع فى أى وقت لما تمكنا بالتأكيد من تأدية مهمتنا، لقد كان «الكسندر» القائد الأعلى المثالى، وقد وضع فى شخصى ثقته الكاملة.

وفى الساعة ٢١,٤٠ من مساء يوم ٢٣ أكتوبر، بدأ نحو ألف مدفع إطلاق النيران فى رماية سديدة، وانتقل الجيش الثامن، الذى كان لديه نحو ١٢٠٠ دبابة،

إلى الهجوم شن الهجوم فى ٢٣ أكتوبر طبـقا للخطة الموضوعة، وكانت المنطقة كلها حقل ألغام ضـخم، والممران فى الشمال لم تكـمل الفرق المدرعة التابعة لـلجحفل العاشر فـتحهما فى السـاعة الثامنة من صبـاح ٢٤ أكتوبر، وكنت معـتمدا على أن تعمـد الفرق المدرعة وفـقا لأوامرى إلى شق طريقـها بمقاتلة العـدو، ولكنها أبدت بعض التلكؤ فى فعل ذلـك، وشعرت قبل الظهـر أنها بقيت جـامدة، فاستـدعيت «لامسدن» وأعطيته الأمـر بأن يحث قواد فرقه مضيفا أنهـم إذا استمروا فى التردد فسأنحـيهم عن قياداتهم وأعين مكانهم قـادة أكثر حيوية، وأسـفر هذا التدخل من جانبى عن نتـائج سريعة لدى أحد الفـرق المدرعة، ففى حوالى السـاعة ١٨، وجد اللواء المدرع التابـع للفرقة الأولى نفـسه وقد خـرج من الممر فى أرض مكشـوفة، فهاجـمته فرقة البانـزر الخامسة عشرة، وهذا مـا كنت أريده بالضبط، وفى الجنوب بدأت الفرقة النـيوزيلندية تحركها باتجـاه الجنوب الغربى وشرعت فى عمـلية الفصل والتجزئة، وفى الجنوب أيضاً لعب الجحفل الثالث عشر دوره وفقا للخطة.

وفى الساعة ٢,٣٠ من يوم ٢٥ أكتوبر، أبلغ الجحـفل العاشر أن إندفاعة الفرقة المدرعة العاشرة فى الممر الجنوبى من قطاع الجحـفل الثلاثين لا تتقدم تقدما حسنا، إذ أن حقول الألغام وصـعوبات أخرى تعرقل هذا التقدم، وقـال قائد الفرقة إنه لم يكن مرتاحـا للخطة، وإنه حتى لو خـرج من الممر فـسيـجد نفسـه فى مركز غـير مناسب على حصون مرتفـعات ميطرية، وكانت فرقته سيئـة التدريب وقليلة الخبرة فى عـمليـات بمثل هذه الصـعوبـة، وكان يرغب فى أن يـبقى حـيث هو، وكـان «لامسدن» مـيالا إلى الموافقة على ذلك، وفى الممـر الشمالى كانت الفـرقة المدرعة الأولى فى أرض مكشوفة ودبابات العدو تهاجمها بضراوة.

وقرر «دى غوينغواند» أنه من الضرورى أن أرى قـائدى الجحفلين المذكورين وأن أتسلم بيدى زمام الموقف، فاستدعاهما إلى مـقر قيادتى فى الساعة ٣,٣٠ صباحا، ووصل «ليزولامسدن» فى الوقت المعين وطلبت منهما أن يعرضا لى الموقف.

وعلمت أن أحد الفيالق المدرعة التابعة للفرقة العاشرة قد خرج من الممر، وأن من المنتظر أن تحذو فيالق غيره حذوه عند الفجر، وكان قائد الفرقة يرغب فى إعادتها جميعا إلى وراء الألغام متخليا بذلك عن الفوائد التى أحرزها، والسبب الذى قدمه لذلك هو أن وضعه فى أرض مكشوفة سيعرض فرقته إلى خسائر جسيمة، وكان «لامسدن» من رأيه، وطلب منى أن أتحدث شخصيا بالهاتف مع قائد الفرقة، ففعلت ذلك على الفور، وصعقت حين اكتشفت أنه موجود على بعد ١٦ كيلو مترا خلف ألويته المدرعة الأمامية، فأمرته بأن يتوجه على الفور إلى الأمام وأن يهتم بمعركته، وأن يشق الطريق لمقاتلة العدو، وأن يقود فرقته على الجبهة لا فى المؤخرة.

وأكدت لقائدى الجحفلين أن أوامرى لم تتغير، وأبقيت «لامسدن» بعد أن ذهب الآخرون وخاطبته بوضوح، قائلا إننى مصمم على وجوب خروج الفرق المدرعة من حقول الألغام لتتمكن من المناورة، وأن كل تردد وكل فقدان لرباطة الجأش يمكن أن يكون الآن مميتا، وإذا كان هو نفسه أو قائد الفرقة المدرعة العاشرة لا يشعران أنهما قادران، فسأعين غيرهما فى مكانهما.

وحوالى الساعة الثامنة صباحا، كانت جميع الدبابات فى أرض حرة، ووجدنا أنفسنا فى الوضع الذى رجوت بلوغه فى نفس الساعة من الليلة السابقة.

وعند الظهر جمعت قواد الجحافل فى مقر قيادة الفرقة النيوزيلندية، وأصبح واضحا أن تحرك الفرقة النيوزيلندية نحو الجنوب الغربى سيكون عملية باهظة الثمن، فقررت التخلى عنها فورا، وأعطيت بدلا منها أمرا بمباشرة عمليات فصل وتجزئة لقوات العدو فى قطاع الفرقة التاسعة الأسترالية باتجاه الشمال نحو الشاطىء، وخط الإندفاعة الجديد هذا، أعنى محور العمليات الجديدة، كان يقتضى تغييرا فى الاتجاه يبلغ ١٨٠ درجة، مما سيأخذ العدو، فيما أرجو، على حين غرة.

جرت خلال الأيام الثلاثة السابقة معارك شديدة، وأخذت أشعر استنادا إلى الخسائر أن عليَّ أن أكون حذراً، وكنت أعلم أن الضربة النهائية يجب أن توجه على جبهة الجحفل الثلاثين، ولكننى لم أكن أرى - فى ذلك الوقت - أين على وجه الضبط، ومع ذلك فعلى أن أستعد لها، ولذا قررت أن أعيد جناحى الجنوبى، (الجحفل الثالث عشر)، إلى الدفاع باستثناء بعض أعمال الدوريات، وأن أوسع جبهات الفرق وأحتفظ كاحتياطى بالفرق التى سأحتاج إليها للضربة النهائية، وكنت قد وضعت فى الاحتياطى الفرقة النيوزيلندية.

وقد أصبح الآن كل جيش «رومل» (البانزر) فى مقابلة الممر الشمالى، وكنت أعرف أننا لن نستطيع أبدا أن نقوم باندفاعتنا من هناك، فجعلت من هذا القطاع لذلك جبهة دفاعية، ووضعت الفرقة المدرعة الأولى فى الاحتياطى، وقررت أيضا ألا أستخدم فى الوقت الحاضر إلا الجحفل الثلاثين لخوض المعركة فى الشمال، ووضعت فى الاحتياطى المقر العام لقيادة الجحفل العاشر لكى يكون مستعدا للقيام بالاندفاعة.

وأعطيت الأوامر بتقوية العمليات التى تقوم بها الفرقة التاسعة الاسترالية باتجاه الشاطىء، ذلك أننى كنت أنوى آنئذ القيام بعملية القطع النهائية فى خط الطرق الساحلية.

لقد أصبح واضحا أكثر فأكثر قبل ظهر يوم ٢٩ أكتوبر أن جملة قوات «رومل» متجمعة فى القسم الشمالى من الجبهة، فنشاط الفرقة المدرعة باتجاه الشاطىء جعلته يظن أننا ننوى القيام باندفاعة فى الشمال على طول الساحل، مما كان بالفعل خطتى فى ذلك الحين.

ولكننا نفذنا الآن ما أوصى به «بيل وليامز»، فقد اندفع الألمان ضد جناحنا الأيمن، ولم يعودوا يضغطون بالمشد على الإيطاليين، إذ كان الألمان فى الشمال

والإيطاليـون فى الجنوب، والخط الذى يفـصل بينهم يمـر مـبـاشرة شـمـالى ممرنا الشمـالى، فسارعت إلى تعديل خطتى وقـررت أن أوجه الضربة النهـائية إلى نقطة الالتقـاء هذه، لكن بوضع الثقل الأكـبر على الجبـهة الإيطالية، وقـد اتخذت هذا القرار فى الساعة الحادية عشرة من يوم ٢٨ تشرين الأول.

لكن متى سنستطيع توجيه هذه الضربة؟

لقـد كنت أعلم أن عمليـة المشعل، المـهيـأة فى إنجلترا، تقـضى بالنزول فى ٨ نوفمـبر فى قطاع الدار البيضـاء - وهران، فعلينا أن نقاتل العـدو ونبيد جيـشه فى الوقت المطلوب لمساندة عمليـة المشعل مساندة فعـالة، وهذا بغض النظر عن رغبتنا فى أن نكون أولا فى طرابلس، ولكن بعد فـترة عاجلة تأثر توقيتـنا بضرورة تأمين أراضى الطيران فى مرطوبة لتـوفير غطاء جوى لآخر قـافلة ممكنة نحو مالطة، إذ أن الجزيرة كـان ينقصهـا الوقود والأغذية للطيـران، وكان على هذه القـافلة أن تغادر الاسكندرية فى حوالى منتصف نوفمبر.

وقررت أن تهاجم الفرقة الأسترالية بعنف فى ليل ٣٠ - ٣١ أكتوبر باتجاه الشمال لبلوغ البحر، وهذا سيـركز انتباه العدو على الشمال، ثم أحـدث فى الليلة التالية، من ٣١ أكتوبر إلى أول نوفمبـر، ثغرة عميقة فى جبهة العدو مـباشرة شمالى الممر الأصلى، على أن تتـولى الفرقـة الثانية النـيوزيلندية يدعـمها اللواء الـتاسع المدرع ولواءان من المشاة، وستوضع العملية تحت قيادة الجحفل الثلاثين، وعبر هذه الثغرة سأدفع بالجحـفل العاشر مع فرقـه المدرعة، وقد أطلق على العمـلية اسم (الإغارة الكبرى).

فى ٢ نوفمبر، بدأنا عملية الإغارة الكبـرى فى السـاعة الواحدة، وجرى الهجوم على جبهة طولها ٤٠٠٠ متر بعمق قدره ٦٠٠٠ متر، وكان ناجحا، وعندما هبط الظلام كنا أخذنا ١٥٠٠ أسير.

وفى الساعة الثـانية من صباح الأربعاء ٤ نوفـمبر، وجهت ضربتـين إلى مفصلة منطقة الاخـتراق، حيث حاول العـدو منعنا من توسيع الثغرة التى أحـدثناها، وقد أنهت هاتان الضربتان المعـركة، وتقدمت فيالق الدبابـات عندما أرخى الليل سدوله وبعد قليل تبعـتها الفرق المدرعة الموجودة فـى الصحراء فى منطقة ليس فيهـا حقول ألغام، حيث تستطيع أن تناور وتعمل ضد مؤخرات العدو وطوابيره المنسحبة.

وتقدمت الدبابات نحـو الغرب مندفعة بعـيدا جدا على خط إنسحـاب العدو، وفى الجنوب لم يكن أمـام الفرق الإيطاليـة على جبـهة الجـحفل الـثالث عـشر إلا الاستسلام، فلم يكن بإمكانها النجاة إذ أخذ منها الألمان كل وسائل النقل، وكلفت هوروكس بتجميعها، أمـا أنا فوجهت اهتمامى كله إلى مطاردة قوات «روميل» التى كانت تسرع هاربة نحو الغرب.

ولو لم أبق ثابتـا لا أتزعـزع، ولو لم أصر علـى أن تنفذ خطتى لـما أنتصـرنا فى العلمين. وعلى الرغم من أن «روميل» كثـيرا ما احتاج إلى البتـرول، فإنه لم يهزم أبدا حتى الآن، أما هذه المرة فقد هزم بصورة حاسـمة، وتقرر مصير قوات المحور فى أفريقيا، شرط ألا نرتكب أية أخطاء.

* * * *

الفصل العاشر
من العلمين إلى تونس
٥ نوفمبر ١٩٤٢ - ٧ مايو ١٩٤٣

المطاردة إلى العقيلة:

بدأت المطاردة الحقيقية فى ٥ تشرين الثانى، وكان الجحفل العاشر فى الطليعة، وتركت الجحفل الثلاثين، بقيادة «ليز»، يعيد فى الغرب تنظيم منطقة الاختراق.

أما الجحفل الثالث عشر، بقيادة «هورروكس»، فكانت مهمته تنظيف ساحة معركة العلمين، وجمع عتاد العدو الحربى وعتادنا، وكان عليه أيضا أن يجمع كل الأسرى الإيطاليين، وكان هدفى الأخير طرابلس.

ولحسن سير العمليات، إتفقت مع القائد الأعلى لسلاح الجو الصحراوى، «كانتجهام»، على الخطة التفصيلية التالية: وهى أننا نستطيع أن نستخدم الطيران كسلاح بعيد المدى عاملا بالتعاون الوثيق مع فيالق الدبابات، على أن تعمل أسراب المقاتلات مستخدمة ميادين الهبوط الأمامية حالما تبلغها الدبابات طالما أن هذه الميادين خالية، وأن تعمل أيضا أمام مجموعة القوات العظمى مسافة بعيدة، وهذا التكتيك سيسمح بإرهاق العدو فى تراجعه، بينما تكون قواتنا متمتعة بغطاء جيد من الطائرات المقاتلة.

ولم أكن اعتقد أننا سنخوض معارك جدية قبل العقيلة، فرومل سيعمد دون أدنى شك إلى الانكفاء نحو هذا الموقع وسيحاول إيقافنا هناك، فبذلك يكون خط تموينه قد أصبح أقصر، بينما يكون خط تموينا قد طال، وعلى هذا النحو يكون الوضع المتعلق بالتموين على عكس ما كان عليه فى العلمين.

وعلى هذا، فقد خططت لترك الجحفل العاشر يواصل المطاردة حتى الجبل، ثم لتوقيفه وأمره بالتقدم بقوات خفيفة نحو بنغازى وإجدابية، وكنت أعتقد أن «لامسدن» قد يقوم بهذه العمليات بطريقة مرضية، فكلفت لذلك الجحفل الثلاثين بمهاجمة موقع العقيلة والشروع بالتحرك نحو طرابلس، وقررت أيضا أن أعهد بقيادة الجحفل العاشر إلى «هورروكس»، حالما يستقر هذا الجحفل فى الجبل، وأن أعيد «لامسدن» إلى إنجلترا، وقررت أن أطلب إرسال «دمبسى» من إنجلترا ليحل محل هورروكس على رأس الجحفل الثالث عشر، وهكذا يكون لى فى «ليز» و«هورروكس» و«دمبسى» ثلاثة قواد جحافل أستطيع أن أثق بهم.

ومهما يكن من أمر، فقد دفعت الجيش الثامن إلى الأمام بقوة، والأرقام التالية تظهر سرعة تحركه:

٥ نوفمبر: بدأت المطاردة إنطلاقا من العلمين.

١١ نوفمبر: بلغنا السلوم (٢٧٠ ميلا).

١٢ نوفمبر: بلغنا طبرق (٣٦٠ ميلا).

١٧ نوفمبر: بلغنا مسوس (٥٦٠ ميلا).

وفى خلال ثلاثة أسابيع، سحقنا الجيش الألمانى الإيطالى سحقا كاملا، وطردنا من مصر الباقين على قيد الحياة من الفارين، متقدمين من جانبنا ما يقرب من ٣٣٠٠ ميل حتى الحدود وما وراء الحدود.

معركة العقيلة: ١٣ - ١٧ ديسمبر ١٩٤٢:

باقترابنا إلى موقع العقيلة اكتشفت شعورا بالقلق فى صفوف الجيش الثامن، فقد سبق أن كان فيها كثير من الجنود مرتين، وفى المرتين انبعث رومل وطردهم، ولذلك قررت أن أفتتح بسرعة موقع العقيلة، فالمعنويات يمكن أن تهبط إذا نحن

ترددنا طويلا، ولقد كان ذلك الموقع موقعا تصعب مهاجمته، ففضلت أن أعمد إلى البلف والمناورة، وأن أدفع «رومل» إلى الوراء دفعا يجعله يعتقد أنه سيفقد فى القتال كل ما تبقى من جيشه.

وبسبب الأرض غير الملائمة فى الجنوب وصعوبات القيام بهجوم مواجه، كان من المفضل بالطبع أن نناور «رومل» حتى يخرج من موقع العقيلة ونهاجمه إلى الغرب على أرض أصلح، وبالنظر للهبوط المحتمل فى معنويات قوات رومل، قدرت أن هذا الأسلوب ممكن اعتماده إذا نحن لم ننتظر طويلا.

وقد حل الآن الجحفل الثلاثون محل الجحفل العاشر، ولقد استكشفت الموقع مع ليز فى الأسبوع الأخير من نوفمبر، وأعطيته أوامرى تاركا كل التفاصيل لمقدرته فى المناورة، والحلقة الرئيسية يجب أن تكون تحرك فرايبورج وقواته النيوزيلندية حول جناح العدو الجنوبى نحو موقع يقع شمالى مراده، ومن هناك العمل ضد مؤخرة قوات «رومل»، على أن يجرى هذا فى وقت واحد مع هجوم مواجه تقوم به الفرقة الحادية والخمسون «هايلند» والفرقة السابعة المدرعة، وحددت يوم ١٥ ديسمبر موعداً للشروع فى العملية، وقررت بعد ذلك أن أتوجه بالطائرة إلى القاهرة لمناقشة خطط أخرى مع «الكسندر»، ولدى عودتى إلى مقر قيادتى العام- إلى الشرق من بنغازى مباشرة - وجدت الاستعدادات للهجوم على موقع العقيلة متقدما تقدما حسنا، وكان يبدو واضحا أن العدو أصبح عصبيا تجاه هذه الاستعدادات، وقد بدأ ينقل قواته الإيطالية الثابتة نحو موقع البويرات، وهو أقرب موقع دفاعى جيد إلى الوراء، ولذلك قررت أن أقدم يومين الموعد المتفق عليه سابقا.

وسار كل شيء حسنا، فقد أخذ العدو فى الانسحاب حالما بدأ هجومنا المواجه، ولكن النيوزيلنديين كانوا فى أعقابه، وفى وقت من الأوقات فى ١٥ ديسمبر، كان كل جيش «رومل» المدرع «البانزر» بين الفرقة النيوزيلندية، والفرقة السابعة المدرعة

التى كانت تتقدم بقوة، وتسلل الألمان بمجموعات صغيرة شاقين طريقهم بثغرات أحدثوها فى المواقع النيوزيلندية المتطاولة، وكان الصراع شديدا ومشوشا طوال نهار ١٦ ديسمبر، وقد أسر جنود كثيرون ثم حرروا من الجانبين، وأخيرا تمكن جيش البانزر من النجاة نحو الغرب، ولكن النيوزيلنديين كانوا قد أمعنوا فى الإساءة إليه وأنزلت به الغارات الجوية خسائر جسيمة.

وأعطيت الفرقة النيوزيلندية أمرا بالتوقف وإعادة تنظيم نفسها فى النوفلية، وطاردت جيش «رومل» بقوات خفيفة مشتبكا معه فى موقع البويرات الذى كان يدافع عنه بقوة، وانتهت معركة العقيلة وأصبح هذا الموقع فى أيدينا بصورة ثابتة.

وكان الجحفل العاشر، بقيادة «هورروكس»، وهو الجحفل المدرع إلى حد بعيد، موجودا فى الجبل قرب مكيلى، وكان سلاح الطيران الصحراوى يدعم عملياتنا بقوة من ميادين الطيران فى مرطوبة وفى جنوبى بنغازى وبالقرب من أجدابية.

وهكذا بلغنا هدفنا، ونقلت مقر قيادتى التكتيكية إلى (قوس الرخام) قرب ميادين الطيران فى مردومة، إلى جوار المقر العام لقيادة الجحفل الثلاثين، ومن هذا المكان المتقدم كنت فى مركز حسن لإدارة عمليات استكشاف موقع البويرات ولوضع خطة التقدم نحو طرابلس، وها نحن الآن فى ولاية طرابلس الغرب، على بعد أكثر من ١٢٠٠ ميل من العلمين، أى من حيث انطلقنا، لقد هزم «رومل» وهزمت قوات المحور بصورة حاسمة، وأصبحت مصر فى أمان طوال مدة الحرب.

وقدرت أن الجيش الثامن أصبح الآن بحاجة إلى مهلة يستطيع خلالها أن يستجمع نشاطه كى يصبح مستعدا للوثبة النهائية على مدينة طرابلس، وكان الضباط والجنود يستحقون بعض الراحة، فقررت أن يكون لهم ذلك، وأمرت القوات بالتوقف حيث هى، وتركتها تعلم أن العمليات الهجومية لن تستأنف إلا بعد عيد الميلاد.

الزحف على طرابلس: ١٥ - ٢٣ ديسمبر ١٩٤٢:

عندما تراجع العدو من منطقة العقيلة انسحب إلى موقع البويرات وأخذ ينظم الدفاع عنها، وكانت خطتى تعتمد على إتمام تمويناتنا فى ١٤ ديسمبر، ثم الهجوم بقوة على العدو فى صباح ١٥ ديسمبر الباكر، والزحف مباشرة على طرابلس وبلوغ هذه المدينة فى عشرة أيام.

وفى ٤ ديسمبر، أخذت رياح شديدة تهب فى المتوسط، وأحدثت العاصفة فى بنغازى أضرارا كثيرة وهدمت منشآت هامة، وتقطعت حبال السفن فاندفعت على الأرصفة، وهدمت السد أمواج عنيفة مكتسحة داخل المرفأ، وأصيب عدد من الجرارات والمواعين ومراكز التفريغ بكثير من الأضرار، وبات استعمال بنغازى كمرفأ أساسى غير ممكن عمليا، فقد هبطت طاقته فى ١٢ ديسمبر إلى ٤٠٠ طن فقط.

فما العمل؟ لقد أصبحنا الآن مضطرين للاعتماد على طبرق التى تقع على بعد ألف ميل من طرابلس بطريق البر، وبعد أن نبلغ طرابلس سيتحتم علينا أن ننشىء مستودعات كبرى للعمليات اللاحقة، وقررت أن ليس هناك إلا أمر واحد يمكن عمله، وهو الزحف على طرابلس دون تغيير التوقيت، ولهذا الغرض عزمت على استدعاء فرق الجحفل العاشر الثلاث التى كانت موجودة فى الجبل قرب مكيلى، واستخدام كل وسائل النقل التى لديها لجلب المؤن التى نحتاج إليها فى ١٤ ديسمبر من طبرق وبنغازى، وكلفت «هورروكس» بالعملية كلها، فنذر لها نفسه بكل حماس ونظم مصلحة نقليات من الطراز الأول، فاستطعنا بذلك أن نحافظ على مواعيدنا.

وبدأ الزحف فى ١٥ ديسمبر، وسار كل شىء حسنا فى البداية، وفى ١٩ ديسمبر وجدنا أنفسنا مقابل موقع حمص - طرحونة، وكان يبدو أن العدو ينوى الاحتفاظ به إذا استطاع، ودخلت القوات المتقدمة طرابلس فى الساعة الرابعة من

صباح ٢٤ ديسمبر ١٩٤٣، أى بعد ثلاثة أشهر بالضبط من بدء معركة العلمين، وعينت البريغادير جنرال «لاش» رئيسا سياسيا معاونا لولاية طرابلس، وكلفته بأن يتسلم الإدارة المدنية، حالما يستطيع، بالتعاون مع السلطات الإيطالية.

وقد زار رئيس الوزراء، ورئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية طرابلس فى ٣ و٤ فبراير، فأقمنا لهما عرضا لفرقة هايلند وللفرقة النيوزيلندية مع بعض وحدات الجحفل الملكى المدرع، وكان «ونستون تشرشل» مسرورا للغاية وتأثر أبلغ التأثر عندما مرت القوات أمامه.

وبعد وصولى إلى طرابلس فى ٢٣ يناير، كان شغلى الأول أن أفتح المرفأ لتدخل السفن فأتمكن من تفريغ كمية كبيرة من الأطنان يوميا، وكانت هذه مهمة الأسطول الملكى، وهى مهمة صعبة بلا ريب، وكانت السرعة أساسية، ودخلت أول سفينة فى المرفأ فى ٣ فبراير، أما أول قافلة فدخلته فى ٩ فبراير، وحوالى آخر شهر فبراير كان مرفأ طرابلس يعمل جيدا، وكنا نفرغ ما يبلغ ٣٥٠٠ طن يوميا، وزالت همومى الإدارية فتمكنت من استدعاء الجحفل العاشر من منطقة طبرق - بنغازى إلى طرابلس.

ووفقا للمقررات المتخذة فى مؤتمر الدار البيضاء، الذى كان قد انعقد فى يناير، كان على الجيش الثامن أن يضع نفسه تحت قيادة الجنرال «إيزنهاور» لحملة تونس، وعين «الكسندر» معاونا للقائد الأعلى وقائدا للقوات البرية، وأصبح تدر قائدا أعلى لجميع القوات الجوية فى مسرح العمليات بالمتوسط، وهكذا أصبح يمكن الآن حشد القوة الجوية فى تونس، وفى مالطة، وحشد الجيش الثامن فى سبيل القيام بعملية واحدة.

وجاء «كتنجهام» ينضم إلى «تدر» كقائد للطيران التكتيكى، وتسلم «هارى برودهورست» قيادة سلاح الجو الصحراوى الذى كان يتعاون مع الجيش الثامن.

وقد ذكر لى «اكسندر» أنه وجد الأمور فى تشوش فظيع عندما التحق بالجنرال «إيزنهاور»، فالجيش الأول كان قد هوجم هجوما شديدا على الجزء الجنوبى من جبهته، وكان يبدو أن كل شىء سائر إلى الفشل، وخيبت القوات الأمريكية أمل «الكسندر»، وعمل «الكسندر» ليل نهار لمحاصرة الوضع، وارسل إلىّ نداء حارا لمساعدته فى ٢٠ فبراير لتخفيف الضغط الحاصل على الأمريكيين، فأجبته أننى سأفعل، وفى ٢٦ فبراير أصبح واضحا أن إندفاعتنا أجبرت «رومل» على وقف هجومه ضد الأمريكيين.

وبعد أن صد هجوم رومل على جبهة الجيش الأول، قدرت أن الآن دورى فى أن أهاجم، وكان لدينا دلائل على تحرك يجرى باتجاه جبهتنا، فاستقدمت من طرابلس الفرقة النيوزيلندية، وأخذت استعداداتى لتلقى الضربة التى كنت متأكدا أنها ستحدث، وفى مساء ٥ مارس كان كل شىء يدل على أن الهجوم سيقع صباح اليوم التالى.

معركة مدنين: ٦ مارس ١٩٤٣:

كما توقعنا، شن «رومل» هجومه فى الصباح الباكر بثلاث فرق من البانزر، ولكن الهجوم صد، ثم عاد الهجوم مرة أخرى بعد الظهر واضطر إلى التراجع مجددا، ولم نصب بأية خسائر فى الدبابات، ولكن خسائرنا فى الرجال بلغت ١٣٠ من جميع الرتب، وفقد العدو ٥٢ دبابة دمرتها كلها مدافع المشاة المضادة للدبابات، باستثناء سبعة منها دمرتها كتيبة من دبابات «تشرمان»، وانتهت المعركة التى لم تدم إلا يوما واحدا.

وكما أن معركة علم حلفا سهلت معركة العلمين، كذلك كان لابد لمعركة (مدنين) من أن تسهل معركة (مارث)، فقد كان «رومل» بأشد الحاجة فى «مارث» إلى الدبابات الاثنين والخمسين التى فقدها فى مدنين.

معركة مارث: ٢٠ - ٢٧ مارس ١٩٤٣:

كان الفرنسيون هم الذين بنوا مارث في تونس، ليكون موقعا دفاعيا ضد أى اعتداء إيطالى محتمل قد يأتى من طرابلس الغرب، وكان خطا قويا، وقد عمل الفرنسيون على تحسينه أولا، ثم حسنه من بعدهم الألمان، ويستند جناحه الشرقى إلى البحر وجناحه الغربى إلى سلسلة جبال مطماطة، وفى الشمال الغربى من مطماطة يتجه خط توقيف العدو نحو الحامة.

وكانت المنطقة الواقعة إلى الغرب من مرتفعات مطماطة تعتبر بحرا من الرمال لا يمكن اجتيازه ممتدا عدة أميال نحو الغرب، وقال لى الفرنسيون: إن من المستحيل القيام بتحرك التفافى عبر هذا البحر من الرمال، وقدرت أن الهجوم المواجه ضد موقع بهذه القوة ليس له حظ فى النجاح، إذ لم يكن هناك إلا مجال ضيق للمناورة بين جبال مطماطة والبحر، وأبرز بنود خطتى يجب أن يكون تحركا التفافيا فى غرب مرتفعات مطماطة يزامن هجوما مواجها محدودا، وتبلورت الخطة، وكانت فى خطوطها الكبرى كما يلى:

* على الجحفل الثلاثين أن يهاجم الجناح الشرقى بثلاث فرق، ويجب أن يكون ضغطه بلا هواده، وجناحه الأيمن إلى البحر، وهدفه جذب قوات العدو الإحتياطية نحو هذا الجزء من خط الدفاع.
* يلتف النيوزيلنديون المعززون إلى حد كبير بوحدات أخرى حول الجناح الغربى ويتقدمون وراء جبال مطماطة.
* يبقى الجحفل العاشر فى الإحتياطى مع فرقتين مدرعتين، الأولى والسابعة، جاهزين للانطلاق على جناح أو على آخر حسب الفرصة التى تسنح، ويتمركز هذا الجحفل على نحو يجعل جميع النقاط الأساسية محمية ويجعل الأرض الهامة مضمونة.

* كل العملية يجب أن تدعم بجهد مركز مستمر من جانب القوات الجوية.

وكان النيوزيلنديون بعد تعزيزهم لحركة الالتفاف يعدون ٢٧ ألف رجل و٢٠٠ دبابة، وقد تجمعوا على جناحنا الجنوبى دون أن يشعر بهم العدو فى فجر ١٨ مارس، وفى ليل ١٧ - ١٨ مارس قمنا بعمليات تمهيدية على جناحنا الأيمن لنخدع العدو بصدد المكان الذى ستوجه إليه الضربة الحقيقية، وقد نجحت هذه العمليات، وكان يجب أن يبدأ هجوم الجحفل الثلاثين على الجناح الأيمن فى الساعة ٢٢,٣٠ من يوم ٢٠ مارس، ولكن تم لدى الاقتناع فى صباح ذلك اليوم أن العدو قد اكتشف القوات النيوزيلندية المتخفية على جناحنا الجنوبى، ولذلك أعطيت النيوزيلنديين الأمر بأن يكفوا عن التخفى وينتقلوا إلى الهجوم مندفعين كالشيطان باتجاه الشمال، وهذا ما فعلوه بالضبط.

ولقد وصف هذه المعركة كثير من المؤلفين، ولا حاجة لأن نقدم عنها رواية مفصلة، ويمكن تلخيص التكتيك الرئيسى المستخدم فيها على النحو الآتى:

* بدأت المعركة بضربة عنيفة موجهة من ميمنتنا.

* بينما كانت هذه الضربة قيد التنفيذ، بدأت ميسرتنا بحركة التفاف كبيرة.

* سار هجوم الميمنة سيرا حسنا منذ بدايته.

وأصبح التهديد الذى يتعرض له العدو تهديدا بالغا اضطره إلى إرسال القوات الاحتياطية على عجل للوقوف فى وجه تقدمنا، فقامت بهجوم مضاد، وصددنا نحن الهجوم ولكننا خسرنا كل ما ربحناه، ووجدنا أنفسنا فى المكان الذى انطلقنا منه قبل يومين.

* وقررت فورا الصمود الكلى على الميمنة، فى نفس الوقت الذى أقوم فيه بضغط يجعل القوات الاحتياطية الألمانية تبقى فى هذا القطاع، وقمت أيضا باندفاعة فى الوسط ضد مرتفعات مطماطة، مستخدما فى ذلك الفرقة الرابعة الهندية.

* وأرسلت بعدئذ الفرقة الأولى المدرعة من قواتى الاحتياطية لتنضم إلى حركة الالتفاف التى يقوم بها النيوزيلنديون، وتنطلق بنجاح، وكلفت قائد الجحفل العاشر «هورروكس» الأهتمام بهذا الالتفاف من جانب الميسرة، وبينما كان هذا الإمداد ينتقل إلى الميسرة، كنا نهيىء الهجوم الخاطف الذى يجب أن يحدث لدى وصوله.

* أدرك العدو ما سيحصل، فحاول نقل قواته الاحتياطية التى كانت فى مواجهة ميمنتنا، لكى يوقف إندفاعة ميسرتنا التى أصبحت الآن على جانب من القوة، فوصلت قواته متأخرة، ذلك أن هجومنا الخاطف حصل بعد عشرين دقيقة من وصول آخر سيارة من سيارات الفرقة الأولى المدرعة، وجرف كل ما كان أمامه.

وفى الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٨ مارس، كنا قد استولينا استيلاء كاملا على خط مارث الشهير بعد معركة لم تستمر إلا أسبوعاً واحداً.

انتهاء الحرب فى أفريقيا:

كان واضحا أن الحرب فى أفريقيا ستنتهى بسرعة فائقة، فلم يبق على الجيش الثامن إلا أن يزحف من ثغرة قابس ليتصل بالقوات الأمريكية، وما تبقى من العدو سيطوق عندئذ، وفى مجال يضيق أكثر فأكثر، وكان علينا أن نخوض فى ٦ أبريل معركة قاسية استمرت يوما كاملا على خط عود العكاريت، شمالى قابس حيث سقط ٧ آلاف ألمانى أيضا فى أيدينا، وفى ٨ أبريل جرى اتصالنا مع القوات الأمريكية المتحركة شرقى قفصة، وأخذنا نأسر ما معدله ألف رجل يوميا، وفى ١٠ أبريل استولينا على صفاقس.

وفى ١٠ أبريل كتبت إلى «الكسندر» قائلا له: إن قرارا بطلب أن يتخذ لمعرفة أى جيش يجب أن يقوم بالجهد الرئيسى فى المرحلة النهائية من مراحل القتال فى

تونس، واقترحت أن يعهد بذلك إلى الجيش الأول، ووافق الكسندر على ذلك وطلب منى أن أرسل إلى الجيش الأول فرقة مدرعة وفيلقا من السيارات المصفحة، أما أنا فسيكون علىَّ أن أضغط ضغطا مستمرا وأوهم العدو بأن الهجوم الرئيسى سيقوم به الجيش الثامن، ووضعت خططى على هذا الأساس وهاجمت موقع انفيدافيل فى ليل ١٩ - ٢٠ أبريل، وكان من الصعب التقدم فى الجبال بالقرب من تكرومة، ومع ذلك فقد بلغ تقدمنا نحو ثلاثة أميال، وعمدت إلى إعادة تجميع القوات، وأخذت استعد لشن هجوم جديد بعد أسبوع واحد، ولم أكن مسرورا بهذه الهجمات التى أثبتت لى أن الضربة الرئيسية يجب أن توجه على جبهة الجيش الأول، حيث الأرض ليست جبلية إلى هذا الحد، وحيث يمكن استخدام الدبابات.

ولكن المحاولة الأولى التى قام بها الجيش الأول فى ٢٣ أبريل لشق طريقه صوب تونس لم تكلل بالنجاح، وفى ٣٠ أبريل، افترحت على ألكسندر إعادة تجميع الجيشين الأول والثامن كى يمكن القيام بالهجوم على تونس بأكبر قوة ممكنة فى أنسب منطقة، واقترحت أن أرسل إلى الجيش الأول الفرقة السابعة المدرعة والفرقة الرابعة الهندية، ولواء الحرس ٢٠١، يضاف إليها قطع مدفعية، مع قائد جحفل واسع الخبرة لقيادة الهجوم، وكنت أفكر فى هورروكس، وقد وافق الكسندر على هذا موافقة تامة.

وانتقل «هورروكس» إلى الجيش الأول، ونظم فى ٦ مايو الهجوم على تونس، وقد وصل هذا الهجوم إلى النقطة المختارة واخترق دون صعوبة خطوط دفاع العدو فى غربى تونس، وتم الاستيلاء على بنزرت وتونس فى ٧ آيار وحشر العدو عندئذ فى شبه جزيرة رأس بون، وانتهت مقاومة العدو المنظمة فى ١٢ مايو بعد أن وقع فى الأسر نحو ٢٤٨ ألفا من رجاله.

وهكذا انتهت حرب أفريقيا بكارثة كبـرى للألمان، فقد تم الاستيلاء على جميع قواتهم وتموينااتهم وأسلحتهم الثقيلة وتجهيـزاتهم، ولـم يكن البقاء فى أفريقيا الشمالية بعد إختراق خط (مارث) أمرا مبـررا من الوجهة العسكرية الصرفة، وأظن أن هتلر أمر بهذا البقاء لأسباب سياسية.

* * * *

الفصل الحادي عشر
حملة صقلية
١٠ يوليو - ١٧ أغسطس ١٩٤٣

فى يناير عام ١٩٤٣، وصلت أوامر إلى أفريقيا الشمالية يقتضى بموجبها القيام بعمليات عندما تطرد قوات المحور من أفريقيا بغية اخراج إيطاليا من الحرب، وتقرر أن تكون الخطوة الأولى غزو صقلية، واصطلح على تسمية هذه العملية باسم «هاسكى».

فى ١٢ مايو توقفت كل مقاومة فى أفريقيا الشمالية، وفى ١٣ مايو استسلم للجيش الثامن الفيلد «مارشال ميسه»، القائد الأعلى الإيطالى الذى خلف «رومل» فى منصب القيادة العليا، وقد تناول معى طعام الغذاء فى مساء اليوم نفسه قبل أن ينقل إلى معسكر الأسرى، وتحدثنا معا حول مختلف وجوه المعارك التى خاضها أحدنا ضد الآخر.

وقررت التوجه إلى إنجلترا فى إجازة قصيرة قبل بدأ معركة صقلية، وكنت أرغب أيضا فى زيارة الفرقة الأولى الكندية التى كان يجب أن تنزل مباشرة على شواطىء صقلية قادمة من المملكة المتحدة، وما كان بإمكاننا أن نراها قبل أن يجمعنا القتال جنب إلى جنب، ولذلك كان اجراء اتصال مسبق أمرا ضروريا.

وغادرت طرابلس فى ١٦ مايو بقلعتى الطائرة، ووصلت إلى إنجلترا فى ١٧ مايو، وكنت مسرورا لهذه الزيارة، خاصة ما سأقضيه من وقت مع «دايفد».

وعدت إلى الجيش الثامن بطريق مدينة الجزائر، حيث اجتمعت فى ٢ يونيو برئيس الوزراء ورئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية، وكان رئيس الوزراء مصمما

على إخــراج إيطاليا من الحــرب، وقد اسـتـجوبنى مطولا حـول خطة الإنزال فى صقلية، فأعربت عن ثقتى بخطتنا وبقدرتنا على تنفيذها.

وقد وصل الملك إلى أفريقيا فى ١٣ يونيــو وجاء إلى طرابلس فى ١٧ يونيو ليرى فيها الجيش الثامن، وقد أقام فى مـعسكرنا على الشاطىء على بعد بضعة أميال من طرابلس، وعندمـا حان يوم رحيل الملك، فـى ١٩ يونيو، كرسنى جـلالته فـارسا بلمس كتفى بطرف سيفه، وذلك تحت الخيمة المنصوبة لتناول طعام الغذاء على مقربة من ميدان الطيران.

ونزلنا فى صقليـة فى العاشر من يوليو، قـبل ساعتين من بزوغ الفـجر، وعلى الرغم من أن الأوامر المتـعلقة بغزو صـقلية وصلت إلى أفريقـيا الشمـالية فى يناير ١٩٤٣، فإن خطة الإنزال لم تعد نهائية إلا فى شـهر مايو، أى قبل شهرين من يوم الغزو، وقد قـضينا نحو خمسة أسـابيع لإنجاز فتح صقلية، وبلغت خـسائر الجيش الثامن ١٢ ألف رجل، وكنا نستطيع فى رأيى- بتنسيق أوثق للجهود فى البر والبحر والجو - أن نستولى على الجزيرة كلها فى وقت أسرع وبخسائر أقل.

وقد جاء إيزنهـاور ليرانى فى صقلية عندمـا انتهت الحملة، ولقد كنـا دائما نسر بزياراته إذ كان يثـير إعجابنا جمـيعا بشخصـيته الأخاذة، ولـم يكن مـعه إلا مرافق واحد هو ضابط البحرية الكابتن «بوتشر».

* * * *

الفصل الثانى عشر
حملة إيطاليا
٣ سبتمبر - ٣١ أكتوبر ١٩٤٣

لئن كانت الاستعدات لحملة صقلية وسـير هذه الحملة قد شابها النقص الكبير، فإن الاستعدادات لغزو إيطاليا وسير العمليات اللاحق فى هذه البلاد كانت أسوأ.

لقـد كنا نريد اكتـساح القـارة الأوربية دون أن تكون لدينا فـكرة واضحـة حول الطريقة التى يـمكن أن تتطور بها العمليـات بعد أن نصـبح على أرض القارة، ولم يكن القرار فـيما يتـعلق بالمكان الذى سنتزل فيـه من إيطاليا قد اتخـذ بعد فى ١٧ أغسطس، وهو التاريخ الذى انتهت فيه حملة صقلية، أما فيما يتعلق بالجيش الثامن فكان علىّ أن أجعله يجـتاز مضـيق مسينا فى ٣ أغـسطس، ولكن لم يعين لى أى هدف من الأهداف. وفى ١٩ أغسـطس ألحجت على أن يعين لى مـا يجب على فعله فى أيطاليا، وهكذا زودت بالهدف المعـين لنا فى أغسطس، أى قبل عشرة أيام من نزولنا فى إيطاليـا، وكانت نية القـيادة فى الأصل أن يجرى غـزو القارة بواسطة الجيش الشـامن وحده، على جبـهة من جحـفلين، وكان يجب أن تجرى عـمليات الإنزال التالية:

- عمليـة الدعامة فى منطقـة جيوياتورو، على السـاحل الشمالى لقـدم الحذاء الإيطالى.
- عملية مدينة الخليج بهجوم مباشر عبر مضيق مسينا.

وفى حوالى أخر يوليو، بدأ درس عمليه أخرى فى منطقة سالرنو، وأطلق عليها اسم عملية التيهور، وفى رأيى أن هذه العملية كانت جيدة للتنفيذ، وكان يحسن أن

يوضع كل شيء منذ البداية فى العمل لتحقيقها، وأن تتركز جميع الجهود كى تكون فوزا مبينا، ولكن هذا لم يحدث.

وفى ١٧ أغسطس، تقرر ألا تجرى عملية الدعامة، وهكذا وضع جحفلى - الذى كان عليه أن ينفذها - تحت تصرف الجيش الأمريكى الخامس المكلف بعملية التيهور، وعلى هذا النحو تقرر فى ١٧ أغسطس أن يكتسح إيطاليا جيشان هما:

- الجيش الثامن بطريق مضيق مسينا (عملية مدينة الخليج).

- الجيش الأمريكى فى سالرنو (عملية التيهور).

وبذلك بدأت متاعبنا، ففى سبيل دعم عملية التيهور أخذت بعض سفن الإنزال من عملية مدينة الخليج، ولم استطع الشروع فى الاستعدادت لعملية إنزال مدينة الخليج، إذ لم يكن تحت تصرفى أى ضابط كبير من البحرية ولا أية هيئة أركان حرب بحرية صالحة، واحتججت على هذا الوضع، ووعدنى «الكسندر» بأن يضم احتجاجاته إلى احتجاجاتى، ولكن كان ذلك دون جدوى حتى بات تنفيذ عملية الخليج أخيرا أمراً مستحيلا كما هى موضوعة.

وفى ٢٠ أغسطس، تلقيت من «الكسندر» مذكرة كتبها بخط يده، مشيرا إلى هدف عملية مدينة الخليج على النحو التالى:

إن مهمتكم هى تأمين سلامة رأس جسر (منشأ فى قدم الحذاء الإيطالى) كى تتيحوا لقواتنا البحرية أن تعمل فى مضيق مسينا، وفى حال إنكفاء العدو عن قدم الحذاء فإن عليكم أن تلحقوا به القوات التى تستطيعون أن تجعلوها متوفرة، دون أن يغيب عن بالكم أنه كلما أمكنكم إشغال قوات العدو فى طرف إيطاليا الجنوبى، زاد دعمكم لعملية التيهور.

إن هذا الهـدف يستـحق الدرس والتمـحيص، فـلم تبذل أية مـحاولة لتنسـيق عملياتى مع عمليات الجـيش الخامس الأمريكى النازل فى سالرنو فى ليل ٩ - ١٠ سبتـمبر، ولم يكونوا يتـصورون أن الجيش الثامن يسـتطيع أن يذهب إلى أبعد من خليج كـاتانزارو، على بعد نحـو ٦٠ ميـلا من رجيـودى كالابرى، وقـد قيـست مواردنا بهذا المقياس.

والذى حدث فعلا مـعروف تمام المعرفة، فما لبثت عـمليات الإنزال فى سالرنو أن واجـهت صعـوبات وطلب إلى أن أزحـف إلى الأمام وأدعم الجـيش الخـامس الأمريكى، فنشأت لجيشى هموم ذات طابع لوجستى.

وصمم «إيزنهاور» على جمع قواده الأعلين فى مدينة الجزائر فى ٢٣ أغسطس، وفى هذا الإجتـماع الذى حـضرته، طلب الى أن أعرض الخطوط الكـبرى لخطتى لعـملية مـدينة الخليج، فذكـرت أن التأخـرات الناجمـة عن المشاكل البحريـة قد وضعتنى فى حالة يستحيل معها تنفيذ العملية فى ليل ٣٠ - ٣١ أغسطس، وأضفت أن لدى الآن الموارد الضـرورية من سفن الإنزال والملاك البـحرى، وإننى أسـتطيع تنفيذ العملـية فى ليل ٢ - ٣ سبتمبر، وعلى كل حـال فقد أبلغنى الأسطول أنه لن يستطيع مواجهة الأمر قبل ليل ٤ - ٥ سبتمبر.

وبعد أن حـسمنا هذه المسـألة ، أطلعنا «إيزنهاور» على المفـاوضات الدائرة مع الحكومة الإيطالية من أجل إعلان الهدنة.

وهكذا تهيـأت للنزول على القارة الأوروبية فى ٣ سـبتمبـر، وهو يوم الذكرى الرابعـة لإعلان الحرب، وسندخل سـنة الحرب الخامـسة ومـا يزال لنا ثأر علينا أن نأخذه، وفى البدء سارت عمليـة الإنزال سيرا حسنا، ولم يكن هناك إلا قليل من المقاومة، وسرعان ما وصلنا إلى الأرض الثابتـة، ولكن صعوباتنا بدأت على مسافة قصـيرة من الشـاطىء، لقـد كان وضع الأرض مثـاليا مـن حيث إتاحـته الفـرصة

لوحدات عدوة صغيـرة، بالإضافة إلى تخريبات تختار مواقـعها بحذق، كى تؤخر تقدمنا، ولقد استفاد الألمان من هذا الوضع أوسع الاستفادة.

وفى ٥ سبـتمبـر، وصل «الكسندر» بطريق الجو إلى رجيـو، وقابلته فى مـيدان هبوط الطائرات، وقـال لى: إن الإيطاليين وقعوا فى ٣ سـبتمبر شـروط الهدنة التى فرضناها، ولكن الأمر لم يعلن بعد، وينتظر أن تكون الترتيبات كالتالى:

* فى الساعـة ١٨,٠٠ من مساء يوم ٨ سبـتمبر يعلن «بادوجليـو» من روما، «وايزنهاور» من الجزائر، بالراديو أن الإيطاليين استسلموا دون أى شرط.

* فى الساعة ٢١,٠٠ من اليوم نفسه (٨ سبتـمبر)، تنزل قوات أمريكية محملة جوا قرب روما، وفى الوقت نفسه تستولى الفرق الإيطالية القريبة على المدينة.

* يستولى الجيش الإيطالى على تارنت، وبرنديزى، وبارى ونابولى.

* فى الساعة ٤,٣٠ من صـباح اليوم التالى ٩ سـبتمبر ينزل الحلفـاء فى إيطاليا على النحو الآتى:

الجيش الخامس الأمريكى فى سالرنو ليتجه إلى نابولى.

الجحفل الخامس البريطانى فى تارنت.

وما لبث النزول فى سالرنو أن واجه المصـاعب، وغدا الموقف دقيقا فى ليل ١٣ - ١٤ سبتمبر، عندما هاجم الألمان الفرقة الأمريكية السادسة والثلاثين بقوة، وحدث هجوم العدو على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ وميلين من المقر العام لقيادة الجيش، وفى ١٤ سبـتمبر تلقـيت من الكسندر نداء للنجدة، طلب منى فـيه أن أزحف إلى الأمام وأهدد القوات الألمانية المقاومة للجيش الخامس، ففعلت ذلك.

وفى ١٦ سبـتمـبر أتمت طلائع الجيش الثـامن اتصالهـا بميمنة الجـيش الأمريكى الخامس، وبعد أن انتهت المرحلة الأولى والتقى الجيشان، تلقيت الأمر بنقل عمليات

الجيش الثامن نحو الشرق، أى على مقلب الأدرياتيكى لسلسلة جبال الآبنين، كان هذا يعنى نقل خطنا اللوجستى من (كالابرى) إلى المرافئ الإيطالية فى الجنوب الشرقى، وأهمها تارنت وبرنديزى وبارى، وكانت هذه عملية كبرى استغرقت كثيرا من الوقت، وعندما انتهت بدأنا تحركا باتجاه الشمال اشتمل على الاستيلاء على فوجيار، وميادين الطيران فيها، وعلى ترمولى، كما اشتمل على خوض معارك جدية على خطوط نهرى تريغنو وسانغرو.

وساءت حالة الطقس فى أواخر أكتوبر، وهطلت علينا الأمطار الشديدة ترافقها العواصف ، واستمرت هذه العواصف فأغرقت البلاد كلها إغراقا كاملا فى ٩ نوفمبر، وفى صباح يوم ٢٤ ديسمبر، تلقيت اتصالاً من وزارة الحرب يبلغنى أن علىّ أن أعود إلى إنجلترا لأخلف الجنرال باجيت على رأس مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وهى مجموعة الجيوش البريطانية التى كانت تستعد لفتح جبهة ثانية على الجانب الآخر من المانش.

وكنت بالطبع حزينا لتركى الجيش الثامن، ولكن سرنى اختيارى لهذه المهمة الجبارة (الغزو الذى سيثأر لدنكرك).

وخلال ستة أشهر استولينا على صقلية، أخرجنا إيطاليا من الحرب، حجزنا فى مالطة الأسطول الإيطالى، اكتسحنا نحو ثلث إيطاليا بما فيه نابولى وميادين الطيران فى فوجيا.

وكان الجنرال «إيزنهاور» قد عيننى قبل بضعة أيام قائدا أعلى للجبهة الثانية، وخلفه فى القيادة «جامبو ويلسون» القائد العام للشرق الأوسط، واحتفظ ألكسندر بمنصبه الحالى.

وقد اخترت الذين سأصطحبهم معى فورا وهم:

دى غوينغواند، كرئيس لأركان الحرب.

«جراهام»، كرئيس للمصالح الإدارية.

«وليامز» ، كرئيس لمصلحة الاستخبارات.

«ريتشاردس»، كمستشار للدبابات.

«هيوز»، كرئيس للكهنة الوعاظ.

وقد وافقت وزارة الحربيـة على الفور فيما يتعلق بـ : دى غويـنغواند، ووليامز، وريتشـاردس، ولم توافق على أختـيار «هيوز» و«جـرهام»، وقررت أن آخـذ معى جراهام والمجازفـة باغضاب لندن، على أن أطلب «هيوز» و«بلتشم» فيـما بعد، أى بعد أن أكون قد أوضحت الأمور فى لندن.

وعين «اوليـفرليـز» خلفا لى، وكان يجب أن يصل فـى ٣٠ ديسمبـر، وعزمت على الرحيل فى ٣١ ديسمبـر، وكان لينر يعرف جيدا الجيش الثـامن، فلم يستغرق تسليم السلطات وتسلمها إلا قليلا من الوقت

وفى صبـاح اليوم التالـى، ٣١ ديسمبـر، أقعلت بطائرتى «الداكـوتا» من الميدان القريب من مقر قيادتى التكتيكية، وتوجهنا إلى مراكش، وكان فيها رئيس الوزراء فى طور النقاهة على إثر إصابته مؤخرا بمرض، فقـضيت السهرة كما قضيت يوم رأس السنة معه، ثم توجهت إلى إنجلترا فى ليل ١ - ٢ يناير ١٩٤٤.

* * * *

الفصل الثالث عشر
فى إنجلترا قبل يوم الغزو
٢ يناير - ٦ يونيو ١٩٤٤

حينما وصلت إلى مراكش مساء يوم ٣١ ديسمبر، وجدت رئيس الوزراء منكبا على دراسة نسخة من خطة السيد الأعلى، وهو الاسم الذى اصطلح على إطلاقه على عملية غزو نورماندى.

وأعطانى تشرشل النسخة لأقرأها، قائلا: إنه يرغب فى معرفة رأيى فى الخطة كما هى مقترحة، فقلت إننى سأقرأها فى الفراش، وأطلعه على انطباعى فى صباح اليوم التالى،وكان يعلم أننى معتاد على النوم فى ساعة مبكرة.

ووصل إيزنهاور إلى مراكش بعد الظهر، وكان فى طريقه إلى الولايات المتحدة حيث سيجتمع إلى «روزفلت» قبل تسلم مهماته الجديدة كقائد أعلى لعملية الغزو.

وخصصت لقراءة الخطة بضع ساعات وسجلت انطباعاتى الأولى، وقد نسخت هذه الانطباعات على الآلة الكاتبة قبل طعام الفطور فحملتها إلى رئيس الوزراء حالما أصبحت جاهزة، وكان ما يزال فى الفراش فقرأها على الفور، وكانت أهم فقراتها فى رأيى الفقرات الأولى الأربع وهى:

أولا: يجب أن يكون واضحا:

أ - أننى اليوم فى أول يناير ١٩٤٤ علمت بالخطة المقترحة للمرة الأولى، كما أنى للمرة الأولى أواجه المشكلة من جميع زواياها.

ب - لم اتصل حتى الآن بالأميرال «رمزى»، ولم يكن بإمكانى استشارة خبير بحرى.

جـ - لم أتمكن كذلك مـن استشارة القـائد الأعلى للقوات الجـوية، ولا ضابط طيران مجرب.

د - وبالتالى فلا يمكن أن يكون لتعليقاتى الأولية إلا قـيمة نسبية، إنها لا تعكس إلا انطباعاتى الأولى بعد دراسة سريعة للخطة.

ثانيـا: تقضى الخطة بأن تجرى عمليات الإنزال الأولية على جبـهة ضيقة أكثر مما ينبغى مقـتصرة على منطقة أصغـر مما ينبغى، وفى اليوم الثانى عشـر بعد يوم الغزو تفتـرض الخطة أن مجموع مـا سينزل على الشواطئ المسـتخدمة لعـمليات الإنزال الأولية سيبلغ ١٦ فرقة، مما سيحدث على هذه الشواطئ أفظع فوضى وسيجعل من الصعب - إن لم يكن من المستحيل توسيع المعركة البرية.

وتفترض الخطة أن فرقا أخرى ستنزل، بحيث يبلغ مجموع الفرق النازلة فى اليوم الرابع والعشرين بعد يوم الغزو ٢٤ فرقة على الشواطئ ذاتها، التى ستصبح مراقبتها شديدة الصعوبة، فبدلا من أن تخف الـفوضى، ستشتد، وفى رأيى أن هذه الخطة غير عملية.

ثالثا: من وجهة نظر الجيش وحده، تبدو النقاط التالية أساسية:

أ - يجب أن تجرى عمليات الإنزال الأولية على أوسع جبهة ممكنة.

ب - يجب أن تكون القوات قـادرة على توسيع عـملياتها انطلاقـا من شواطئ الإنزال، ويجب ألا تنزل تشكيلات أخرى على هذه الشواطئ نفسها.

جـ - يجب أن تكون مناطق الإنزال البـريطانية والأمريكيـة متمـيزة، ويجب أن يطبق على كل منها مضمون الفقرة «أ».

د - بعد عمليات الإنزال الأوليـة يجب أن تتطور العملية بصورة تؤمن لكل من القوات البريطانية والقوات الأمريكية مرفأ واحدا جيدا على الأقل.

رابعاً: أن الخطة المطلوبة هى من النوع الآتى:

أ - تنزل القوات البريطانية على جبهة كافية لجحفلين أو ثلاثة جحافل إن أمكن ، وكذلك تفعل القوات الأمريكية.

ب - تنضم فرق إضافية إلى الجحافل التى تكون قد أنزلت.

جـ - يستخدم الطيران المهاجم لدعم تقدم القوات ، وتتبع ذلك بسرعة وبدون انقطاع موجات متلاحقة من السيارات غير المصفحة من كل نوع.

د - يجب كسب المعركة الجوية قبل أن تنطلق العملية، وعندئذ يكون هدفنا كسب المعركة البرية بفضل سرعة عملياتنا وعنفها.

وقد أظهر رئيس الوزراء اهتماما كبيرا بهذه الملاحظات، وقال لى: إنه كان يشعر بأن فى الخطة المقترحة شيئا ما غير سليم، ولكن رؤساء أركان الحرب كانوا قد قبلوها مما جعله غير قادر على أن يفعل شيئا، أما الآن فها هو قائد جيوش يحلل له الخطة ويقدم له إيضاحات هو بأشد الحاجة إليها، فهو إذن شاكر له أبلغ الشكر.

وفى الليل بعد العشاء، غادرت مراكش إلى إنجلترا، ووصلت فى ٢ يناير ١٩٤٤ . وسرعان ما أدركت لدى وصولى إلى إنجلترا أننا أمام مهمة صعبة للغاية، وكنت قد عينت لأعمل كقائد أعلى للجيوش العاملة فى البر، فى عملية مشتركة ذات حجم أوسع وأكبر من كل ما جرت محاولته فى تاريخ الحروب كلها.

وعلى الرغم من أن القسم الأكبر من القوات ومن المقرات العامة الثانوية كانت حسنة التدريب، فقد كانت تفتقر إلى الخبرة فى القتال، وكان يتحتم الشروع فى العملية بعد خمسة أشهر تقريبا، فالضباط لم يكونوا يعلمون أساليب ميدان القتال التى يرى لها الضباط الشباب أهمية بالغة، ومن شأنها أن تنقذ كثيرا من الأرواح، والمعركة فى آخر المطاف إنما تربح بمقدرة ضباط الميدان وجنوده وبروح المبادرة لديهم، ودون هذه المزايا لابد من خسران المعركة أيا كانت مزايا القيادة العليا.

وكانت بعض التشكيلات المقاتلة ذات الخبرة الواسعة قد عادت إلى إنجلترا قادمة من مسرح العمليات فى المتوسط بعد انتهاء حملة صقلية، وقد حاولت بتبديل الضباط بين هذه التشكيلات وزميلاتها التى لم يسبق لها أن غادرت إنجلترا، أن أوزع هذه الخبرة على أوسع نطاق ممكن.

أما فيما يتعلق بتبديل قواد الجيش العاجزين، فلم أطلب من وزارة الحربية إلا قرار نقل واحد، هو أن يستدعى من إيطاليا الجنرال «دمبسى» الذى يقود أحد جحافل الجيش الثامن، وتسليمه قيادة الجيش الثانى مكان «أندرسن».

ولقد كتب الكثير فى موضوع خطة غزو نورماندى، وروى كثير من الكتاب كيف عملت المقصلة بهذه الخطة شيئا فشيئا، ولا أريد العودة إلى جوهر المسألة، وإنما أريد فقط أن أتحدث عن الأمور التى كانت فى ذلك الحين شغلى الرئيسى، فمن قبل عام ١٩٤٤ ، كلف المقر العام بوضع خطة الإنزال، وقد شكل هذا المقر العام فى لندن بالتعاون بين الحلفاء، على أن يكون مسئولا أمام هيئة أركان الحرب المشتركة فى واشنطن، وعمل هذا المقر العام وقتا طويلا فى درس مشكلة عودة القوات الحليفة إلى شمالى غربى أوروبا، وعلى رأس هذا المقر العام كان الجنرال «فريدى مورجان»، الذى كنت أعرفه جيدا، وكثيرا ما شكا لى من الصعوبة التى يلاقيها فى وضع خطة ملائمة دون توجيه، ومع ذلك فقد قام بعمل جيد وقدم مشروعا لعملية السيد الأعلى، إتخذ أساسا للخطة النهائية.

وكان «مورجان» يعمل بناء على معلومات تقدمها إليه هيئة أركان الحرب المشتركة عن القوات التى ستكون متوفرة للعملية ، فلم يكن له إذن خيار، ولم يكن إلى جانبه أى قائد جيوش مجرب يرشده ويساعده.

وكنت كلما أمعنت فى درس الخطة التكتيكية المقترحة لجموع الجيوش الحادية والعشرين، قل ارتياحى إليها، فجبهة الهجوم كانت ضيقة أكثر مما ينبغى، وهناك مقر

عام واحد لجحفل يفترض أن يشرف على مجمل الجبهة، ولن تلبث منطقة الإنزال حتى تكتظ وتختقن، ولم يكن يفترض أن يجرى أى إنزال شرقى شبه جزيرة كوتانتين، رغم أنه كان من الضرورى لحاجاتنا أن نضع يدنا بسرعة على مرفأ شربورج.

ولم يكن يبدو أن هناك فكرة واضحة عن الطريقة التى ستتطور بها العمليات بعد إنزال الجيوش على سواحل نورماندى، ولقد كنا نبغى فتح مسرح جديد للعمليات على القارة الأوربية، وكانت الحملة تشتمل على مجمل المشكلة التى يطرحها سير العمليات الهجومية البرية فى أوروبا الغربية، وهدف هذه العمليات النهائى تدمير قوات العدو وإحتلال ألمانيا.

لذلك كان من الضرورى قبل كل شيء تقرير الطريقة التى ستتطور بها العمليات البرية، ثم أن نضمن على ضوء هذه العمليات أن يجرى الإنزال على الشواطئ الأكثر ملاءمة لتنفيذ الخطة العامة، لكن يظهر أن المشكلة كانت تواجه معكوسة.

واستنادا إلى ما كان لدينا من معلومات فى ذلك الحين - يناير ١٩٤٤ - كان للألمان فى فرنسا أكثر من خمسين فرقة، وقد يكون منها ست فرق (بانزر)، وكان تقدير «بيل ليامز» أنه سيكون علينا أن نقاتل قتالا شديداً ضد ست فرق ألمانية فى مساء يوم الغزو، ولم نكن نستطيع المجازفة، فإذا فشل الإنزال فى نورماندى فقد يمتد أمد الحرب أعواما أخرى.

وكان علينا فى البر، أن نشق طريقنا مقاتلين، ونضمن لأنفسنا مركزا مفضلا قبل أن يتمكن العدو من الإتيان بقوات احتياطية كافية لطردنا، فعلينا أن نتراجع قليلاً بسرعة وندفع برؤوس حراب صوب الداخل، وفى هذه الأثناء يكون على الطيران أن يحمى الدائرة التى شكلت على هذا النحو، وأن يمنع أو يعرقل نقل قوات العدو الاحتياطية بالسكك الحديدية أو الطرق البرية باتجاه مواقعنا.

ويجب أن تقوم بهجومنا الأول خمس فرق، تضاف إليها فرق محملة جوا تنزل على أجنحتنا لحمايتنا من تدخل العدو، بينما نتقدم نحن بسرعة صوب الداخل،

وسيلزمنا جهاز قادر على إنزال ثمانى فرق مثـلا مساء يوم الغزو، و ١٢ فرقة مساء اليوم الثانى، وهدفنا أن يكون لنا على الأرض ١٨ فرقة فى آخر الأسبوع الأول.

كل هذا يشكل عملية جبارة، ولن يكون هناك غنـى عن أن نستقدم من مسرح المتوسط سفن إنزال إضافية، وسنحتاج أيـضا إلى مسطح إقلاع لثلاث فرق محملة جوا وكان إيزنهاور قد كلفنى أن أعمل مكانه وبالنيابة عنه، فعقدت مؤتمرات عديدة مع قائدى البحرية والجو الأعليين ومع كل من هيئتى أركان حربنا.

وبعد أن أعـدنا النظر فى الخطة، مـا لبث أن غدا واضحـا لنا أن نجاحنا يـتوقف على أن تختـصر عملية (السندان) لتـصبح مجرد تهديد، وأن تنتـقل سفن الإنزال المخصصة لهذه العملية إلى عملية السيد الأعلى.

وعملية (السندان)، هى عبارة عن إنزال قوات فى جنوب فرنسا شرقى طولون، والقوات الحليفة، الأمريكية والفرنسية التى يفترض أن تشترك فيها يجب أن تأتى من مسرح العمليات الإيطالية.

واستمرت المناقـشات المتصلة بعملية (السندان) حتى شهـر أغسطس، وكانت ما تزال مستمرة عندما أجهزنا على الألمان المطوقين فى جيب فاليز.

ولقد كنت دائما منذ البداية معارضا لعـملية السندان، وقد دعوت للتخلى عنها تخليا كامـلا لسببين رئيسيين، فـقد كنا أولا بحاجة إلى سفن الإنزال لعمـلية السيد الأعلى، ثم هى ثانيا تضعف الجـبهة الإيطالية فى الوقت الذى نتقدم فيـه بخط كبير لبلوغ فينا قبل الروس.

وأخيرا حـصلنا على سفن الإنزال التى كنا نحتـاج إليها لعمليـة السيد الأعلى، بتأخير موعد غزو نورماندى من أول مايو إلى مطلع يونيو، وبتأخير عملية السندان حتى شـهر أغسطس، ولكن عـملية السندان جرت فى ١٥ أغـسطس، وكانت فى رأيى أحد أكبر الأخطاء الإستراتيجية فى الحرب.

وكان من نتيجة هذه العملية توسيع الجبهة توسيعا كبيرا ، وزيادة التباطؤ فى الجنوب، مما سبب فى النهاية خطأ إستراتيجيا آخر فى زحفنا نحو الحدود الألمانية.

وأقر «إيزنهاور» خطتنا المنقحة لعملية السيد الأعلى فى مؤتمر انعقد فى لندن فى ٢١ يناير ولكى يتمكن القارئ من أن يفهم فهما كاملا ما حدث فيما بعد فى نورماندى، أود خصوصا فى هذه المرحلة، أن ألفت الانتباه إلى الهيكل الأساسى للخطة، فيما يتعلق بتطور العمليات بعد أن نكون قد نزلنا إلى البر وثبتنا أقدامنا فيه.

لقد كنا ننوى الوثوب فى وقت واحد على رمال الساحل النورماندى الواقعة مباشرة شمالى مصب كارنتان، وبين هذه المنطقة ونهر الأورن، على أن يكون هدفنا تأمين قاعدة للعمليات المقبلة فى موقع يشمل ميادين الطيران ومرفأ شربورج، ويجب أن يشتمل الجناح الأيسر أو الشرقى لهذا الموقع على مركز الطرقات (كان).

وقد عهد إلى الجنرال «إيزنهاور» بقيادة جميع القوات البرية المخصصة لهذا الوثوب، فكان لدينا لهذا الغرض جيشان، الجيش الثانى البريطانى بقيادة «دمبسى»، والجيش الأول الأمريكى بقيادة «برادلى»، وبعدئذ تألف جيشان آخران، هما الجيش الأول الكندى بقيادة «كريرر»، والجيش الثالث الأمريكى بقيادة «باتون».

ومن المهم أن نعلم أن هدفى كان - بعد أن نثبت أقدامنا فى نورماندى- تهديد الجبهة الشرقية باختراق يحدث فيها- أى فى قطاع كان- وكان قصدى من القيام بهذا التهديد بلا هوادة أن أجذب إلى هذا القطاع قوات العدو الاحتياطية الرئيسية ولا سيما فرقه المدرعة، وأن أجمدها هناك مستخدما فى سبيل هذا الغرض القوات البريطانية والكندية الموضوعة تحت إمرة «دمبسى»، وكنت أنوى وقد أصبحت قوات العدو الرئيسية مشغولة على الجناح الشرقى أن أقوم باختراق على الجناح الغربى مستخدما فى هذه المهمة القوات الأمريكية التى هى بقيادة الجنرال «برادلى»، وهذا

الهجوم يجب أن يشن باتجاه الجنوب، ثم القيام بانحراف كبير نحو الشرق باتجاه السين وباريس، وكنت امل أن يكون محور هذا الدولاب الجبار فى (فاليز)، وهدفه عزل جميع قوات العدو فى جنوب السين الذى يفترض أن تدمر قواتنا الجوية جسوره الواقعة وراء باريس.

وفى ٧ أبريل، جمعت كل جنرالات الجيوش الأربعة فى مقرى العام بلندن وشرحت لهم خطتى فى خطوطها العريضة أولا ثم فى تفاصيلها، وكذلك شرح قائد البحرية الأعلى وقائد الجو الأعلى خططهما.

وفى منتصف مايو، كنت قد قمت بزيارة كل التشكيلات فى المملكة المتحدة، فرآنى جميع الضباط وجميع الجنود الذين سيشتركون فى غزو نورماندى، وسمعونى أخطب فيهم، لقد فتشت وفتشنى أيضا أكثر من مليون رجل.

فى أواخرمارس، كان كل شىء جاهزا لعملية السيد الأعلى، وكانت الجيوش تتحرك نحو مناطق الاحتشاد، واستغرقت هذه التحركات بعض الوقت، وحدد يوم الغزو فى الخامس من شهر يونيو ١٩٤٤، وانقضى كل شهر أبريل فى تمرينات بلغت الذروة بين ٣ و ٦ مايو بتمرين عام بالغ الأهمية.

وقد أجريت يومى ٧ و ٨ أبريل فى مقر قيادتى العام فى لندن تمرينا حضره جميع القواد العاملين لجيوش الإنزال، وكان هدفى أن أضعهم وأركان حربهم كليا فى جو عملية (السيد الأعلى) لجهة الخطة العامة والمسألة البحرية والنشاط الجوى، وقد استغرق هذا اليوم الأول، وفى ٨ أبريل درسنا المواقف التى يمكن أن تنشأ خلال العملية، سواء أثناء اقترابنا بطريق البحر أو بعد قيامنا بأول إنزال، وكان رئيس الوزراء حاضرا فى اليوم الأول وتحدث إلى كل الضباط المجتمعين.

وفى ٢٨ أبريل، نقل مقرى العام إلى (ساوثوك هاوس)، فى منطقة (بورتسموث)، حيث يجب أن يوجد مقرنا العام للعمليات فى يوم الغزو.

وفى أبريل كتبت آخر تعليمات تكتيكية وجـهتها إلى الجيشين اللذين سينزلان فى نورماندى، وفى خلال شهر مايو، جرت لى أحـاديث كثيرة مع «بيل وليامز» الذى كان قد أصبح برتبة لواء ورئيسا لمصلحة استخباراتى.

وكان «رومل» قـد تسلم فى فبـراير قيادة القطاع الســاحلى بين هولندا واللوار، وبعد وصوله أخذت عقبات من كل نوع تظهر على الشطآن، وأصبح أكيدا أنه ينوى مقاومة كل تغلغل، وأن هدفه هو مقاتلتنا على الشواطئ.

وكان «وليامـز» بارعا فى تصفيـة المعلومات التى نحصل عليهـا، وفى حذف ما ليس له منها إلا قيمة ضئيلة ، ثم تقديم صورة صادقة عن العدو إلىّ، وكانت وجهة نظره أن «رومل» سيـحاول دحـرنا على الشواطئ، وأن علينا أن نكون مـستـعدين لمقاومة عنيفة فى منطقـة بوكاج النورماندية إذ نحن زحفنا إلى الداخل، وإذا لم يوفق «رومل» فى إقصائنا عن الشواطىء، فسيحاول أن يحاصرنا فى منطقة بوكاج، وعلى هذا الأساس رسمت خططى.

وفى ١٥ مايو، قام المـقر العام الأعلى بتقديـم خططنا المشتركة للمـرة الأخيرة، وجـرى ذلك فى مدرسـة ســانت بول، وحضـر الاجتـمـاع الملك ورئيس الوزراء والجنرال سمطس ورؤساء أركان الحرب البريطانيون.

وجاء المـلك «جورج» بتناول طعـام الغذاء مـعى فى برومفـيلد هاوس، فى ٢٢ مايو، ليودعنى، وفى اليوم التالى كـان علىّ أن أذهب للمرة الأخيرة لزيارة الجيوش وألقى خطابا فى جـميع كـبار الضبـاط، ورفعت إلى الملك نـسخة من النقـاط التى وضعتها من أجل هذا الخطاب.

وعلى هذا انطلقت فى ٢٣ مايو فى هذه الرحلة الأخيرة- وكـما أشرت سابقا- كان يوم الغـزو قد تحدد فـى ٥ يونيو، وكان علىّ أن أعـود من رحلتى فى الوقت المناسب.

وكنت عازما على أن أخطب فى جميع الضبـاط من أعلى رتبة حتى رتبة ليوتنان كولونيل، وأن استعرض الاحتمالات الرئيسية للعملية الجبارة التى سنقوم بها.

وزرت منطقة كل جحفل وكل فرقة، وتكلمت أمام ما يتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ ضابط دفعة واحدة، وقد استمرت جولتى ثمانية أيام وكانت مضنية.

وابتـداء من أول يونيو، أخـذنا نقلق قلقـا جـديا من التنبؤات المتـعلقـة بالطقس وتقلبات الجـو، ولم يكن فى مطلع يونيو إلا أربعة أيام يمكن خـلالها القيام بعـملية السيد الأعلى للأسباب الآتية:

* لقد مـلأ العدو الشواطىء بكثـير من العـقبات والعـراقيل، ويجب أن نكون قادرين على الهجوم فى طقس جاف لا تحت الأمطار.
* يلزمنا على الأقل ثلاثون دقيقة لذلك.
* لتقـدير نتيجـة القصف الجوى والبـحرى، يلزمنا على الأقل ساعـة من ضوء النهار، وفى بعض الحالات نستطيع الاكـتفاء بأقل من ذلك، ولكننا لا نطلب المزيد إن كان هذا ممكنا.
* يلزمنا نحـو ثلاث سـاعـات من المد بعـد وصـول المراكب الأمـامـيـة إلى الشواطىء.

ولم تكن الشروط فى رأيى تتوفر فى يوم ٤ يونيو، فـهذا التاريخ لا يوفر لنا وقتا لتقدير أثر تفوقنا الجوى الكبير كل التقـدير، إنه يوفر لنا خمس دقائق فقط فى سبيل ذلك، إذ أن قصف سلاح الجو الملكى لا يمكن أن يبدأ قبل مرور عشر دقائق على الشروق.

وسيظهر لنا أن أفضل موعد هو يوم ٥ يونيو، وكان هذا التاريخ قد أختير موعدا ليوم الغـزو قبل عدة أشـهر، أما يوم ٦ يونيـو فكان يمكن قبوله تمامـا، وأما يوم ٧

يونيو، فلم يكن مناسبا لأنه يشتمل على ساعتين من ضوء النهار قبل الوصول إلى الشاطىء، ولكن يمكن أعتماده عند الضرورة، وبعد هذا التاريخ لا تتوفر أقرب فترة ممكنة للعملية قبل خمسة عشر يوما.

وفى مساء اليوم الثانى من يونيو، تناول «إيزنهاور» العشاء معى بهدوء فى برومفيلد هاوس، وبعد العشاء توجهنا إلى ساوثوك هاوس لنجتمع مع خبراء الرصد الجوى، وتقرر ابقاء موعد العملية فى ٥ يونيو دون تغيير.

وفى ٤ يونيو، اجتمعنا فى الساعة الرابعة صباحا فى ساوثوك هاوس، وكانت بعض القوافل قد أخذت سبيلها فى البحر استعدادا ليوم الغزو الذى سيكون فى ٥ يونيو، ولم تكن تقارير الرصد الجوى مشجعة، أما الأسطول فقد اعترف بأن عمليات الإنزال ستكون ممكنة لكن صعبة، ولم يشأ الأميرال «رمزى» أن يلزم نفسه بأى إلزام، وكنت أرى الإبقاء على الموعد المحدد، بينما كان «تدر» ممثل القيادة العليا يرى التأجيل.

وبعد أن قمنا بوزن جميع العوامل، قرر «إيزنهاور» تأجيل العملية أربعا وعشرين ساعة، على أن يكون يوم الغزو فى ٦ يونيو.

* * * *

الفصل الرابع عشر
معركة نورماندى
٦ يونيو - ١٩ أغسطس ١٩٤٤

لقد كـان هجومنا فى يوم الغزو مـفاجأة تكتيكيـة، إذ كان الطقس رديئا والبـحر هائجا، ولكن القوات أنزلت إلى البر فى أحوال حسنة وفى الأماكن المقررة، وتقدمنا ببطء وبعناد ووسعنا نطاق مواقعنا، وفى اليوم الأول بعد يوم الغزو تقدمنا من ٥ إلى ٦ أميـال نحو الداخل، وفى اليوم الرابـع بعد الغزو (١٠ يونيـو) كنا نحتل موقـعا متـصلا يبلغ طوله ٦٠ مـيلا ويتـراوح عمقـه بين ٨ و١٢ ميـلا، وكان هذا الموقع محميا من جانبنا بقوة أزالت كل قلق، ولقد أثار الموقف على شاطىء (أوماها) قلقنا الشـديد فى بداية العمليـة، ولكن تم تركيـزه بفضل شـجاعـة الجنود الأمريكيـين ومساندة مدافع البحرية وجرأة الطائرات القاذفة المطاردة.

وزارنى رئيس الوزراء والجنرال «سـمطس» فى نورمـاندى فى ١٢ يونيو، وكـان «تشرشل» فى حـالة رائعة، وكان هذه المرة مستـعدا للاعتراف بأننى أنـا السيد فى منطقة القتال، وأن عليه أن يفعل ما يقال له.

لقد كانت خطتى الرئيـسية التى وضعتـها فيما بعـد تختصر فى القيـام بعمليات هدفها جذب قوات العدو الرئيسية إلى جبهة الجيش الثانى البريطانى، أى إلى جناحنا الشرقى، لـكى يتاح لنا أن نربح أرضـا بصورة أيسـر فى الغرب، والقيـام بالزحف الأخير فى الجـناح الغربى مستخـدمين لهذا الغرض الجـيش الأول الأمريكى، وإذا تسارعت الأحـداث على الجناح الغربى، فـسيعـنى هذا أننا سنحقق فـيه مكاسب أرضية عاجلة.

أما على الجناح الشرقى، فى قطاع كان، فاكتساب الأرض أقل إلحاحا، فقد كان من الأفضل هناك إجبار العدو بمعارك شديدة على القذف بقواته الاحتياطية ليتاح للأمريكيين أن يغزوا دون مقاومة شديدة أرضاً هامة فى الغرب.

وكانت أهمية كان الاستراتيجية الكبرى، تشجع كثيرا على تنفيذ هذه الخطة الرئيسية، فهى عقدة طرقات وخطوط حديدية تمر بها الطرق الرئيسية المؤدية من الشرق ومن الجنوب الشرقى، إلى منطقة نقطة إرتكازنا، وبما أن معظم القوات الألمانية الاحتياطية المتحركة موجودة فى شمالى السين، فإن عليها أن تهاجم من الشرق رأس جسرنا، ولذلك عليها أن تتجه نحو كان، وفى الجنوب الشرقى بين كان وفاليز، كانت الأرض ملائمة للطيران.

وكنت مقتنعا بأن هجوما قويا مستمرا فى قطاع كان يتيح لنا أن نبلغ هدفنا، الذى هو جذب قوات العدو الاحتياطية إلى جناحنا الشرقى، فتلك كانت فكرتى الأساسية، وكانت منذ البداية فى أساس كل ترتيباتنا، وما أن نزلنا إلى البر وثبتنا أقدامنا فيه حتى شرعت فى وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ، وبعد معارك شديدة فى منطقة كان واكتساح شبه جزيرة كونانتان، أخذت هذه الاستراتيجية تتبلور.

ولم يكن هناك أى حافز يدفعنى إلى تعديل خطتى الأساسية، ولاشك أننا لم نتقيد بدقة بالمواقيت التى قدرناها لكى نأخذ بعين الاعتبار الترتيبات الإدارية، ولم نتردد كذلك فى أن نوفق بين خططنا وترتيباتنا وبين تطور الموقف التكتيكى، كما فى جميع المعارك، ولم أفكر لحظة فى أن أتصرف على خلاف ذلك، ولكن التصميم الأساسى بقى دون تغيير، وقد وضعت فيه كل آمالى وتشبثت به بحزم على الرغم من معارضة الجبناء المتزايدة، فنحن لم نستول مثلا على كان قبل ١٠ يوليو، ولم نطهر ضواحيها الشرقية قبل ٢٠ يوليو، وكانت نيتى الأولى أن نؤمن بأسرع وقت

ممكن المرتفعات الواقعة بين كان وفاليز، فهذه المنطقة كانت تبدو لى ملائمة لإنشاء ميادين طيران، ولكن لم يكن هذا جوهريا، وعندما وجدنا أن هذا التصميم لا يمكن أن يتحقق وفقا للخطة الأساسية دون أن يكلف خسائر باهظة ليس لها ما يبررها، لم ألق بنفسى فى هذه المغامرة، ولم يرق موقفى هذا لقائد سلاح الجو.

وكان التصميم الأساسى الاستراتيجى على الجناح الشرقى، وضع قوة مدرعة فى جنوب شرقى كان فى منطقة بورغيبو، مما لم يكن منه بد لإبقاء معظم المدرعات الألمانية على الجناح الشرقى ومساعدة التوسع الأمريكى بذلك نحو الغرب، ولم نزحف على هذه المرتفعات إلا عندما بدأ الجيش الثانى فى ١٨ يوليو عملية (غوروود) بالمدرعات، وما أن توقف تقدم المدرعات بفعل مقاومة العدو الشديدة وهطول الأمطار الغزيرة التى حولت المنطقة إلى بحر من الوحول، حتى قررت التخلى عن هذا الهجوم.

وفى ١٨ يوليو أعدت عملية كوبرا، وهى عملية الاختراق النهائى على الجبهة الأمريكية، ووافقت أنا على خطة هذه العملية.

وفى هذه الأثناء كان الجيش الأول الأمريكى قد وطد أقدامه فى موقع يستطيع منه أن يتهيأ للقيام بعملية الاختراق، وأملنا فى البدء أن نبدأ بالعملية من خط سان لوكوتانس ولكن جرى التخلى عن هذه الفكرة، وقرر برادلى أخيرا شن العملية من الخط الذى تؤلفه طريق سان لوبيريه، وكان هدفنا بلوغ هذا الخط فى اليوم الخامس بعد الغزو(١١ يونيو) ولكنه لم يتحقق إلا فى ٨ يوليو.

وفى أثناء هذه الفترة كلها كانت القوات البريطانية تواصل أداء دورها على الجناح الشرقى، فجمدت فى خلال معارك شديدة غير منقطعة معظم قوات العدو العاملة فى قطاع كان.

وكنت كلما ازداد التأخر على الجبهة الأمريكية، أصدر الأمر إلى القوات البريطانية بتقوية عملياتها، وما أشتكى «دمبسى» يوما من جراء ذلك.

ولقد حاول العدو أن يحصُرنا فى منطقـة بوكاج النورماندية على بعد يتراوح بين ١٥ و ٢٠ ميلا من منطقـة الهجوم، وتكلل هذا التكتيك لفـترة من الزمن بالنجاح، ولكنه لم يكن لينجح إلا إذا اسـتدعى العدو باسـتمرار قواته الاحـتياطيـة لكى يسد الفجوات فى خطوطه الدفـاعية بخسائر جسيمة فى الرجال والعتـاد، وقوات العدو الاحتـياطية هذه حـالت بيننا وبين تحقـيق أى كسب ملموس شـرقى (كان) وجنوب شرقـيهـا، ولكنهـا إذا كانت تفـعل ذلك لم تعد فى مـتناول القيـادة الألمانية لـصد الاندفاعات على الجناح الغربى، لقـد كانت، باختصار، مشتبكة فى الـقتال، وكما جرى فى العلمين، أجبرنا العدو على القذف بقواته الأحـتياطية على جبهة واسعة، وكنا مـستعدين الآن لأن نقذف بقواتـنا الاحتياطية علـى جبهة ضيـقة فنربح بذلك المعركة.

وكان يتحتم البدء بعمليـة (كوبرا) فى ٢٠ يوليو، وهو اليوم الذى أصدرت الأمر فيـه بإنهاء عملية (غـور وود) على الجناح الشرقى باتجاه كـان، ولكن الطقس أخرنا مرة أخـرى، ولم نشرع فى عـملية (كـوبرا) إلا فى ٢٥ يوليو، وكـنت مقتنـعا بأن مضاعفات خطيرة ستحصل على طول جبهة العدو عندما يقوى الهجوم الأمريكى، فـسينكفىء خـط العدو إلى الوراء، ويحـاول الألمان إقـامة جـبهـتـهم على بعض التحصينات القوية، وكان هناك فى رأيى ثلاثة مواضع لإقامة مثل هذه الجبهة:

أولاً: فى كومون.

ثانياً: على نهر الأورن.

ثالثاً: على المرتفعات الواقعة بين كان، وفاليز.

وعزمت بناء على ذلك أن أنسف المفـاصل التى كنت مقتنعا بأن العدو سـيحاول أن يدير حولها جناحه الأيسر، فأعطيت الأوامـر المقتضاه، وأخذ الجيش الثانى على الفور يعـيد تجمـعه وينقل ثقله من طرفه الأيـسر فى جنوبى شرقى كـان إلى طرفه

الأيمن فى كومون، وكـان هذا التحرك عملا كبـيرا وقد نفذه الجيش الثـانى تنفيذا رائعا. وكان يفترض أن تقوم بالهجوم على كومون- عملية الشرطى- ست فرق فى ٢ أغسطس،ولكن بسـبب السرعة غيـر المتوقعة التى سـار فيها التقـدم الأمريكى، قدمت الموعد إلى ٣٠ يوليو بالاتفاق مع دمبسى.

وفى ١١ أغسطس، عنـدما كانت مـعركة نورمـاندى قد قاربـت نهايتهـا، كان مجموع الخسـائر كما يلى:

من البريطانيين والكنديين	٦٨٠٠٠.
من الأمريكيين	١٠٢٠٠٠.

وكان لدينا آنذاك فى فرنسا ٣٧ فرقة موزعة كما يلى:

مجموعة الجيوش الثانية عشرة (أمريكية)	٢١ فرقة.
مجموعة الجيوش الحادية والعشرين (بريطانية)	١٦ فرقة.

ويمكن القول إن مـعركة نورماندى انتهت فى ١٩ أغـسطس، إذ فى ذلك اليوم تخلصنا نهـائيا مما كـان قد بقى من قـوات العدو المطوقـة فى الجيب الواقع شـرقى مورتان، وكان الانتصار نهائيا، كاملا، حاسما.

ولقد بلغت خسائر العدو فى معركة نورماندى كالتالى:

قواد جيوش، قواد جحافل، قواد فرق، قتلوا أو أسروا:	٢٠.
قائدا جيشين جرحا (روميل وهاوسر):	٢.
قائدان عامان أبدلا (فون رونشتد، وفون كلوجه):	٢.
فرق أبديت:	٤٠.
خسائر العدو فى الرجال:	٣٠٠ ألف رجل.
مدافع دمرت أو استولينا عليها:	٣٠٠٠.
دبابات دمرت:	١٠٠٠.

الفصل الخامس عشر
استراتيجية الحلفاء فى شمال السين

فى منتصف شهر أغسطس ١٩٤٤ كان موقف الألمان فى فرنسا يدعو إلى اليأس، وقد سقطت باريس فى ٢٥ أغسطس، وفى اليوم التالى تضمنت نشرة المعلومات التى يصدرها المقر العام الأعلى العبارة التالية:

انتهى شهران ونصف من المعارك القاسية بحمام دم بالنسبة للألمان، وأصبحت نهاية الحرب فى أوروبا وشيكة، وتكاد تكون فى متناول اليد، لقد تحطمت قوة الجيوش الألمانية فى الغرب، واستعادت فرنسا باريس، وتتقدم جيوش الحلفاء تقدما لا تقف فى سبيله أية مقاومة نحو حدود ألمانيا.

وبعد قليل أصدر المقر العام الأعلى تعليمات تتعلق بالعمليات، بدأت بهذه الكلمات: فى جميع أنحاء الجبهة تبدو علامات الانهيار على مقاومة العدو، ومعظم قوات العدو الباقية- وهى تقدر بما يساوى فرقتى بانزر ضعيفتين وتسع فرق مشاة - موجودة فى شمال غربى الأردين، ولكنها فقدت نظامها، وهى فى تراجع كامل وتبدو عاجزة عن إبداء أية مقاومة ذات قيمة، وفى جنوبى الأردين تقدر قوات العدو بما يساوى فرقتى بانزر منتخبتين، وأربع فرق مشاة ضعيفة، وهناك قوة خليطة مختلفة العناصر تنكفىء فى جنوب غربى فرنسا، وقد يبلغ عددها حوالى مائة ألف رجل، ولكن قيمتها القتالية يمكن أن تقدر بما يساوى فرقة واحدة، وهناك ما يساوى نصف فرقة بانزر وفرقتى مشاة تتجه نحو الشمال بطريق وادى الرون، والطريقة الوحيدة التى يتمكن بها العدو من أن يعرقل دخولنا ألمانيا هى تعزيز جيوشه المتراجعه بفرق تأتى من الداخل ومن جهات أخرى لتحتل قطاعات هامة

من خط سيجـفريد، ومن المشكوك فيه أن يتمكن الـعدو من فعل ذلك في الوقت المناسب وبقوة كافية.

وكانت خطتي جاهزة، وقبل أن تنتهي العمليـات الأخيرة في معركة نورماندي، قررت الـتوجه لـرؤية «برادلي» ومحـاولة نيل موافـقتـه على هذه الخطة، وفي ١٧ أغـسطس كان مـقرى العـام التكتـيكي في لوبيني بوكـاج، فأخـذت الطائرة لأزور «برادلي» الذي كان مقره العام في شمالي فوجير، وقدمت الخطوط الأخيرة لخطتي، وهي الآتية:

١ - بعد أن تجتاز السـين، يجب على مجموعتي الجيوش الثانيـة عشرة والحادية والعشرين أن تشكلا معا كتلة منسجمة من نحو ٤٠ فرقة إلى درجة تجعلها لا تخشى من العـدو شيـئا، وهذه القوة عليـها أن تتـحرك باتجاه الشـمال الشرقي.

٢ - تطهر مجـموعة الجيـوش الحادية والعشرين، على الجناح الغـربي، ساحل المانش، والبادي كـاليه، والفلاندر الغـربية، وتستـولي على أنفرس وجنوب هولندا.

٣ - تؤلف مجـموعـة الجيوش الثـانية عـشرة الجناح الشرقي للتـحرك، وتسـير بجناحها الأيمن نحو الأردين، باتجاه اكس لا شابيل، وكولوني.

٤ - تكون باريس محور مجـمل الحركة، وتتمركز قوة أمريكية كـبيرة في منطقة أورليان، تروي، شالون، ريمس ، لون، على أن يمتد جناحها الأيمن على طول نهر اللوار حتى نانت.

٥ - تتجـه قوات عمليـة التنين القادمة من جنـوبي فرنسا نحـو نانسي والـسار، ويجب علينا ألا نحـاول الانضمـام إليهـا بميمنتنا، إذ أن هذا يخل بـتوازن استراتيجيتنا.

٦ - هدف الحركة الأساسى هو إقامة طيران قوى فى بلجيكا، وإنشاء رؤوس جسور فيما وراء الراين قبل بدء الشتاء، والاستيلاء بسرعة على الروهر، وبعبارة أبسط: هى خطة شليفن الألمانية فى عام ١٩١٤ معكوسة، مع فرق هام هو أنها ستنفذ ضد عدو مزعزع فقد نظامه، ويتوقف نجاحها على حشد القوات الحليفة، وبالتالى على المحافظة على وسائل العمل على الجناح الأيسر.

وقد أعلن «برادلى» أنه موافق كل الموافقة على الخطوط الكبرى لهذه الخطة.

وفى ٢٠ أغسطس عقد «إيزنهاور» اجتماعا لاركان الحرب فى مقره العام الأمامى فى نورماندى لأخذ الأفكار بشأن سير الحرب المقبل، وكان رئيس أركان حربى حاضرا هذا الاجتماع الذى اتخذت فيه مقررات هى باختصار:

أ - تعديل نظام القيادة فى أول سبتمبر، بحيث يتولى «إيزنهاور» شخصيا قيادة مجموعة الجيوش.

ب - تتوجه مجموعة الجيوش الثانية عشرة نحو متز، والسار حيث تنضم إلى قوات عملية التنين، ولم أوافق على القرارات المتخذة، فكلفت «دى غوينغواند» أن يعود «فيرى إيزنهاور»، وسلمته بعض الملاحظات بالموضوع ليحملها إليه، وقد قضى فى ٢٢ أغسطس ساعتين مع «إيزنهاور» محاولا جعله يوافق على بعض النقاط المبدئية، وقد أعطى« إيزنهاور» الملاحظات التى دونتها قائلا له: إن «برادلى» وافق كل الموافقة فى ١٧ أغسطس على الخطة التى اقترحتها، وهذه هى ملاحظاتى:

١ - أن أسرع سبيل لإنهاء هذه الحرب إنهاء مظفرا هى جعل كتلة الجيوش الحليفة تتقدم باتجاه الشمال، وتطهير الساحل حتى أنفرس، وإقامة طيران قوى فى بلجيكا، والتغلغل فى الروهر.

٢ - يجب أن تعمل قواتنا ككل وبانسجام كبير، ويجب أن تكون من القوة بحيث تقوم بمهمتها بسرعة.

٣ - إنه لضرورى أن يكون هناك إشراف واحد على العمليات البرية وإدارة واحدة لها لتأمين النجاح، وهذه مهمة كافية للاستئثار بنشاط رجل واحد.

٤ - لقد أمكن إحراز الانتصار الكبير فى شمالى غربى فرنسا بفضل القيادة الشخصية، وعلى هذا النحو فقط ستربح المعارك المقبلة، وإذا سمحنا بتسلل إشراف أركان الحرب فسرعان ما سيتعرض نجاحنا للخطر.

٥ - إن تعديل نظام القيادة فى وقت إحرازنا فيه مؤخرا انتصاراً كبيرا ، يعنى إطالة أمد الحرب.

وحصل «دى غوينغواند» إلى النتيجة السلبية لحديثه مع «إيزنهاور» فعزمت على أن أراه بنفسى، فدعوته للمجئ لتناول طعام الغذاء معى فى اليوم التالى- فى ٢٣ أغسطس- فى مقرى العام التكتيكى فى كونديه سورنوارو، فقبل دعوتى بسرور.

وكنت راغبا فى التحدث مرة أخرى مع «برادلى» قبل مقابلة «إيزنهاور»، وكان قد نقل مقره العام إلى لافال، فتوجهت إلى هناك بالطائرة فى ساعة مبكرة من صباح ٢٣ أغسطس، ولكم كانت دهشتى عندما اكتشفت أن «برادلى» غير رأيه، وعدت إلى مقرى العام فى الوقت اللازم لاستقبال «إيزنهاور» الذى اصطحب معه «بيدل سمث»، وكانت هذه هى المرة الأولى اتى ألتقى فيها «بيدل سمث» منذ تركته فى إنجلترا فى ليل ٦ يونيو.

وسألت «إيزنهاور»: هل أستطيع أن أتحدث إليه على انفراد؟، ووافق «إيزنهاور»، فتحدثنا وحدنا مدة ساعة شرحت له خلالها وجهة نظرى حول ضرورة وضع خطة بناءة سليمة على الفور، وقلت له إن عليه أن يقرر أين يجب أن يتركز

الجهد الرئيسى، وإن علينا أن نكون من القوة فى هذا الظرف بحيث نكون متأكدين من الحصول على نتائج حاسمة بسـرعة، وأعطيته نظرة عامة عن الوضع الإدارى، مظهراً أن خطوط مواصلاتنا ستصبح قـريبا ممتدة جدا، وأن علينا أن نحشد مواردنا من البترول والذخائر وراء خط الإندفاعة ذاك، أما إذا وزعناها بالتساوى على طول الجبهة فلن نستطيع أن نحرز نجاحا حـاسما، وعرضت له بعدئذ خطتى الخاصة التى كانت قد نالت فى البداية موافقة «برادلى».

ورسمت لايزنهاور تفاصيل الخطة على الخريطة، مـدللا على أن لها آمالا كبيرة فى النجاح، ولفت نظره إلـى أنه إن اعتمد اسـتراتيجـية الجبهـة الواسعة بأن تتـقدم القوات على طول الخط وتقاتل كل وحدة من الواحـدات طول الوقت، فإن التقدم سيتوقف حتما فى وقت من الأوقـات، فيتنفس الألمان عندئذ الصعداء وتمتد الحرب خلال الشتاء، وحتى فى عام ١٩٤٥.

وأضفت أن عـلى «إيزنهاور» بوصـفه القائـد الأعلى ألا ينزل عن رتبتـه فيـتولى شخصيـا قيادة المعركة البرية، فـالقائد الأعلى يجب أن يكون قادرا على أن تكون له نظرة شاملة للمشكلة المعقدة التى تتفرع إلى مشاكل برية وجوية ومدنية وسياسية.

إن قائدا آخر يجب أن يتولى هو قيادة المعـركة البرية، ولقد أحرزنا فى نورماندى إنتـصـارا كبـيـرا بفـضل عـملنا الموحـد، لا بالرغم من العـمل الموحـد، وقلت «لإيزنهاور»: إن هذه النقطة هى من الأهمية بحيث إنه إذا شاء أن يراعى الرأى العام الأمريكى فهـو يستطيع أن يوكل إلى «برادلى» قيادة المعـركة، وأنا مستعـد للخدمة تحت إمـرته بطيب خـاطر، وقد أحـدث هذا الاقـتراح لدى «إيـزنهاور» رد فـعل سريع، وأكد أنه لم تكن لديه فى أى يوم من الأيام مثل هذه النية.

وأثناء حديثنا وافق «إيزنهـاور» على أن مجموعـة الجيوش الحادية والعـشرين لم تكن قوية قوة كـافية لأن تقوم وحـدها دون مساندة بالمهمات التى يـقتضيهـا القيام

بزحف فى الشمال، وأقر بأن كل العــون الأمريكى الضرورى يجب أن يقدم ، وأن تنسيق الإندفاعة فى الشــمال والقيادة العامة لعملياتها يجــب أن يمارسها قائدا أعلى واحد أى أن أمارسها أنا شخصيا.

وقلت: إننى أرغب فى أن يتقدم جيش أمريكى لا يقل عن ١٢ فرقة على الجناح الأيمن لمجموعــة الجيوش الحادية والعشرين، فـأجاب أن مجموعة الجيــوش الثانية عشرة لن يبــقى لها فى هذه الحالة إلا جيش واحد، وأن الرأى العــام الأمريكى قد يحتج، فــسألته: لمــاذا يحملنا الرأى العام على اتخــاذ قرارات هى فى نهــاية الأمر قرارات خاطئة؟ ووافقت على أننى ربما ذهبت بعيدا بعض الشىء فى إصرارى على أن يتبنى خطتى، ولم أراع مراعاة كافية للعبء السياسى الذى يثقل كاهله، ذلك أن تبنى «إيزنهاور» لخطتى كــان يقتضــيه أن يوقف «باتون»، والجيش الثــالث الأمريكى، ولكن حججى لم يكن لها تأثيــر، فقد صار تبنى استراتيجية الجبــهة الواسعة، وكان على مجموعة الجيوش الثانية عشــرة وهى تقوم باندفاعة إلى الأمام لمساندة مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، أن توجه جهدها الرئيسيى باتجاه متز، والــسار، وفوضت بأن أوجد تنسيقا لــلعمليات بين مجموعة الجيوش الحــادية والعشرين والجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الثانية عشرة، وقد حذفت كلمة تنسيق العمليات من التوجيهات.

ومع ذلك فإن توجيهات أعطاها «إيزنهــاور» فيما بعد، أى بعد أن تسلم فى أول سبتمبر القيادة المباشرة للقــوات البرية، تنص على: أن على مجموعة الجيوش الثانية عشــرة أن تتأكد من أن قــواتها العاملة على مــيمنتى ضد الروهر مــدعومة دعــما ملائما من الناحية اللوجــستية، وهكذا كنا جميعا مستعــدين لاجتياز السين وسلوك طرقنا المختــلفة، وكان التــفاؤل متتــشرا، والقائد الأعلى يحض كــل فرد على طول الجبهة كلهــا، فالجميع يجب أن يقاتلوا كل الوقت، ولكن المزعج كــان أننا نفتقر إلى خطة أساسية تعالج العملية كوحدة تامة، فقد كانت استراتيجيتنا آيلة إلى التفكك.

وكنت مصمما على أن ألعب دورى كليا، فتظهر القوات البريطانية - حين يأتى وقت معركة التحرك- أنهالا تتأخر فى شىء عن الجيوش الأخرى، ولكن كان عندى قلق كبير، فكل خبرتى العسكرية تقول لى إن هذا القلق يستند إلى أساس، وأن علينا أن نتوقع حملة شتاء طويلة الأمد بكل ما يعنيه هذا بالنسبة للشعب البريطانى.

وكنت كلما فكرت فيما نحن فاعلون إزداد اقتناعى بأنه خطأ، فالاقتصاد واليد العاملة البريطانيان كانا بحاجة إلى النصر فى عام ١٩٤٤، لا بعد هذا العام، والحرب ترهق كاهل جمهور الشعب البريطانى، فمن الضرورى أن تنتهى بسرعة، وهذه الضرورة تختلف عن الضرورة الأمريكية، إنه اختلاف فى درجة الإلحاح، واختلاف أيضا فى المبدأ وهذا ما لم يكن يفهمه الجنرالات الأمريكيون، فالحرب لم تنتقل يوما إلى داخل بلادهم، فلماذا يتحتم علينا أن نكون ضحية الرأى العام الأمريكى وانتخابات الرئاسة الأمريكية؟

إن الأستراتيجية التى نعتمدها الآن تعنى خسائر أكبر فى القتلى والجرحى، ولن يكون انتشار الجيوش على جبهة واسعة لأسباب تتعلق بالسلامة، فجناحنا الجنوبى كان فى نجوة كلية، وكان يمكن حمايته بفضل تفوقنا الجوى وحده مع مساندة عسكرية ضئيلة، وإن لم تحقق عملية التنين شيئاً فإنها حققت هذا على الأقل.

ولم يكن هناك أية مجازفة حقيقية فى فعل ما اقترحته، وكانت خطتى تقدم الامكانية الوحيدة لإنهاء الحرب بسرعة.

وأخذت أعلم بواسطة ضابط اتصالى لدى مقر الجنرال «برادلى» العام، أن القوات الأمريكية على ميمنتى ليس لها أية أفضلية فيما يتعلق بتموين القوات، فخطة «إيزنهاور» القاضية بالقيام بزحفين، أحدهما نحو الروهر، والآخر نحو السار، تعنى أن كل شىء يجب أن يقسم الجيش البرى والطيران وتموين القوات ووسائل النقل والعتاد المتحرك، لقد قذفنا إلى البحر بمبدأ حشد الجهود وتركيزها.

وكان مقر« إيزنهاور» العام فى غرانفيل على الجانب الغربى من شبه جزيرة كوتانتان وربما كان هذا المكان ملائما لقيادة عليا، ولكن لم يكن ملائماً إطلاقا لقيادة قوة برية، وهى القيادة التى يجب أن تراقب باستمرار نبض جيوشها وتتخذ قرارات سريعة إزاء أوضاع تتعدل بسرعة، فقد كان المقر يوجد على بعد أكثر من ٤٠٠ ميل وراء جبهة القتال، أضف إلى ذلك أن «إيزنهاور» كان يلزم الفراش لمرض فى ركبته، ولم تكن هناك خطوط هاتفية، ولا حتى تليفون لاسلكى يصل مقره العام بى ولابيرادلى، وفى مطلع سبتمبر لم يكن لايزنهاور- بمقدار ما أعلم- أى اتصال بالمعركة البرية.

وقررت أن أخاطب «إيزنهاور» مرة أخرى متابعا مساعىّ لاعتماد خطة مقبولة فأرسلت إليه بالرسالة الآتية فى ٤ سبتمبر، وهو اليوم الذى استولينا فيه على أنفرس ولوفان:

أود أن أعرض لكم بعض وجوه العمليات المقبلة، وأن أقدم لكم رأيى فيها:

١ - إننى أرى أننا قد بلغنا الآن مرحلة يمكن فيها لزحف قوى فعلا باتجاه برلين أن يقودنا إلى إنهاء الحرب على هذا النحو مع ألمانيا.

٢ - ليست لدينا موارد كافية للقيام بزحفين قويين.

٣ - لذلك فالزحف المختار يجب أن توفر له كل الموارد التى يحتاج إليها دون أى تأخير، وعلى القوات المكلفة بأية عملية أخرى أن تبذل أقصى جهدها بما يتبقى.

٤ - فى رأيى أن الزحف الذى يمكن أن يعطى أحسن النتائج وأسرعها هو الذى يجرى باتجاه الشمال بطريق الروهر.

٥ - إن عامل الوقت عامل أساسى، ويجب أن يتخذ القرار المتعلق باختيار الزحف الأفضل بسرعة، وأن يطبق مضمون الفقرة الثالثة من هذه الرسالة.

٦ - إذا نحن اعتمدنا حلا له طابع التسوية، وقسمنا مواردنا بصورة لا تجعل أى واحد من الزحفين قويا، فإننا نطيل أجل الحرب.

٧ - إننى أرى أن القضية كما تتجلى فوق هى قضية بسيطة وواضحة والمسألة هى من الأهمية الحيوية على مقدار يجعلنى مقتنعا بأنكم ستكونون من أصحاب الرأى القائل بأن اتخاذ قرار مطابق لما سبق يجب أن يتم دون تأخير، وإذا مررتم بمقرى العام قد ترغبون فى بحث الموضوع ومناقشته، وفى هذه الحال يسرنى أن أجتمع بكم غدا على الغذاء، ولا أعتقد أننى أستطيع أن أترك المعركة فى الوقت الحاضر والواقع أن الوقت كاد يكون قد فات، فقد بدأ الزحف نحو السار، وتلقى «باتون» كل ما يلزمه لتقدمه نحو متز، وإلى يمينى كان على الجيش الأول الأمريكى أن يغطى تقدم «باتون»، ولم يكن قادرا على أن يساند فى الوقت نفسه عملياتى كما تلقى الأمر بذلك ،ولكن ربما لا يزال هناك وقت لإنقاذ شىء من السفينة الغارقة إذا استطعنا الوصول إلى قرار سريع.

وقد تلقى« أيزنهاور» رسالتى فى ٥ سبتمبر، فأجابنى فى الساعة ١٩,٤٥ من اليوم نفسه، وكانت الاتصالات مع مقره العام فى غرانفيل على جانب من سوء التنظيم، حتى أن جوابه وصلنى على دفعتين، ووصلت الفقرتان ٣ و ٤ من هذا الجواب أولا فى الساعة التاسعة من صباح يوم ٧ سبتمبر، ثم وصلتنى الفقرتان ١ و ٢ الساعة ١٠,١٥ قبل ظهر يوم ٩ سبتمبر.

وهذه هى رسالة «إيزنهاور» الكاملة كما أعدت ترتيبها بعد وصول أجزائها:

١ - مع موافقتى على فكرتك القائلة بوجوب القيام بزحف قوى باتجاه برلين، إلا أننى لست مع الرأى القائل أن هذا الزحف يجب أن ينفذ على أساس استبعاد كل العمليات الأخرى.

٢ - إن معظم الجيش الألمانى الذى كان فى الغرب قد دمر الآن، وعلينا أن نستغل على الفور نجاحنا بفتح ثغرة فى خط سيجفريد، مجتازين الراين على جبهة واسعة، وبالاستيلاء على السار وعلى الروهر، وأنا أنوى أن أفعل ذلك بأسرع ما يمكن ، فهذا سيتيح لنا أن نمسك بخناق منطقتين من أهم مناطق ألمانيا الصناعية، فنجعلها عاجزة عن مواصلة الحرب مهما حدث، وسيساعدنا هذا على قطع خط الرجعة على قوات العدو المنسحبة الآن من جنوب فرنسا، وهكذا ستكون لنا حرية العمل للضرب فى أى اتجاه من الاتجاهات، وسنجبر العدو على أن ينشر على مسافة واسعة القوات التى قد يجمعها لدفاعه.

٣ - سنفتح أثناء تقدمنا مرفأى الهافر و أنفرس، الأساسيين لدعم الزحف القوى نحو قلب ألمانيا ،فأية إعادة لتوزيع مواردنا الحالية لن تكون كافية من أجل دعم الزحف بإتجاه برلين.

٤ - وبمقتضى ذلك تتجه نيتى إلى احتلال السار والروهر أولا، وعندما يتم هذا يصبح مرفأ الهافر ومرفأ أنفرس قادرين على دعم الزحفين اللذين تشير إليهما أو أحدهما، ومن هذه الناحية أعطيت دائما ولا أزال أعطى الأفضلية للروهر ولطريق الشمال، كما تشير إلى ذلك توجيهاتى أمس، وهى التى صادف وقتها وقت برقيتكم، إن القاطرات الحديدية والعتاد المتحرك هى الآن مخصصة- على أساس هذه الأفضلية - لدعم قوتكم المندفعة إلى الأمام، وقوة «برادلى» فى شمال غربى الأردين، فتفضلوا بإعلامى منذ الآن بحاجاتكم للتقدم.

وفى هذه الأثناء، تحدثت مع «برادلى» عن الوضع الخطر الذى تعانيه لوجستيتنا، واتفقنا على أنه يتحتم التخلى عن مشروعنا القاضى بإلقاء قوات محملة جوا لدعم

التقدم، كما يتحتم استخدام جميع الطائرات المتوفرة من أجل نقلياتنا، ولم يكن فى هذا تضحيـة كبيرة لأن سرعة تقـدمنا منذ أن اجتزنا السين بلغت حدا لم نعـد معه بحاجة إلى المظليين لمساعدتنا.

منذ أن كسـبنا معركـة نورماندى، تركزت عـيناى باستمـرار على الراين وعلى الروهر، وكنت أعلم أننا سنحتاج إلى جميع القـوات المحملة جوا لنتمكن من عبور الموز والراين ، وقد خصص لى الجحفل الحليف الأول المحمل جوا.

وفى ٣ سبتمبر- وهو اليـوم الذى حررنا فيه بروكسل- طلبت إلى قائدها الجنرال «براونتج»، أن يأتى ليرانى كى نتفق علـى الخط العام للزحف باتجاه الراين، وأنسب المناطق لإلقاء الفرق المحملة جوا.

وفى ٩ سبتمبر، أنبئت من لندن أن الصواريخ الأولى من طراز (ف ٢) وجهت ضـد إنجلتـرا فى الأيام السابقـة، وكـان يشك فى أنهـا قادمـة من جـوار روتردام وأمستردام، وسئلت مـتى أستطيع أن أطوق هذه المناطق؟ أما أنا فكنت أرى أن هذا من شأنه أن يقرر إتجاه زحفى وعمليات اجتيازى للموز، والراين، وأما نقطة الاتجاه فيـجب أن تكون أرنهم، وكنت أعلم أن وضع تموينا هو العـامل الذى يحد من أى قرار يمكن أن يتـخذ ،وتلبـية للطلب الذى وجهـته إلى «إيزنهـاور» قبل ثلاثة أيام، وصل إلى بروكسل بالطائرة بعد ظهـر ١٠ سبتمبر، وكان يـرافقه «تدر»، وجرى لنا حـديث طويل فى طائرة «إيزنهاور»، إذ لم يـستطع أن ينزل منهـا لأنه كان مـا يزال يعرج. وعرضت له موقـفى بالتفصيل، فحدثته عـن الصواريخ التى أخذت تضرب إنجلترا وعن المنطقة التى تنطلق منها، فقـال لى: إنه كان ينوى دائما إعطاء الأفضلية للزحف نحو الروهر والتقدم بطريق الشمال، وأن الأمـر قد وقع الآن، فأجبته: إن شيئا لم يقع بعـد، فأوضح إنه لا يقصد بقوله: (أفضليـة)، الأفضلية المطلقة وأنه لا يستطيع بأيـة حال من الأحوال تخـفيف الزحف نحو السـار، فقلت له: إن مقـاومة

العدو ستشتد على خط قناة ألبرت، وأن استهلاكنا للبترول والذخائر سيزداد، وأننا ستتجاوز حدود تموينتنا، وأصبح واضحا أننى لن أتمكن من شن العملية على نطاق كبير باتجاه أرنهم باكرا كما كنت أرجو، مما سيعطى للعدو وقتا يستجمع فيه قواه.

ومنذ أن اجتزنا السين انتقل مقرى العام إلى الشمال، ومقر «برادلى» العام إلى الشرق، وأصبحت المعركة البرية منتظمة وغير منتظمة فقلت إنه ما دامت المعركة مستمرة بزحفين وبتموين موزع بينهما فلن نصل إلى شىء، وأوضحت أن أنفرس وضواحى المرفأ التى لم نبلغها بعد تقع وراء الزحف على ذاك الجناح الأيسر الذى دعوت إلى إقامته فى ٢٣ أغسطس، وكان هناك خطتان ممكنتان: خطة «برادلى»، وخطتى، وكان من الضرورى دعم إحدى الخطتين، أما إذا أردنا دعم الخطتين معا فلن نستطيع الوصول سريعا إلى نتائج حاسمة، وأن أسرع سبيل لتطهير مرفأ أنفرس هو مساندة خطتى القاضية بإجراء حشد على الميسرة، وهى الخطة التى لا تعزز فقط وضعنا اللوجستى ووضع تموينتنا، بل تبقى على الضغط الحاصل على الألمان الذين تنهال عليهم الضربات فى منطقة ذات أهمية بالغة، فتساهم بذلك فى إنهاء الحرب بسرعة.

وكان واضحا أن «إيزنهاور» لا يوافق على تحليلى للموقف، فقد كان يكرر أن علينا أولا أن نعبر الراين، وأن نعبره على جبهة واسعة، وعندئذ وعندئذ فقط، يمكننا أن نركز احتشاداتنا للقيام بزحف واحد، لكن «إيزنهاور» وافق على أن تقوم مجموعة الجيوش الواحدة والعشرين بزحف نحو أرنهم، وأقر بأن القيام بعمليات تتكلل بالنجاح فى هذا الاتجاه يساعد كثيرا على القيام بعمل مقبل.

وفى اليوم التالى ١١ سبتمبر، بعثت إلى «إيزنهاور» بالرسالة الآتية:

«لقد درست بعناية وضع تموينتنا منذ التقائنا أمس، إن قراركم القاضى بألا تكون للزحف باتجاه الشمال نحو الروهر الأفضلية على العمليات الأخرى ستكون له

مضاعفات يجب أن تعرفوها، إن العمليات واسعة النطاق - عمليات الجيش الثانى والجحفل المحمل جوا فى الشمال بإتجاه الموز والراين - لا يمكن الآن أن تجرى قبل ٢٣ سبتمبر، كأقرب موعد، وربما لا يمكن أن تجرى قبل ٢٦ سبتمبر.

إن هذا التأخير سيعطى العدو وقتا لاتخاذ ترتيبات دفاعية أفضل، وعلينا أن نتوقع مقاومة أشد وتقدما أبطأ، وبما أن الشتاء يقترب، فمن المحتمل أن يسوء الطقس وأن تتضاءل النتائج التى سيؤمنها لنا تفوقنا الجوى من الآن فصاعدا.

إن عملياتنا تتوقف إلى حد كبير على النقليات بالسكك الحديدية، وبالطرق البرية، والنقليات الجوية، فإذا لم تحشد كل هذه النقليات لتوفير الإندفاع لواحد من الزحفين المختارين، فإن أيا من هذين لن يتقدم بعيدا، ذلك أننا جميعا بعيدون عن قواعد تموينا، وأننا سنبذل قصارى جهدنا للقيام بمهمتنا، ولكن الحقائق سالفة الذكر تظهر لكم أنه إذا استمرت مقاومة العدو فى الاشتداد - كما هى الحال الآن - فلن يمكننا أن نتوقع نتائج هامة مادمنا لم نستكمل من جديد مخزوننا من الذخائر وسواها من المؤن.

وقد أحدثت هذه الرسالة رد فعل شبه كهربائى، فجاء «بيدل سمث» يرانى فى اليوم التالى ليقول لى: إن «إيزنهاور» قرر العمل على النحو الذى أوصيت به، وسيتوقف الزحف نحو السار، وستلجم ثلاث فرق أمريكية مع وسائل النقل التى تستعملها؟ وذلك لتوفير تموين إضافى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وسيعطى معظم الدعم اللوجستى المخصص لمجموعة الجيوش الثانية عشرة إلى الجيش الأول الأمريكى على ميمنتى، وسأخول التعامل مباشرة مع الجنرال «هودجز» القائد العام للجيش الأول الأمريكى.

فأعدت النظر فى خططى مع «دمبسى»، وحددت يوم الأحد ١٧ سبتمبر موعدا لعملية الزحف على أرنهم.

وبعد ظهـر يوم ٢٢ سبتمبـر، عقد «إيزنهاور» مـؤتمرا فى مقره العـام بفرساى، لتقرير الخطة التى ستـعتمد لتسيير الحـرب فى مقبل الأيام، وفى ذلك اليوم لم يكن الموقف حـسنا فى أرنهم، وإلى الجنوب قطع الألمان الممـر واسـتقـروا على الطريق الرئيسى بين فيخل وغرايف جنوبى نيميج، وقررت أننى لا استطيع ترك جبهة القتال وكلفت «دى غوينغواند» بتمثيلى فى هذا المؤتمر.

وأثناء الليل، أرسل لى «دى غوينغواند» من فرساى رسالة تقول:

إن «إيزنهـاور» دافع عن خطتى مـائة بالمائة، وأن الإندفاعـة الشـماليـة يجب أن تشكل المجهود الرئيسى وتحظى بالمساندة الكاملة، وقد تلقيت هذه الرسالة قبل ظهر ٢٣ سبتمـبر، وفى ذلك التاريخ كان الموقف سيئا فى أرنـهم، فقد قطع الممر المؤدى إلى نيميج مرة أخـرى، وكان يبدو أننا سنضطر لسحب الباقين على قـيد الحياة من الفرقـة الأولى البريطانية المحملـة جوا إلى الضفة الأخـرى من الراين الأدنى، وقد جرى إنكفاء هذه الفرقة بالفعل فى ٢٥ سبتمبر.

وكـانت أوضاع التـموين عـلى طول الجبـهة تسـوء بالتـدريج، فالجـيش الأول الأمريكى على ميمنتى كان - فى حوالى ٦ أكتوبر - عاجزا عن تطوير عملياته وفقا لأنه لم يكن يملك الذخائر الضرورية.

وفى ٧ أكـتوبر، بعـثت إلى «إيزنهاور» من إيندهوفن، بتـقرير كـامل عن وضع الجناح الشمالى وأشـرت فى هذا التقرير إلى أننى لن أتمكن من مواصـلة العمليات المقررة لبلوغ خـط الراين إلا إذا أمكن زيادة التموين المخـصص لهذه العـمليات، وأضفت: إننـى رجوت «برادلى» أن يأتى لـيرانى فى اليوم التـالى ٨ أكتوبر لـبحث الموقف معى.

وقـد علم «إيزنهـاور» أن «برادلى» سـيكون مـعى فى إيندهوفن فى ٨ أكـتـوبر فأرسل إلينا رسالة ضمنهـا وجهة نظره فى المشكلة التى وجدنا أنفسنا جميـعا أمامها وتبدأ هذه الرسالة بالعبارات الاتية:

إن الصعوبات الأساسية الناشئة على الجناح الشمالى تبدو متأتية من نقص فى القوة إزاء تعزيزات العدو، ولذلك فالخطة المتعلقة بالهجوم المنسق باتجاه الراين يجب أن تؤجل إلى أن يمكن الإتيان بفرق أمريكية من الشواطئ، ومع ذلك فإن المهمة الأولى لمجموعتى الجيوش لا تزال بلوغ خط الراين فى شمالى بون بأسرع ما يمكن للطاقة البشرية.

ولم نستطع- أنا «وبرادلى»- أن نوافق على هذا التصريح، وكان رأينا أن علينا أن نخفف عملياتنا باتجاه الراين إلى أن يتحسن وضع تموييناتنا، وكتبت لإيزنهاور تقريرا وفقا لذلك، قلت له فيه: إننى أوقفت عمليات الجيش الثانى باتجاه الروهر وسأركز جهودنا الآن على ضواحى أنفرس بحيث يمكن تشغيل هذا المرفأ.

وفى اليوم التالى ٩ أكتوبر، تلقيت من «إيزنهاور» رسالة تقول:

«ما لم يرجع العمل إلى مرفأ أنفرس فى منتصف نوفمبر، فإن جميع العمليات ستتجمد ويتحتم على أن أشير أننى أعتبر أنفرس ذات أهمية رئيسية بين جميع عملياتنا على مجمل الجبهة من سويسرا حتى المانش».

وفى الشهر نفسه، بعد قليل ، وبعد أن أنجزت خططنا للمستقبل مع «دمبسى»، انتقلت إلى مقرى العام الرئيسى فى بروكسل، وكنت فيه أفضل تمركزا لممارسة قيادة شخصية على العمليات المعدة لتطهير ضواحى أنفرس، وهى مهمة الجيش الأول الكندى بقيادة «سايموندس».

وفى ٣ نوفمبر أنبأت «إيزنهاور» بما يلى:

يتوجب علىّ أن أبلغكم أن ضواحى انفرس ومصب نهر أسكو قد طهرت تماما من فلول العدو، وتستولى قواتنا الآن فى فالشرن على الساحل من دومبورج إلى وستكابل، وفى الجزء الغربى من فلاشنج التى هى فى إيدينا، استولينا على جميع

مواقع العدو الساحلية وعلى عدد من المدافع، وقد باشر كانسو الألغام عملهم فى المصب، وبلغ بعضهم ترنيوزن، ونحن نحتل كل بيفلاند الشمالية وبيفلاند الجنوبية، ولا يزال هناك بعض الأعداء فى شمالى جزيرة فالشرن وشمالها الشرقى، وهم على وشك الإبادة، وقد توقفت الآن كل مقاومة على أرض القارة جنوبى فالشرن، وفى منطقة كنوك، وأخذنا ١٤ ألف أسير منذ اجتيازنا قناة نيوبولد، وأن الاستعمال الكامل بكل حرية لمرفأ أنفرس ليس الآن إلا قضية بحرية.

وجاءنى الجواب الآتى:

إن للاستيلاء على ضواحى أنفرس أهمية كبرى بالنسبة لنا، وانا شاكر لكم أصدق الشكر، ولك شخصيا، لما أبديتموه من نشاط فى عملكم، وأرجوك أن تتفضل بنقل شكرى وتهانى لقائد القوات الكندية العام.

وفى ٦ نوفمبر، غادرت بروكسل لأقضى بضعة أيام فى إنجلترا، ولدى وصولى إلى إنجلترا، توجهت فورا لمقابلة رئيس الوزراء لأحدثه فى قضايانا، ولأقول له أيضا إن عليه الآن أن يتوقع استمرار الحرب فى الشتاء كله وحتى فى عام ١٩٤٥.

وفى ١٠ نوفمبر ، عدت إلى مقرى العام فى بروكسل.

* * * *

الفصل السادس عشر
معركة أرنهم
١٧ - ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤

فى تحركنـا إلى الأمام على الجناح الشـمالى بغيـة احتـلال الروهر وفقـا لأوامر «إيزنهاور» اعتـرضتنا عقبتـان كبيرتان هما نهر الموز ونـهر الراين، وأيا كانت الطريق المختارة فقد واجهنا عقبات أخرى على شكل أقنية واسعة.

وكانت خطتى الإندفاع بقوة باتجاه الراين بعد أن نجـتاز كل هذه العقبات، وإنشاء رأس جسر فيما وراء الراين قبل أن يتمكن العدو من إعـادة تنظيم نفسه تنظيما كافيا لإيقافنا.

ولقد أعطيت الجحفل الأول الحليف المحـمل جوا بقيادة اللوتنان جنرال «براوننج» وكان هذا الجحفل مـؤلفا من الفرقة الأولى البريطانية المحـملة جوا، ومن الفرقة ٨٢ الأمريكية المحملة جوا، ومن الفرقة ١٠١ الأمريكية المحملة جوا، ومن لواء المظليين البولونى، وقد وضعت هذا الجحفل تحت قيادة الجيش الثانى بقيادة «دمبسى».

وقد سبق أن أوضحت أن هذه الإندفاعـة يجب أن تجرى بإتجاه أرنهم والأسباب الموجبة لذلك، وكان أهم ما فى الخطة تشكيل سجادة من القوات المحملة تنتشر من طرف لآخر على العقبات المائية الرئيسية الخمس التى توجد على الخط العام للطريق المارة بايندهوفن نحو أودن وجرايف ونيميج ثم نحو أرنهم.

أمـا الجحـفل الثلاثون، بـقيـادة «هورروكس»، فعليـه أن يعـمل على طول خط السجـادة بالاتصال مع الفرقة الأولى البـريطانية المحملة جـوا فى منطقة أرنهم، وأن ينشىء فى شمالى هذه المدينة رأس جسر فـيما وراء الراين الشمالى، وعلى الجيش

الثانى بعدئذ أن يستقر فى المنطقة الواقعة بين أرنهم وبحر زفيدر مواجها الشرق لكى يكون قادرا على القيام بعمليات ضد الجانب الشمالى للروهر.

وبينما كان الجحفل الثلاثون يتقدم على طول خط السجادة المحملة جوا، كان على جحفلين آخرين توسيع خط التقدم، وهما الجحفل الثامن بقيادة «أوكونر» فى الشرق، والجحفل الثانى عشر بقيادة «ريتشى» فى الغرب.

وقد أطلق على مجمل هذه العملية اسم عمليه ماركت جاردن، وبدأنا فى شن هذه العملية نهائيا فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٤، ولم ننشىء بالنتيجة رأس الجسر هذا فى شمالى أرنهم، ونتج عن هذا أننا لم نتمكن من تشكيل الجيش الثانى شمالى الراين الأعلى فى أرنهم، ووضعه بصورة يمكنه معها توسيع عملياته ضد الطرف الشمالى للروهر، ولكن الاستيلاء على مواقع اجتياز الموز فى جرايف، ومواقع اجتياز الراين الأسفل فى نيميج، كان كما ظهر فيما بعد، ذا قيمة كبرى.

ولقد حررنا قسما كبيرا من هولندا، وأصبحنا نملك نقطة الانطلاق التى نحتاج إليها لكسب المعارك اللاحقة فى ريناني، ومن غير هذه الانتصارات لم نكن قادرين على اجتياز الراين بقوة فى مارس ١٩٤٥، ولكننا لم ننشىء رأس الجسر الذى كان انشاؤه هدفنا، ويجب أن نعترف بذلك بكل صراحة.

لقد حالت أسباب كثيرة دون نجاحنا الكامل فى أرنهم، وهاك، فى رأيى، أهم هذه الأسباب:

١ - لم ينظر إلى العملية فى المقر العام الأعلى على إنها رأس الحربة لتحرك حليف كبير على الجناح الشمالى يستهدف عزل الروهر ثم احتلاله أخيرا، وهى المنطقة التى لا يستطيع الألمان فى الغرب السماح لأنفسهم بفقدها، وليس فى نفسى أى شك فى أن «إيزنهاور» قد أراد دائما إعطاء الأفضلية للإندفاعة باتجاه الشمال وكبح الإندفاعة باتجاه الجنوب، وقد أعطى الأمر

بذلك، وكان يعتقد أن هذا الأمر قد اقترن بنتيجة، لكن لم يكن الحال كذلك.

٢ - لقد ألقى بالقوات المحملة جوا فى أرنهم بعيدا عن الجسر أكثر مما ينبغى، وهو الهدف الأساسى، فقضت عدة ساعات فى بلوغه، وأنا أتهم نفسى بهذا الخطأ، لقد كان علىّ أن أعطى الأمر للجيش الثانى والجحفل الأول المحمل جوا بأن يجعلا لواء كاملا على الأقل من المظليين يلقى من الجو قريبا جدا من الجسر لكى يمكن الاستيلاء عليه فى بضع دقائق، وينظم الدفاع عنه دفاعا متينا دون إضاعة الوقت، ولكننى لم أفعل ذلك.

٣ - لم يكن الطقس ملائما لنا بعد اليوم الأول، فلم نستطع تنفيذ شىء كثير من برنامج القوات المحملة جوا، وكان يمكن أن يكون للعملية حظ من النجاح لو خصص لها موارد إضافية ولو أصبحت عملية حليفه بدلا من أن تبقى عملية بريطانية.

٤ - لقد أعاد جحفل العاصفة الثانى المدرع تنظيمه فى منطقة أرنهم، وهى المنطقة التى سيق إليها بعد أن ضرب بقوة فى نورماندى، وكنا نعلم أنه موجود هناك، ولكنا إستهنا بقيمته القتالية التى ظهر أنها أكبر مما ظننا، ولقد وضع هذا الجحفل المدرع سريعا فى العمل ضد الفرقة الأولى المحملة جوا.

ولقد شعرت بخيبة مريرة بعد معركة أرنهم كتلك التى شعرت بها بعد معركة نورماندى، فلقد كانت تلك محاولتى الثانية لفتح الروهر بسرعة، وكان من عادة «بيل وليامز» أن يقول لى: إن الألمان لن يستطيعوا مواصلة الحرب أكثر من ثلاثة شهور بعد أن يفقدوا الروهر، ولكننا لم نكن قد استولينا عليه حتى الآن. وهنا

يتوجب عليّ الإقـرار بأننى أخطأت، لقد اسـتهنت بالصعـوبات الناشئة عن تطهـير ضواحى أنفرس، الذى سيتيح لنا اسـتخدام هذا المرفأ بحرية، فقد كنت أحسب أن الجيش الكندى يستطيع أن يتم هذا التطهير بينما نحن نتقدم نحو الروهر، وكان هذا خطأ.

* * * *

الفصل السابع عشر
قبل معركة الأردين

إن معركة الأردين بدأت في ١٦ ديسمبر ١٩٤٤ واستمرت حتى ١٦ يناير ١٩٤٥، وقد ولدت إحساسات بلغت من المرارة بين البريطانيين والأمريكيين حدا لا يمكنني معه إغفال الإشارة إليها هنا، ولكن أعتقد أن علينا أولا أن نصف الأحداث التي أوجدت هذه الإحساسات، إذ أن مثل هذا الدرس يدل على أنه كان من الممكن تجنب هذه المعركة بسهولة فائقة.

إن حرب الإنهاك في أشهر الشتاء، هذه الحرب التي فرضتها علينا استراتيجيتنا المغلوطة بعد إنتصارنا الكبير في نورماندى، أصبحت باهظة بالخسائر في الأرواح البشرية، وكانت الجيوش الأمريكية تعاني من نقص كبير في الذخائر، وفي جميع الفرق كان عدد الجنود أقل من العدد الطبيعي المعتاد، وكانت أوضاع الإمدادات سيئة، وأخذت الفرق الأمريكية في خط القتال تعاني جديا من تجليد الأقدام، وقد أثار قلقي في مجموعة جيوشي إزدياد الخسائر.

ولقد جاء «إيزنهاور» في ٢٨ نوفمبر يقضي السهرة معي في مقرى العام التكتيكي في زونهرفن، وجرت بيننا في هذه السهرة وفي صباح اليوم التالي محادثات طويلة ناقشنا خلالها الموقف الراهن الذى لم يكن حسنا، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فيه.

وفي حديثي مع «إيزنهاور»، قلت له: إن مجموعة جيوش «برادلي» الثانية عشرة لا تبدو لي متوازنة توازنا حسنا من الوجهة التكتيكية، واقترحت من أجل توفير هذا التوازن التكتيكي أن تنقل بعض فرق «باتون» نحو الشمال وأن يوقف هجومه في الجنوب وقد نقل هذا الاقتراح إلى «برادلي» الذى بعث إلي في ٣ ديسمبر برسالة تقول إنه لا يستطيع توقيف الهجوم شارحا أسباب ذلك.

وقبل أن يغـادرنى فى ٢٩ نوفمبـر، اقترحت على «إيزنهـاور» أن من الأفضل جـدا عـقد اجتـمـاع بينه وبين «تدر» و «برادلى» وبينـى، ونستطـيع كلنا فى هذا الاجتماع شـرح وجهات نظرنا، ويستطيع هو إبلاغنا خطته للمـرحلة المقبلة، فوافق على الاقتراح وحدد للاجتماع موعداً فى ٧ ديسـمبر فى مايسترخت، حيث التقينا نحن الأربعة فى الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر.

وهاك خلاصة ما دار فى هذا الاجتماع كما سجلتها فى يومياتى فى مساء اليوم ذاته:

استعـرض إيزنهاور ما حدث منذ بداية سبتـمبر، ثم تبين أن العمليـات الأخيرة أدت إلى نتائج جيـدة وأنها تتطور بصورة مرضـية، وختم إيزنهاور كـلامه قائلا إن غاية الإجتمـاع الإفصاح عن آرائنا وإتاحة المجال له كى يفكر فيها، مـضيفا أنه ليس فى نيته إعطاء أوامر نهائية قبل أن نفترق، فإذا لزم إصدار أية أوامر فسيصدرها فيما بعد.

فذكرت أن عـاملين رئيـسيين يجب أن يسـيطرا على حل المشكلة لكسب الحرب بسرعة :

١ - إن الهدف الوحيد الجدير حقا بالمواجهة على الجبهة الغربية هو الروهر، فإذا نحن عزلناه عن سـائر ألمانيا فإن مقدرة الـعدو على مواصلة القتـال ستنهار بالتدريج.

٢ - من الضرورى إكراه الألمان على خوض قتال متحرك فى الربيع أو فى بداية الصـيف، فلم يبق لديهم إلا قليل من وسـائل النقل وقليل من البـترول، ودباباتهم لا تستطيع مضـاهاة دباباتنا فى قتال متحرك، فـحالما تغدو الحرب متحركة ستحل نهاية الألمان.

إن هذين العاملين أساسيان، ويستحيل رفضهما، وهما يستتبعان:

أ - أن الروهر يجب أن يكون هدفنا الاستراتيجى.

ب - أن جهدنا الرئيسى يجب أن يتركـز فى الشمال إذ هناك- وهناك فحسب- توجد الأرض المناسبة للقتال المتحرك، أعنى شمالى الروهر.

إن جميع خطوط السير الأخرى فى داخل ألمانيـا لن تعطى النتائج المبتغاة، إذ أن الأرض وعرة وهيئتها تساعد على الحرب الدفاعية.

إن سلوك طرقـات أخرى غـير ذلك الطريـق لن يكون من شأنه إلا إطالة أمـد الحرب، مما يناسب العدو لأن المعركة ستكون معركة دفاعية ثابتة.

إن علينا أن نكون أقوياء فى الشـمال إلى حد نسـتطيع معه الحصـول على نتائج حاسمة دون أن يكون هناك إمكان للفشل.

إننا نعمل فى الوقت الحاضر وفقا للخطـة التى تضمنها توجيه إيزنهاور المؤرخ فى ٢٨ أكـتـوبر، على أن هذه الخطة لـم تبلغ مـرحلة النضج، إننـا نطلب الآن خطة جديدة تشـتمل مراحلهـا المتوالية على أهداف لم تـلحظها الخطة الرئيـسـية، والخطة الجديدة يجب أن تفى بحاجات استمرار القتـال خلال أشهر الشتاء بشكل ينهك قوة العـدو، ولا شك أن الوحل ونقص المسـاندة الجـوية سـيكونان سـبـبـا فى نشـوء صعوبات، ولكن علينا خلال الشتاء القيام بعمليات تهدف إلى:

أ - بلوغ الأهداف الوسيطة باتجاه الروهر.

ب - تمركزنا فى موقع أمامى جيد للقيام بقتال متحرك فى الربيع.

وهناك عامل بالغ الأهمية فى عملياتنا فى الشـتاء هو إجبار جيش البانزر الألمانى السادس على خوض المعركة ودحره بصورة حـاسمة، فإن هذا الجيش هو احتياطى العدو الإستراتيجى الوحـيد على الجبهة الغربية، ويشتـمل على الفرق الوحيدة التى

لها بعض الحظ فى النجـاح فى القتال المتـحرك، فهذه الفـرق يجب إذن أن تضرب خلال أشهر الشتـاء بصورة تصبح معها خارج المعركة عندمـا يحل الربيع، وسيقاتل الألمان بضرواة ليمنعونا من دخول الروهر ولكى تبقى الحرب ثابتة، وسيحاولون بكل ثمن تفادى تحول القتال إلى قتال مـتحرك، فلن تكون هناك إذن صعوبة فى حملهم على أن يردوا فى غربى الراين.

ويتلخص مفـهومى للخطة الجديدة بأن تعمل مـجموعتـا الجيوش الثانيـة عشرة والحادية والعشرون معا فى شمالى الأردين، على أن يكون الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الثانية عشرة فى ضـواحى بروم، وستلاقى الإندفاعة القوية على خط بروم - بون أرضا صالحة للعمليات وتتفادى خطوط الدفاع والحواجز الموجودة.

وتعمل مجموعة الجيوش الثانية عشرة باتجاه الراين على الخطين الرئيسين، بروم - بون - ،ودورن - كولونى.

أما الميسرة التى تضم على الأقل عـشر فرق، فتعمل فى الشمـال باتجاه إندفاعة مجموعـة الجيوش الحادية والعشريـن القادمة من الجنوب بين الموز والراين، وتزداد قوة مجموعة الجيوش الثانية عشرة حتى تبلغ ما يقرب من ٣٥ فرقة.

أما مجموعة الجيوش الحادية والعشرون فـتشن بعد إعادة تجمعها هجوما قويا فى منطقة نيميج، باتجاه الجنوب بين الموز والراين، مستهدفه الاستيلاء على كل الأرض الواقعة بين الموز والراين، حتى خط أورسوى - فنلو، فى الجنوب.

وسيكون هذا هو العمل الهجـومى الوحيد على جبهة مجمـوعة الجيوش الحادية والعشرين ،وسيتقدم ببطء خلال أشهر الشتاء، وموعده الأقصى أول يناير.

وتعزز مجموعة الجيوش الحادية والعـشرون بفرق أمريكية، وفرق محملة حسب حاجاتها، وتجتـاز الراين فى مواضع مختارة بين فيسل ونيمـيج ، ثم تقوم بعلميات

متحركة فى شمالى قناة ليب وفى شمالى النهر، مستهدفة الالتفاف حول الروهر من الشمال ودخول ألمانيا، وهذا يمكن أن يحدث فى مارس ١٩٤٥، وتجتاز مجموعة الجيوش الثانية عشرة الراين فى منطقة بون، وتقوم بعمليات التفاف حول الروهر من الجنوب، وتواصل مجموعة الجيوش السادسة، وقاعدتها مرسيليا، العمل فى السار بمقدار ما تسمح لها به قوتها ومواردها، وألاحظ أن من الصعب فى هذه المرحلة التنبؤ بالضبط كيف ستتطور العمليات المرسومة أعلاه؟، وعلى مجموعتى الجيوش فى شمالى الأردين، المجموعة الثانية عشرة والمجموعة الحادية والعشرين أن تبحثا أولا عن القتال فى غربى الراين وتجتذبا كل قوات الاحتياطى الاستراتيجية لدى الألمان وتدمرها، ثم تتقدما نحو الراين، ولا يمكن تقرير ما تبقى بتفاصيله فى الوقت الحاضر.

ثم إننى أدعو إلى أن يتولى قائد أعلى واحد الإشراف على العمليات وإدارة جميع القوات فى شمالى الأردين، وهذا القائد الأعلى يجب أن يكون إما «برادلى» أو أنا، وأنا مستعد للخدمة تحت إمرة « برادلى».

وعرض «إيزنهاور» فكرته العامة عن الحملة وهى كالتالى:

أ - فى الشمال، تكون مجموعة الجيوش الحادية والعشرون والجيش التاسع الأمريكى المؤلف من تسع فرق، تحت قيادة واحدة، ويجب أن يبلغ خط حدود مجموعة الجيوش الحادية والعشرين نهر الراين فى ضواحى أورسوى على الزاوية الشمالية الغربية للروهر، وستكون مهمة مجموعة الجيوش هذه إجتياز الراين والالتفاف حول الروهر من الشمال.

ب - يخصص الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الثانية عشرة لصد العدو، فهو لن يجتاز الراين بقوة ولكنه يتظاهر بذلك ويقوم بتهديدات فى منطقة كولونى

- بون؟ وأبعد إلى الجنوب، وبعبارة أخرى: لن تكون هناك إندفاعة قوية فى هذا المكان.

جـ - على الجانب الجنوبى يقوم الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الثانية عشرة بضغط قوى على خط فرانكفورت - كاسل.

د - إن الغرض العام لهذه الخطة يتألف من هجومين، أحدهما يلتف حول الروهر من الشمال، والآخر يلتف حوله من الجنوب، وبين هذين الهجومين تجرى تهديدات وتظاهر بالهجوم، وتنتشر مجموعة الجيوش الثانية عشرة من أورسوى ممتطية الأردين، حتى وورمز.

وسألنى «إيزنهاور» عن انطباعى إزاء خطته، فذكرت له أننى لا أستطيع الموافقة على خطته، فإذا نحن بعثرنا مواردنا لم يعد بالإمكان القيام بأية إندفاعة قوية للحصول على نتائج حاسمة، وهذا ما فعلناه سابقا وندفع الآن ثمن أخطائنا، وكنت آمل ألا نعيد الكرة، وأضف أننا نشكو حاليا من سوء تنظيم القيادة وعجزه، وخطة «إيزنهاور» لا تحسن هذا التنظيم، وإنما هى فى الحقيقة تزيده سوءا، وختمت كلمتى بمرافعة قوية لصالح القيام بحشد فى الشمال لجميع القوات المتوفرة، وشن هجوم من هذه المنطقة يكون من القوة بحيث يتأكد النجاح، ورافعت أيضا من أجل تنظيم القيادة تنظيما منطقيا، فأعلنت أننى أرى أننا، دون هذين الإصلاحين، لن ننجح، وسيحل الربيع قبل أن نكون مستعدين للمهمة التى تنتظرنا.

ولم يوافق «إيزنهاور» على وجهة نظرى، بل كان يرى أن سبيل كسب هذه الحرب هو القيام بزحفين قويين:

أ - أحدهما يلتف حول شمال الروهر.

ب - والآخر يلتف حول خط فرنكفورت - كاسل.

على أن تجرى بين هذين الزحفين تهديدات وتظاهر بالهجوم.

لم يسفر اجتماع ٧ ديسمبر فى مايسترخت عن شىء، لقد أملت فى أن نصل إلى اتفاق يتنقل بموجبه ثقل قواتنا الأكبر نحو الشمال، وكنت أرغب فى أن يتجه نشاط مجموعتى الجيوش الثانية عشرة والحادية والعشرين نحو الروهر، وأن تكلف هاتان المجموعتان بأن تفرضا على العدو قتالا متحركا فى بداية الربيع فى سهول ألمانيا الشمالية، ولكن لم يتخذ أى قرار بهذا المعنى، وفى هذه الأثناء تشكلت مجموعة جيوش «برادلى» الثانية عشرة فى احتشادين رئيسيين، وتشكل كل من هذين الاحتشادين أيضا من أجل الهجوم، وكان بينهما مسافة تبلغ نحو مائة ميل يغطيها الجحفل الثامن الأمريكى المؤلف من أربع فرق تحت قيادة «ميدلتون».

* * * *

الفصل الثامن عشر
معركة الأردين
١٦ ديسمبر ١٩٤٤ - ١٦ يناير ١٩٤٥

فى صباح يوم ١٦ ديسمبر ١٩٤٤، وأثناء ممارستى للعبة الجولف مع «واى ريز» أستاذ الجولف الشهير وسائق لقائد القاعدة الجوية فى إيندهوفن، وصلتنى رسالة تخبرنى أن الألمان شنوا فى صباح اليوم نفسه هجوما عنيفا على جبهة الجيش الأول الأمريكى، وأن الموقف غامض، فعدت بالطائرة إلى مقرى العام التكتيكى فى زونهوفن.

وقد وجهت الضربة بصورة رئيسية إلى جزء من جبهة الجيش الأول الأمريكى، وهو الجزء الذى يرابط فيه مرابطة ضعيفة فى الأردين الجحفل الثامن بقيادة «ميدلتون»، وفتحت ثغرة عميقة فى الخطوط الأمريكية.

لقد ساء الموقف بسرعة، وأخيرا شقت مجموعة جيوش «برادلى» الثانية عشرة إلى قسمين وكان مقره العام فى لوكسمبورج، حيث لم يكن يستطيع من هناك الإشراف على النصف الشمالى من مجموعة جيوشه، ولقد كنت أعرف الموقف بفضل فريق ضباط الاتصال التابع لى، فاتخذت ترتيبات لتأمين سلامة الجناح الأيمن والمؤخرة اليمنى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين ، مهما حدث.

وفى الساعة ١٠,٣٠ قبل ظهر ٢٠ ديسمبر، اتصل بى إيزنهاور هاتفيا من مقره العام وأعطانى أمرا بأن أتسلم على الفور قيادة جميع القوات الأمريكية على الجانب الشمالى من النتوء، وقد وضع هذا الأمر جيشين أمريكيين تحت قيادتى، وهما الجيش التاسع «سمبسون» الموجود إلى يمينى مباشرة والجيش الأول «هودجز» الموجود إلى يمين الجيش التاسع، وكان الجيش الأول يقاتل قتالا يائسا.

وبعد أن أعطيت أوامرى لدمبسى ولكريرر اللذين أتيا لحضور اجتماع فى الساعة ١١,٠٠، توجهت ظهـرا إلى المقر العام للجـيش الأول، وكنت أعطيت سمبسـون تعليمات بأن يلاقينى هناك، وعلمت أن الجانب الشمـالى من النتوء قد فقد نظامه، وكان الجـيش التـاسع يضم جحلفـين وثلاث فرق، والجـيش الأول ثلاثة جحـافل وخمس عـشرة فـرقة، وكان يـجب أولا النظر إلى المعركـة على الجانب الشـمالى ككل، والتأكد من أن المناطق الأساسية محميـة حماية قوية، وإيجاد قوات احتياطية لشن هجوم معاكس، وانصرفت إلى واجب اتخاذ التـدابير المناسبة، فوضعت تحت قيادة الجيش التاسع قوات بريطانية لتقاتل إلى جانب القوات الأمريكية، وجعلت هذه الأخيرة تأخذ جزءا من جبهة الجـيش الأول، ووضعت قوات بريطانية فى الاحتياط خلف الجيشين الأول والتاسع إلى أن يمكن إيجاد قوات أمريكية احتياطية.

وهكذا استطعنا أن نحـمى المواقع ببطء لكن حمـاية مؤكدة ، واستـقام الموقف بالنتيجة، وقام برادلى بعمل مشابه فى الجانب الجنوبى بواسطة الجيش الثالث.

وفى ١٦ يناير اعتبرت المعركة منتهـية وأعطانى إيزنهاور الأمر بأن أعيد- فى ١٧ يناير- الجيش الأولى إلى برادلى على أن يبقى الجيش التاسع تحت إمرتى.

إن الحلفاء أصيبـوا حقا فى معركة الأردين بضـربة قاسية، فقد فـقد الأمريكيون نحو ٨٠ ألف رجل، ولم يكن هذا ليحدث أبدا لو كانت لنا استراتـيجية مقبولة بعد إنتصـارنا العظيم فى نورماندى، أو لو أننا حقـقنا فقط توازنا تكتيكيـا فى تشكيلات القوات البرية عندما تطورت حملة الشتاء.

أضف إلى ذلك أن هذه المعـركة قـد أضاعت علـينا ستـة أسابيع، مع كل مـا استبعه هذا التأخر من نتائج سياسية فى وقت كانت تقترب فيه نهاية الحرب.

* * * *

الفصل التاسع عشر
إنتهاء الحرب فى أوروبا

ابتداءً من أول سبتمبر ١٩٤٤ لم أكن راضيا عن تنظيم القيادة والإشراف على العمليات، لقد كان انتقادى الرئيسى منصبا على كون قيادة العمليات المباشرة للجيوش التى تخوض القتال لا تشتمل كما كانت فى السابق على اتصال حميم بقواد الجحافل والفرق والوحدات ، فالقائد الأعلى عليه أثناء المعركة أن يمسك جيدا بزمام الموقف وأن يكون متقدما إلى الأمام، ولقد حققت هذا المطلب فى نورماندى، أما الآن فما من أحد يهتم به، فإذا بنا نلاقى متاعب.

وبعد أن قرأ إيزنهاور مذكرتى، أجابنى مباشرة برسالة مؤرخة فى ١٣ أكتوبر يقول فيها إنه لا يعتقد أن رجلا واحدا يستطيع إدارة عمليات المعركة البرية على جبهة تمتد من سويسرا إلى بحر الشمال، فإن طول هذه الجبهة يستلزم قائدا يوزع على مختلف المجموعات العاملة فى مختلف القطاعات المهمات المناسبة، وهذا القائد يجب أن يكون القائد الأعلى نفسه، وتشير الرسالة أيضا إلى مسألة القومية باعتبارها متعارضة مع الاعتبارات العسكرية المحضة.

وكنا نجتاز فترة عصيبة، وكان على إيزنهاور أن يواجه الموقف الذى تنبأت له به لدى التقائنا فى ٢٣ أغسطس فى مقرى العام التكتيكى، فإن استراتيجيته وعدم وجود خطة، قادانا إلى الوضع المخيب للآمال فى أكتوبر، وكان إيزنهاور حزينا بشكل واضح، ولذلك قررت التخلى عن الأخذ والرد فى موضوع القيادة الوحيدة.

لقد طويت الصفحة الآن، فلم يعد أمامنا إلا محاولة الوصول إلى خطة صائبة لحملة الشتاء التى تنتظرنا، وتنسيق جهود مجمل القوات الحليفة تنسيقا ملائما، وأثناء

معركة الأردين أجبر سير الأحداث القاسى إيزنهاور على أن يفعل ما كنت أقترحه دائما، فسلمنى قيادة عمليات الجناح الأيسر لقوات الحلفاء، واضعا تحت قيادتى جيشين أمريكيين.

وفى ٢٨ ديسمبر، جاء إيزنهاور يزور الجناح الشمالى، وجرى لى معه حديث طويل فى قطاره الخاص فى هاسلت، وكان زمام معركة الأردين قد أصبح الآن فى أيدينا وانصب حديثنا بشكل خاص على ما يجب فعله عندما تنتهى هذه المعركة، وكررت له أن الروهر هو فى رأيى الهدف المباشر، فكل القوة المتوفرة يجب أن تحشد وتركز لبلوغه، والإشراف على عمليات القوات المشتركة فى هذه العملية يجب أن يمارسه قائد واحد.

وفى هذه الأثناء كان إيزنهاور قد أعد مسودة خطة من ابتداعه، وفى ٣١ ديسمبر، كتب إلىّ بخط يده الرسالة الاتية:

عزيزى مونتى:

تجد طيه الخطوط الكبرى لخطتى المشتملة على العمليات بمقدار ما يمكن التنبؤ بها، والأمر يدور فى الوقت المباشر حول توجيه سلسلة من الضربات للعدو فى النتوء مدمرين أكبر قدر مستطاع من قواته، وبعد ذلك تقضى الخطة بحشد كل ما هو ضرورى لتدمير العدو فى شمال بروم - بون ، ملقية على عاتق كل منكما، أنت وبرادلى، المهمة المنوطة به، وتقضى الخطة أيضا بإنشاء قوة كبيرة فى شمال الروهر عندما يتم اجتياز الراين، أما فيما يتعلق بالقيادة فلست أوافقك على الفكرة القائلة بأن يخوض قائد مجموعة جيوش معركته الخاصة وهو يعطى فى الوقت نفسه أوامر لقائد مجموعة جيوش أخرى، وخطتى تضع جيشا أمريكيا كاملا تحت قيادة مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وهو أمر أعتبره ضروريا من الوجهة العسكرية، ويعكس بكل تأكيد الثقة التى لى بك، ولو كان الأمر على خلاف ذلك

لما أمكنني اتخـاذ هذا القرار، تفضل بقـراءة هذه الوثيقة بعـناية، ولاحظ بأى وضوح قررت بعد إزالة النتوء، تعزيز مجوعة الجيوش الحادية والعشرين وتكليفها بمهمة خطيرة تحت قيادتك، أضف إلى ذلك أن برادلى سيكون على مقربة من مقرك العام.

أننى أعـرف ولاءك كجندى والاندفـاع الذى تتصرف به إلى المهـمات الموكـولة إليك.

صديقك الدائم

آيك

وانصرفت إلى درس مـشروع الخطة هذا، فإذا به يعطينى كل ما أرغـب فيه إلا فى شأن الأشراف على العمليات، لأن هذا الموضوع استبعد على أثر برقية الجنرال مارشـال وهذه الخطة تضع فى الشمـال كل ثقل العمـليات وتلحق الجيـش التاسع الأمريكى بمجـموعة الجيـوش الحادية والعشـرين، وتخولنى سلطة التقـرير فى حالة الخلاف مع برادلى على تخطيط الحد بين مجموعتى الجـيوش الثانية عشرة والحادية والعشرين، والواقع أن هذه الخطة تعطينى على وجـه التقريب كل ما كنت أطالب به منذ شهر أغسطس، ولأن يتم الأمر متأخراً خير من أن لا يتم أبدا، ولم أكن طبعا أستطيع أن أطلب أكثر من ذلك. ولقد بدأنا عملية «الحقيقة» فى غابة رايخسفولد فى شرقى نيميج فى فبراير، زاحـفين باتجاه الجنوب بجناحنا الأيسر نحو الراين، وهجم الجيش التـاسع الأمريكى فى الشمـال فى ٢٣ فبراير، وزحف جناحـه الأيمن باتجاه دوسلدورف، بالاتصال مع هجوم الجيش الكندى.

وفى ١٠ مارس انتـشرت قوات الجـيش التاسع الأمريكى ومـجموعة الجـيوش الحادية والعشـرين على ضفة الراين الغربية، من نويس إلى نيمـيج، بعد أن دمرت جميع الجـسور، وفى هذه الأثناء استولى الجـيش الأول الأمريكى فى ٧ مارس فى

ريماجن على جسر سكة الحديد سليما، وسرعان ما أنشأ رأس الجسر على الضفة الشرقية، وقد كانت أهمية رأس الجسر هذا كبيرة جدا بالنسبة لعملياتنا اللاحقة، فهو لم يجمد فقط فى هذه المنطقة عددا كبيرا من فرق العدو الباقية، وإنما كان له أثره على كل الحملة إذا أمكننا استغلاله كما نشاء، وفى الأسبوع الثالث من مارس كانت الجيوش الحليفة قد أقتربت من الراين على طول مجراه، من سويسرا حتى البحر.

وفى شهر مارس وقبل عبور الراين، درست وضعنا الإدارى، فوجدته حسنا، فقد كانت لدينا كميات احتياطية ضخمة من البترول والذخائر والمنتجات الغذائية، وحالة القوات الصحية ممتازة، وبلغ مجموع خسائرنا منذ يوم الغزو فى ٦ يونيو ١٩٤٤ حتى ٢٢ مارس ١٩٤٥ الأرقام الآتية:

قتلى: ٣٥٨٢٥ جرحى: ١١٤٥٦٣ مفقودون: ١٧٩٩٠

وأخذت مجموعة الجيوش الحادية والعشرون ٢٥٠ ألف أسير تقريبا، وفى كل يوم كان نحو ٤ آلاف جندى وضابط يذهبون فى إجازة إلى إنجلترا، وقد خططنا لرفع هذا العدد حتى ٦ آلاف كل يوم، إبتداء من أول أبريل.

وما كدنا نجتاز الراين حتى أخذت أدرس مع إيزنهاور خطط العمليات المقبلة، فعقدنا اجتماعات عدة، ولقد كنت أعطى برلين الأفضلية على سائر أهدافنا ، فهى مركز سياسى، وكنت أشعر أننا إذا استطعنا أن نسبق إليها الروس فستكون الأمور أيسر علينا بكثير فى السنوات التى تعقب الحرب، ولكنه لم يوافق على رأيى هذا.

لقد كنت مقتنعا - بعد انتصار نورماندى - بأن انهزام القوات الألمانية المسلحة النهائى بات وشيكا، فالنقطة الهامة كانت إذن أن نتصرف بشكل نحقق معه فى أوروبا - حين يأتى هذا اليوم- توازنا سياسيا يساعدنا نحو الدول الغربية على ربح

السـلام، وكان هذا يعنى أن علينا أن نسـتولى قـبل الروس على عدد من المـراكز السياسية الأوروبية ، لا سيما فيينا وبراغ وبرلين، ولو كان لزعماء الغرب السياسيين الحس بالوقائع ، ولو أعطيت التعليمات المناسبة للقواد الأعلين، لتمكنا من الاستيلاء على العواصم الثلاث قبل الروس، لكن ماذا حدث؟

لقد تناقصت إمكانية إستيلائنا على فيينا عندما تقررت عملية التنين، وهى عملية النزول فى جنوبى فرنسا، فقد أخذت القـوات اللازمة لهذا النزول من قوات الفيلد مارشال الـكسندر فى إيطاليا، مما عرقل عملـياته، ويمكننا أن نشير إلى أن سـتالين وافق على عمليـة التنين بحمـاسة، وهذا طبيـعى إذ أن هذه العمليـة تضمن له أن تصل قواته إلى فيينا قبل قواتنا.

أمـا فـيمـا يتـعلق ببـراغ، فـقـد أوقف الجيش الـثالث علـى الحدود الغـربيـة لتشيكوسلوفاكيا حتى آخر أبريل لأسباب ما تزال مجهولة عندى.

ولقد فقدنا برلين منذ أن أهملنا فى أغسطس ١٩٤٤ بعد انتصار نورماندى وضع خطة مقبولة للعمليات ، فالأمريكيون لم يكونوا ليستطيعوا أن يفهموا أن لربح الحرب استـراتيجيا قـيمة ضئـيلة إذا نحن خسرناها على الصـعيد السيـاسى، وبسبب من نظراتهم الغريبة واجـهنا كل تلك الصعوبات منذ يوم النصر ولا نزال نواجهـها حتى الآن، إن الحرب أداة سياسية، فمنذ اللحظة التى يتأكد فيها أن الحرب ستربح يجب أن تسيطر على مجراها الاعتبارات السـياسية.

ولم يبق هناك الكثيـر مما يمكن قوله ولم يقـله سواى، أمـا وقد أصـبح الراين وراءنا، فقد تقدمنا إلى الأمام باتجـاه البلطيق، وكان غرضى أن نصل إليه فى الوقت المناسب لمنع الروس مـن الدخول إلى الـدانمارك والسيـطرة على مـدخل البلطيق، ولكى نزيد من سرعة تقدمنا، كانت الفرق تعمل بعمق على خطوط إندفاع ضيقة، وكانت مدرعـاتنا تطوق مناطق مقاومة العـدو ثم تهاجمهـا من الجنب قوات أخرى

متقدمة وراء المدرعات، وفى نهاية الأمر، تفوقنا على الروس، فقد بلغنا البلطيق فى فيسمار وفى لوبك فى ٢ مايو، مقفلين بذلك شبه الجزيرة الدانماركية قبل ست ساعات تقريبا من وصول الروس.

وأنشأنا جبهة شرقية ممتدة من فيسمار على البلطيق إلى دومتز على نهر الألب، وكانت قوات ألمانية ومدنيون ألمان يتدفقون على جناحنا محاولين الفرار من الروس، وكانت لنا جبهة غربية ممتدة من لوبيك نحو باد أولدسلو وجنوبى الألب، وبين هاتين الجبهتين كان يسود إضطراب وفوضى كبيران، فعلى هذه الطرق كان عدد كبير من الجنود والمدنيين الألمان يتزاحمون بالمناكب قادمين من الشرق، وفى ٢ و ٣ مايو، بلغ عدد الأسرى الذين وقعوا فى يد الجيش الثانى نحو نصف مليون.

وهكذا وجدت ألمانيا الهتلرية نفسها وجها لوجه أمام كارثه كاملة.

* * * *

الفصل العشرون
استسلام ألمانيا

فى ٢٧ أبريل، تلقيت من وزارة الحربية تقريراً يقول: إن «هملر» قدم فى ٢٤ أبريل عرضا للاستسلام بواسطة الصليب الأحمر السويدى، معلنا أن «هتلر» فى حالة يائسة، وأن له هو كل الصفة للعمل، فلم أولِ هذا التقرير أى اهتمام، إذ كان الروس القادمون أشد خطراً فى رأيى من الألمان المهزومين حتى الموت، ومهمتنا الأساسية المباشرة هى الزحف إلى الأمام بأقصى سرعة، وبلوغ البلطيق وتشكيل جناح قوى فى وجه الشرق، فهذا هو السبيل الوحيد لمنع الروس من الدخول إلى شلسفيج - هولشتاين، ثم إلى الدانمارك.

وتتوالى الأحداث الآن بسرعة، وفى ساعة متأخرة من يوم أول مايو التقطنا إذاعة ألمانية تقول: إن هتلر مات فى مركز قيادته فى برلين، وأنه عين الأميرال «دونتز» ليخلفه كفوهرر، ولم تكن هناك أية إشارة إلى «هملر».

وبعد ظهر ٢ مايو، بعث الجنرال «بلومزت»، الذى كان يقود جميع القوات الألمانية البرية بين البلطيق ونهر الفسر، برسالة إلى المقر العام للجيش الثانى يقترح فيها القدوم فى صباح اليوم التالى لعرض استسلام قواته، ولكنه لم يأت، بل أرسل رسالة جديدة تقول إن مفاوضات ستجرى على مستوى أعلى.

وفى ٣ مايو، أرسل الفيلد مارشال «كايتل» وفدا إلى مقرى العام بمقاطعة لونبورج بغية الشروع فى مفاوضات للاستسلام بإذن من الأميرال «دونتز»، وكان هذا الوفد الذى وصل فى الساعة ١١,٣٠ يضم:

* الجنرال أميرال «فون فريد بورج» القائد الأعلى للبحرية الألمانية.

* الجنرال «كنزل» رئيس أركان حرب الفيلد مارشال «بوش» الذى كان يقود القوات الألمانية البرية على جناحى الغرب وعلى جناحى الشمال.

* الأميرال «فاجنر».

* الماجور «فرايدل»، ضابط أركان الحرب.

وفيما بعد انضم إلى الوفد الكولونيل «بولك»، وهو ضابط آخر فى أركان الحرب. وقد جىء بهم جميعا إلى مكان مركبتى فاصطفوا فى ظل العلم البريطانى الذى كان يرفرف مختالا فى النسيم.

وجعلتهم ينتظرون بضع دقائق ثم خرجت من مركبتى واتجهت نحوهم، فأدوا التحية جميعا تحت العلم البريطانى، وكانت لحظة مؤثرة، فقد كنت أعلم أن هؤلاء الألمان جاءوا للاستسلام، وأن الحرب قد انتهت.

وعندئذ قرأ لى الأميرال «فريد بورج» رسالة من الفيلد مارشال «كايتل» يقترح فيها أن تستسلم لى الجيوش الألمانية الثلاثة التى تتراجع أمام الروس بين برلين وروستوك، فرفضت العرض قائلا إن هذه الجيوش يجب أن تستسلم للروس، وأضفت أنه إذا جاء جنود ألمان إلى جبهتى رافعين أيديهم، فسيؤخذون بالطبع أسرى بصورة أتوماتيكية، فقال «فريد بورج»: إن الاستسلام للروس الذين هم قوم متوحشون أمر غير معقول، إذ أن الجنود الألمان سيرسلون على الفور إلى روسيا ليشتغلوا هناك.

فلفت نظره إلى أنه كان على الألمان أن يفكروا بهذا كله قبل أن يبدأوا الحرب، وخصوصا قبل أن يهاجموا الروس فى حزيران ١٩٤١.

وقال «فون فريد بورج» بعد ذلك: إنهم كانوا قلقين جدا بشأن سكان ميكلمبورج التى اكتسحها الروس، وأنهم يريدون أن يدرسوا معى الطريقة التى

يمكن بها إنقاذهم، فأجبته أن ميكلمبورج ليست من منطقة العمليات التابعة لى، وأن هذه المشكلة يجب بحثها مع الروس، وأضفت أن عليهم أن يفهموا أننى أرفض التفاوض فى أى موضوع يتعلق بالموقف على جبهتى الشرقية بين فيسمر ودونتز، وأن عليهم أن يتوجهوا إلى الروس فى هذا الموضوع، وسألتهم بعدئذ إن كانوا يريدون أن يدرسوا معى كيف يمكن أن يتم استسلام قواتهم على الجبهة الغربية، فأجابوا أنهم لا يرغبون فى ذلك، وإنما هم قلقون بشأن السكان المدنيين فى هذه المنطقة، وأنهم يريدون التفاهم معى على خطة لتراجع قواتهم تراجعا متمهلا كلما تقدمت قواتى إلى الأمام ، فرفضت ذلك.

ووجهت حديثى لفون فريد بورج، فقلت له: هل تريد أن تتصرف بحيث تستسلم لى كل القوات الألمانية الموجودة على جناحى الغرب والشمال، بما فيها جميع القوات الموجودة فى هولندا، وفى منطقة فريزلند، وفى شلفيج - هولشتاين، وفى الدانمارك؟ إذا كنتم موافقين على ذلك فإننى أعتبر هذا الاستسلام استسلاما تكتيكيا فى ميدان القتال لجميع قوات العدو التى تعترضنى مباشرة، وللقوات التى تحتل الدانمارك أيضا.

فأجاب أنه لا يستطيع أن يوافق على هذه النقطة، ولكنه راغب فى الوصول إلى ترتيب ما بشأن السكان المدنيين فى هذه المناطق، فلم أقبل البحث فى هذا الموضوع، وقلت عندئذ إنه إذا كان الألمان يرفضون مواجهة استسلام القوات الموجودة فى المناطق التى ذكرتها - دون قيد ولا شرط - فسأعطى الأمر بمواصلة القتال، وسيسفر عن ذلك مقتل عدد أكبر من الجنود الألمان، وعدد أكبر أيضا بلا ريب من المدنيين نتيجة نيران المدفعية والغارات الجوية.

وبعد الغذاء، عقدنا الاجتماع هذه المرة فى الخيمة المخصصة لمؤتمراتى، وعلى الطاولة خريطة الموقف الحربى، وبدأت الحديث بتوجيه إنذار إليهم، فجميع قواتهم

الموجودة فى المناطق التى ذكرتها آنفا يجب أن تستسلم دون شروط، فإذا قبلوا هم هذا، فسأبحث معهم فى كيفية إحتلال هذه المناطق مع المحافظة على سلامة السكان المدنيين، وإذا رفضوا فسيستمر القتال.

وشعروا على الفور بأننى سأتصرف وفقا لما أقول، وقالوا إنهم غير مخولين حق قبول طلباتى، بيد أنهم مستعدون الآن لتوصية الفيلد مارشال «كايتل» بأن تستسلم دون شروط جميع القوات الموجودة، على الجناحين الغربى والشمالى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وعاد اثنان منهم إلى قيادة الجيش الألمانى العليا حيث قابلا «كايتل» وحملا إلينا موافقته، وحررت عندئذ وثيقة تلخص المقررات التى توصلنا إليها فى اجتماعنا.

وكانت وثيقة الاستسلام جاهزة، وكانت الترتيبات المتخذة تحت الخيمة بسيطة للغاية، وكان على الطاولة ميكروفون لمحطة الإذاعة البريطانية.

وتحت هذه الخيمة المنصوبة فى مقاطعة لونبورج، قرأت على الملأ بالإنجليزية وبحضور رجال الصحافة وغيرهم من المشاهدين وثيقة الاستسلام، وقلت إنه إذا لم يوقع الوفد الألمانى فورا هذه الوثيقة دون طرح أية أسئلة حول ما سيحدث بعد الاستسلام، فسأعطى الأمر بمواصلة القتال، ثم وقعت الوثيقة باسم الجنرال «إيزنهاور».

* * * *

وثيقة استسلام
جميع القوات الألمانية المسلحة
فى هولندا وفى شمالى غربى ألمانيا بما فيها الجزر وفى الدانمارك

١ - توافق القيادة العليا الألمانية على أن تستسلم للقائد الأعلى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين جميع القوات الألمانية المسلحة الموجودة فى هولندا، وفى شمالى غربى ألمانيا بما فيها جزر فريز وهليجولند وسائر الجزر الأخرى، وفى شلسفيج - هولشتاين، وفى الدانمارك، ويشمل الاستسلام جميع السفن الحربية الموجودة فى هذه المناطق، وأن هذه القوات تلقى أسلحتها وتستسلم دون قيد ولا شرط.

٢ - تتوقف فى الساعة الثامنة- حسب التوقيت البريطانى- من صباح يوم السبت فى ٥ مايو ١٩٤٥ جميع العمليات الحربية فى البر والبحر والجو من جانب القوات المسلحة فى المناطق المذكورة أعلاه.

٣ - تنفذ القيادة العليا الألمانية على الفور ودون مناقشة أو تعليق كل الأوامر التى يمكن أن تعطى لها فيما بعد فى أى موضوع كان من جانب الدول الحليفة.

٤ - إن عدم تنفيذ الأوامر، أو عدم طاعتها يعتبران خرقا لشروط هذا الاستسلام وتعاملهما الدول المتحالفة وفقا لأنظمة الحرب وعاداتها.

٥ - إن وثيقة الاستسلام هذه مستقلة، ولا تنتقص ولا تحل محل أية وثيقة استسلام عام تفرضه الدول الحليفة أو يفرض باسمها ويشمل ألمانيا والقوات الألمانية المسلحة بمجملها.

٦ - إن وثيقة الاستسلام هذه مكتوبة باللغتين الإنجليزية والألمانية، ويعتبر النص الإنجلزى هو الأصل.

٧ - يكون قرار الدول الحليفة نهائيا فى حال نشوء شك أو خلاف حول معنى أو تأويل شروط الاستسلام.

ب. ل. مونتجومرى	فريد بورج
فيلد مارشال	كنتزل
٤ مايو ١٩٤٥	فاجنر
الساعة ١٨,٣٠	بولك
	فرايدل

وكان علىّ أن أقوم بعمل كثير بعد توقيع وثيقة الاستسلام، وقد أعطيت الأمر بأن يتوقف كل عمل هجومى فى ٣ مايو عندما جاء الألمان لمقابلتى أول مرة، وكنت أعلم أنها النهاية، وأريد أن أتجنب وقوع خسائر أخرى بين القوات المعهود بها إلىّ، ففى ذلك الحين أصدرت أمرا بوقف إطلاق النار على أن يكون نافذا فى الساعة الثامنة من صباح السبت فى ٥ مايو ١٩٤٥.

لقد ربحنا الحرب ضد ألمانيا، والمهم الآن أن نربح السلام، وكثيرا ما أتساءل هل ربحنا السلام؟ والحقيقة أننى لا أعتقد أننا قد ربحناه.

* * * *

الفصل الحادي والعشرون
حول خواطر القيادة العليا
في زمن الحرب

لقد كان لى امتياز فريد أن أتولى - خلال حياتى العسكرية - القيادة على كل مستوى، من الرهط حتى مجموعة الجيوش، وأقول إنه امتياز فريد لأننى أشك فى أن يكون جندى آخر عامل الآن فى العالم الحر قد استفاد من مثل هذا الاختيار.

ولقد تبدلت الأيام منذ حملات مارلبورو و ولنجتون، ويكاد يمكننا القول إن هذين قد ربحا معاركهما وحدهما، فهما بالتأكيد لم تنهكهما آلاف التفاصيل فى العمل الضخم الذى تقوم به أركان الحرب وتستلزمه الجيوش الحديثة، ويمكن اليوم أن نشبه القائد الأعلى فى الميدان برئيس فريق هو بالإضافة إلى ذلك فريق كثير العدد.

وخلال صيف ١٩٤٥ طرح السؤال لمعرفة ما إذا كان يتوجب على الأمة أن تقدم هبات من المال إلى القادة العسكريين البارزين الذين مارسوا القيادة فى ساحات القتال، اعترافا بخدماتهم، ووفقا للسابقات التى أوجدتها الحروب السابقة.

ولكن مشاكل كبرى تنشأ عندما يأخذ الناس - بعد حرب حديثة - فى اختيار الأشخاص الذين كانت مساهمتهم فى المجهود الحربى من الطراز الأول فعلا، فماذا يحل بأولئك الذين نذروا أنفسهم للعمل فى الرادار، والأجهزة المضادة للغواصات، والاستخبارات، والأبحاث الطبية؟ ماذا يحل بجميع أولئك الذين ساعد عملهم الحثيث فى المراتب الدنيا على جعل النصر ممكنا؟

لهذه الاعتبارات كلها أعلنت فى سبتمبر ١٩٤٥ أنه إذا قدمت لى مكافأة مالية فسأرفضها، وقد كانت هناك بالطبع أسباب أخرى، فقد كنا فى ذلك الحين كدولة

على وشك الانهيار ماليا، وكان يصعب علينا أن نسمح بتخصيص نحو مليون جنيه استرليني لهذا الغرض، والمحارب القديم أيا كانت رتبته سيجد الحياة شديدة العسر في سنوات ما بعد الحرب، أفلا يحدث في نفسه رد فعل سيئ إذ يرى قوادا كبارا، مهما بلغ إعجابه بهم وإحترامه لهم، يتقاضون ١٠٠ ألف أو ٥٠ ألف جنيه مثلا بالإضافة إلى رواتبهم التقاعدية، بينما هو المحارب القديم لا يستطيع أن يسد حاجات ذويه إلا بصعوبة.

إن ملايين الناس سيعانون الجوع في مختلف أنحاء العالم، فلم يكن ضميرى ليعرف الراحة لو قدم لى مبلغ بمثل هذه الضخامة، لا لشيء إلا لأنى قمت بواجبى بأحسن ما أستطيع كما فعل الكثيرون سواى، ولذلك كانت وجهة نظرى ولاتزال أن أسلوب المكافآت المالية، سوى وجوه التكريم التى يمنحها التاج، هو أسلوب بال.

إن القيادة العليا اليوم أكثر تعقيدا مما كانت عليه فى الماضى، فيجب أن يكون للقائد الأعلى هيئة أركان حرب جيدة، ينسق أعمالها رئيس أركان حرب من الدرجة الأولى، وعلى القائد الأعلى أيضا أن يختار بعناية فائقة القواد التابعين له ويعهد إلى الجنرالات بالمهمات التى تناسب أمزجتهم، وعليه أن يعرف جنوده وأن يعرفه جنوده.

إن الجيش اليوم هو مجتمع مستقل، يشتمل على كل ما يحتاج إليه أعضاؤه من أجل الحرب، من العيارات النارية حتى بنوك الدم، فالقائد الجيد ليس عليه أن يربح المعارك فحسب، بل عليه أن يربحها بأقل قدر ممكن من الخسائر.

وعندما التحقت عام ١٩٤٢ بالجيش الثامن، لم يكن مسموحا للممرضات بأن يكن فى منطقة القتال، فألغيت هذا الأمر، وكان وجودهن مريحا للجنود المصابين بجروح خطيرة ومهدئا لأعصابهم، إذ أخذوا يدركون منذ ذلك الحين أنهم سيكونون محل العناية المناسبة.

كل هذه الأمور وكثير مثلها يجب أن تبقى حاضرة فى ذهن القائد العصرى، فعلى الصعيد الإدارى يجب أن تقرر النسب الدقيقة بين حاجات العمليات العسكرية والموارد الإدارية، وتتوقف فعالية التنظيم الإدارى على إستباقه للحاجات، فعلى القائد الأعلى فى الميدان أن يطلع دائما أركان حربه على نياته بحيث يمكن إنجاز الإعدادات الإدارية الضرورية فى الوقت المناسب، ولقد منى الكثيرون من القواد بالفشل لأنهم أهملوا التأكد من أن ما يريدون تحقيقه على صعيد العمليات منسجم مع مواردهم الإدارية، وبعضهم فشل أيضا لأنهم بالغوا فى تقدير حاجاتهم.

والعبرة التى يجب استخلاصها من ذلك، هى أنه يتوجب أن يكون هناك توازن بين هاتين الضرورتين، إن محك الضابط الذى يطمح إلى القيادة العليا هو قدرته على إدراك جوهر المشكلة الحربية بسرعة، وعلى التقرير الفورى لما يجب عليه فعله، وإفهام جميع المعنيين بوضوح ما ينوى فعله، وكيف سيمضى فى ذلك، ثم السهر على أن ينفذ المرؤوسون التابعون له أوامره، وعليه قبل كل شىء أن يتخلص من كل الشوائب التى لا علاقة لها بالموضوع، وأن ينصب على الجوهر وعلى التفاصيل الضرورية فقط لتنفيذ خطته، واثقا بهيئة أركان حربه، معتمدا عليها فى إجراء التنسيق اللازم.

وعندما يكون كل شىء قد قيل وعمل، فإن الميزة الكبرى المطلوبة من القائد الأعلى هى ميزة التقرير، فعليه أن يكون قادرا على إعطاء أوامر واضحة والزخم اللازم لتنفيذها، إن التردد لدى الضابط أمر مميت، أما لدى القائد الأعلى فهو جريمة، ولا يستطيع أى قائد أعلى أن يحرز نجاحا إذا هو أهمل العامل البشرى، فإنما تربح المعارك فى قلوب الرجال على الأخص، فإذا خسر القائد الأعلى معركة كسب قلوب رجاله، فلن يحقق إلا القليل.

وفى كل جيش يجب أن يكـون تنظيم القيادة والإشـراف بسيطا ودقيـقا، والذى يقود قوات وطـنية له دائما الحق بأن يطلع رئيسـه على وجهة نظره حول خـطة سير العمليـات، بل هو واجبـه أن يفعل ذلك، لكن حين يتـخذ الرئيس قـراره لا يبقى مجال للنقاش.

إن هناك ثلاثة أنواع من كبار القادة:

١ - أولئك الذين يملكون الإيمـان والإلهام، ولكنهم يفـتقرون إلى تـلك الطاقة غير المحدودة التى تسمح لهم باتخاذ جـميع الاستعدادات لمواجهة الطوارئ التى يمكن التنبؤ بها، وهذا أساس كل نجاح حربى، وهؤلاء يفشلون.

٢ - أولئك الذين يملكون هذه الميزة، ويلهمهم معـها إيمان وإقتناع هم بفضلها قادرون فـى اللحظة التى يتطلب فيـها الموقف الإقـدام على المجازفـة بكل شىء من أجل كل شىء، ففـى الحرب يجب أن يعرف المرء كـيف يجازف لينتصر.

٣ - أولئك الذى يملكون هذه الميزة إلى درجة تقرب من العبقرية.

وللمارسة مهـمات قيادة عليا بنجاح، يجب أن تكون للقـائد الأعلى المقدرة غير المحدودة، على التطبيق والتحضير الفطن، وأن يتحلى بإيمان صميمى يتجاوز أحيانا حدود ما هو مـعقول، فبعد القـتال فترة طويلة فى الغالب لإحـراز الأفضلية، تأتى فجـأة ساعـة الإقدام، فـهل يجب عندئذ المقامـرة بكل شىء من أجل كل شىء، والسمو من المعلوم لإدراك المجهول؟

إن الجـواب على هذا السؤال هو الذى يكـشف عن قائد الحـرب العظيم أو لا يكشف عنه.



الفصل الثاني والعشرون
الرقابة على ألمانيا بعد الحرب

في ٨ مايو ١٩٤٥، انتهت الحرب رسميا في أوروبا، إذ وقع ممثلون عن القيادة الألمانية العليا وثيقة الاستسلام العسكرى، لكن يجدر التنبيه بأن هذا الاستسلام كان صنع القيادة العليا لا حكومة الأميرال دونتز الألمانية، التى اتخذت لنفسها صفة تمثيل الأمة الألمانية بعد إعلان موت «هتلر» فى برلين.

والحق أن الحلفاء رفضوا الاعتراف بهذه الحكومة، واعتقل «دونتز» بعد ذلك فى فلنسبورج، فوجدنا أنفسنا بالتالى أمام وضع يختلف كل الإختلاف عن ذاك الذى كان محل البحث فى اللقاءات بين «تشرشل» و «روزفلت» و «ستالين»، التى نوقش فيها أمر التنظيم الحليف لاحتلال ألمانيا، فقد كان الاتفاق الذى تم بينهم أن تنشأ فى برلين لجنة رقابة تضم أربعة أعضاء: بريطانى، وأمريكى، وروسى، وفرنسى، على أن يكون تحت إمرة كل من هؤلاء الأعضاء مندوبه وهيئة أركان حربه الخاصة المدنية والعسكرية، مع أمانة سر مركزية مشتركة بين الحلفاء، وعلى الأعضاء الأربعة المجتمعين فى برلين أن يتركوا لحكومة ألمانية مركزية طريقة إدارة البلاد، أضف إلى ذلك أن ألمانيا ستقسم إلى مناطق تحتل كل دولة من دول الحلفاء منطقة تشرف داخلها على تنفيذ مقررات لجنة الرقابة التى تنشأ لدى استسلام الحكومة الألمانية دون قيد ولا شرط.

ومع ذلك فعندما حان الوقت، لم يعترف الحلفاء بأية حكومة ألمانية يمكنها الاستسلام، وبالتالى لم تتمكن لجنة الرقابة من مباشرة أعمالها أوتوماتيكيا، ولم يكن لدى الألمان أى جهاز حكومى مركزى تستطيع بواسطته لجنة الرقابة أن تعمل، وكانت

برلين قد دمرت تدميرا جعل الروس يدعون أنه لا يمكن حكم ألمانيا من هذا الركام من الأنقاض، وعلى الرغم من أن «إيزنهاور» عين عضوا فى لجنة الرقابة، فلم يكن أى عضو بريطانى أو روسى قد عين بعد، أما فى المنطقة التى يحتلها الحلفاء الغربيون فيواصل المقر العام الأعلى لقوات الحملة الحليفة العمل كمقر عام للعمليات، وكان علينا أن نبدأ فى حكم ألمانيا بمساعدة الآلة الإدارية والعسكرية.

وكانت هناك مشاكل مدنية هائلة يقتضى حلها فى المنطقة التى تحتلها مجموعة الجيوش الحادية والعشرون، فقد لجأ إليها أكثر من مليون مدنى هاربين من وجه الروس، وكان هناك نحو مليون ألمانى جريح فى مستشفيات المنطقة بدون مواد طبية، واستسلم أكثر من مليون ونصف مليون مقاتل ألمانى غير جرحى فى ٥ مايو لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، فهم الآن أسرى حرب بكل ما تقتضيه هذه الصفة، وكانت الأغذية على وشك النفاذ.

وتوقفت مصالح النقل والمواصلات الألمانية عن العمل، وتجمد القسم الأكبر من الصناعة والزراعة، وكان المهم إطعام السكان وإسكانهم وحفظهم من الأوبئة.

وأخيرا، وقع الصدام بين الروس والغربيين، فقد كان تفكيرهم إزاء كل مشكلة يختلف كل الاختلاف عن تفكيرنا، وكان سلوكهم خاصة أسلوب تعاملهم مع النساء يثير فى نفوسنا الذعر، وفى بعض قطاعات المنطقة الروسية لم يبق عمليا ألمان، إذ هربوا جميعا قبل وصول البرابرة، مما أوجد بالنتيجة فى المناطق الغربية سيلا من اللاجيئن بلغ من التدفق حدا جعل مشاكل التغذية والإسكان تكاد تبدو مستعصية على الحل.

وكان من الضرورى أن نقبض على هذه المشكلة الكبرى بكل جرأة وبأسرع وقت، ولقد تنبأت بهذه الضرورة قبل أن تنتهى الحرب، فأبلغت وزارة الحربية فى

٢٤ أبريل أننى أرى وجوب تعيين الرجل الذى سيكون قائدا أعلى للمنطقة البريطانية وممثلا لبريطانيا فى لجنة الرقابة دون تأخير.

ولكننى لم أستطع أن أحمل «هوايتهول» على العمل بصورة من الصور فى هذا الصدد، بيد أننى فى الوقت الحاضر كنت أنا الرئيس، فانصرفت إلى العمل على طريقتى.

وكان أول ما يجب فعله إعطاء أوامر حازمة جدا بمنع النهب والاستيلاء على وسائل النقل الألمانية، ذلك إنه إذا كان يتوجب أن تنهض ألمانيا بسرعة فستحتاج إلى السيارات لمواصلاتها ونقلياتها.

وفى ٦ مايو أصدرت الأوامر المقتضاة، فمنعت النهب الفردى والجماعى بصورة قاطعة، وأكدت أن كل مخالفة تعرض صاحبها - أيا كانت رتبته - للإحالة إلى المحكمة العرفية، وإذا كان قائد من القواد أو وحدة من الوحدات بحاجة إلى أى شىء للاستعمال الجماعى من قبل الضباط أو الجنود، فيجب تقديم طلب إلى السلطة العليا بالتسلسل فتصادر المواد المطلوبة بصورة نظامية، وتنطبق هذه القواعد أيضا على السيارات وغيرها من العربات.

وكانت خطتى للمنطقة البريطانية تقوم على مبدأ استعمال نظام القيادة الألمانى بالدرجة الأولى، إذ توجه أوامرى المتعلقة بالقوات الألمانية إلى الفيلد مارشال «بوش»، القائد العام الألمانى فى شمالى غربى أوروبا، وكان عليه أن يقيم مقره العام فى شلسفيج - هولشتاين، على أن يلازم رئيس أركان حربه الجنرال «كنتزل» مع هيئة أركان حرب صغيرة وفريق من ضباط الإرتباط مقرى العام.

ثم نظمت المنطقة البريطانية فقسمتها إلى مقاطعات بالنسبة للواجبات الناشئة عن الإحتلال:

١ - مقاطعة برلين (الجنرال لاين).

تحتلها القوات التى ستتوجه إلى برلين بعد الوصول إلى اتفاق مع الروس.

٢ - مقاطعة شلسفيج - هولشتاين (الجنرال باركر).

الجحفل الثامن مع فرقتين ولواء مدرع.

٣ - مقاطعة هانوفر (الجنرال هورروكس).

الجحفل الثلاثون مع ثلاث فرق ولواء مدرع.

٤ - مقاطعة وستفاليا (الجنرال كروكر)

الجحفل الأول مع أربع فرق ولواء مدرع.

واحتفظت بعدد من التشكيلات الأخرى فى الاحتياط لاستخدامها فى حال حصول اضطرابات، وأصدرت كذلك أمرا بالتوقف عن تدمير الأسلحة والأعتدة الحليفة احتياطا لحالة قد يحتاج معها الحلفاء إلى هذه الأسلحة والأعتدة لسبب من الأسباب، وبوجوب حفظها كلها.

وكان هدفى إقامة حكومة محلية فى المنطقة البريطانية، مستخدما نظام قيادتى بمقرات عامة للجحافل والفرق والألوية والفيالق، فهذه يجب أن تحتل مناطق تطابق المقاطعات والكوميونات وغيرها، والعمل فى كل حال بمساعدة التنظيمات المدنية المختصة.

وقررت أن تؤخذ حاجات السكان المدنيين بعين الإعتبار بالترتيب الآتى:

التغذية ، الإسكان، الحيلولة دون الأوبئة، ثم يجب العناية بمسألة النقليات وكثير من المشاكل الأخرى.

وكانت أهم مشكلة: المشكلة الغذائية، وكـان الكثير يتوقف على الموسم المقبل، فأصــدرت أمرا يمنع على القوات المسلحــة أن تشترى أو تصادر المواد الغــذائية، إذ يتوجب على السكان المدنيين أن يحتفظوا بها لحاجاتهم الخاصة.

لقد وجدت نفــسى فجأه مسـئولا عن إدارة نحو ٢٠ مليون ألمانى ورفـاهيتهم، فكان علىّ أن أحل مشاكل مخيفة، وإذا هى لم تحل قبل بدء الشتاء فإن عددا كبيرا من الألمان سيموتون من الجوع والبرد والمرض.

بينما كـانت الأيام تنقضى بعــد انتهاء الحــرب فى ألمانيا، كان قلــقى يزداد بسبب افتقارنا إلى التنظيم الملائم لإدارة ألمانـيا، لذلك أخذت الطائرة فى ١٤ مايو إلى لندن لأوضح لرئيس الوزراء أنه لا غنى عن اتخاذ قرار سريع لتـعيين قائد أعلى للمنطقة البريطانية، بحيث يتمكن الرجل الذى سيعين فى هذا المنصب من تنسيق خطط لجنة الرقابة مع أعمال الحكومة العسـكرية، وكانت مهمتى إقناع رئيس الوزراء بأن مشكلة حكم ألمانيا بالغة الأهمية إلى حد يقتضى معه اتخاذ قرار حيوى، ونجحت فى ذلك، إذ قرر رئيس الوزراء تعـيينى قائدا أعلى لقوات الإحـتلال البريطانية وعـضوا يمثل بريطانيـا فى لجنة الرقـابة على ألمانيا، وطـلبت أن يكون مندوبى فى اللجنة الليـوتنان جنرال السير «رونالد ويكس»، نائب رئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية فى وزارة الحربية، فقبل طلبى، وأذيعت هذه التعيينات فى ٢٢ مايو.

وفى اليوم التالى جمعت فى لندن الأعضــاء المدنيين فى الأقسام البريطانية للجنة الرقابة وشــرحت لهم المشكلة المتعلقة بألمـانيا، وقد قلت لهم إن كل مـا كنا نستطيع فعله فى الوقت الحاضر بعد أن افتتــحنا ألمانيا، هو أن نفرض عليها حكما عسكريا، وقد فعلنا ذلك، ولكن يجب ألا يدوم هذا الوضع وقـتا أطول مما ينبغى، فعلينا أن ننشىء رقابة مدنية، فمن المهم إذن أن تكون خطط الحكم العسكرى القصيرة الأجل متصلة اتصالا مباشرا مع خطط الأقسام المدنية البعيدة المدى، ولتحقيق هذا الهدف

يستحسن أن أرى هذه الأقسام المدنية مقيمة فى ألمانيا بأسرع وقت ممكن ، ثم عرضت أساليبى الخاصة فى العمل وكيف استخدم النظام القاضى بوجود رئيس لأركان الحرب، وبعد أن أصدرت الأوامر بإقامة العنصر المدنى فى لجنة الرقابة فى ألمانيا، عدت إلى مقرى العام بطريق باريس.

وعدت إلى ألمانيا فى ٢٦ مايو، فعلمت أن شغبا ظهر من أسرى الحرب فى معسكرهم ومن السكان المدنيين فى المنطقة البريطانية، وكان هؤلاء جميعا قلقين على مصيرهم فى المستقبل.

وعندما لاحظت فى آخر مايو أن الألمان فى المنطقة البريطانية قد أصبحوا صعاب القياد، وأنهم قلقون على المصير الذى ينتظرهم، عزمت على أن أوجه إليهم رسالة أشرح لهم فيها ما أنوى فعله، تماما كما كنت أفعل مع جنود الجيوش التى كنت أقودها خلال الحرب.

وفى الأيام التى عقبت الاستسلام، كان موقف الألمان على الجملة سليما، سواء كانوا عسكريين أم مدنيين، لقد كانوا على استعداد لتنفيذ الأوامر المعطاة أيا كانت، إذ كانت خشيتهم الكبرى أن يعادوا إلى المنطقة الروسية.

* * * *

الفصل الثالث والعشرون
بدء المتاعب مع الروس

فى يوم ٢٣ مايو ١٩٤٥، خولنى الملك صلاحيات مطلقة لتوقيع تصريح الحلفاء المتعلق بهزيمة آلمانيا واستسلامها بلا قيد ولا شرط، وللمفاوضة مع الدول الأخرى فى المسائل المتصلة بالاستسلام، وكُلفت فيما بعد بالسهر على أن تكون بنود هذا التصريح موضع التقيد الدقيق.

وحيث إن حفلة التوقيع الكبرى واجتماع لجنة الرقابة يجب أن يجريا فى برلين فى الخامس من يونيو، فقد وصلت فى الساعة الواحدة بعد ظهر هذا اليوم نفسه إلى مطار تمبلهوف قادما من المنطقة البريطانية بطريق الجو، فاستقبلنى عدد كبير من كبار الضباط الروس بين جمع غفير من الصحافيين من جميع الجنسيات.

وجرى توقيع التصريح فى الساعة ١٦,٣٠ فى أنوار المصابيح المشعة من على أقواسها وأمام جمع غفير من الصحافيين والمصورين.

وبعد التوقيع الرسمى انسحب أعضاء لجنة الرقابة الأربعة ومستشاريهم ليعقدوا اجتماعا خاصا، وافتتح «إيزنهاور» الحديث موضحا أن تصريح الدول الأربعة الذى وقعناه يجعل من القادة الأعلين الأربعة وحدة حكومية مستقلة، فيتحتم علينا الآن أن نتفق على الجهاز الذى يسمح لهذه الوحدة الحكومية بالعمل، واقترح أن تنصرف أركان حربنا إلى العمل فورا فتدرس المشاكل المتعلقة بلجنة الرقابة، وبعد موافقة اللجنة ترفع نتائج الدراسة إلى الحكومات.

ولكن «جوكوف» صرح بكل وضوح إن إنشاء جهاز لجنة الرقابة لا يمكن أن يتم قبل انسحاب القوات البريطانية والأمريكية إلى مناطقها، وما دام هذا لم يحدث لن

يمكن للمندوبين أو لأركـان الحرب الشـروع فى أى عمل اسـتشكافى، فـقلت إن قواتنا وصلت إلى مواقعها الحالية على أثر العمليات الحربية، وأن تجميعها من جديد وإعادتها إلى مناطـقها يستغـرق بعض الوقت، فسألنى «جوكـوف» كم يقتضى هذا الأمر من الوقت؟ فأجبـته: ثلاثة أسابيع على الأقل، فقبل على الفور، مـضيفا أن القواد الأعلـين يمكنهم فى هذه الفتـرة أن يشكلوا أركان حـربهم المفترضـة للجنة الرقابة، وقال: إنـه لن يكون لديه أى اعتراض عندما يحـين الوقت، على أن تعمل لجنة الرقابة فى برلين.

وألقى «إيزنهاور» عندئذ كلمـة ممتازة اختتم بهـا الاجتماع، فـقال: إنه جاء وهو مقتنع بأن إقـامة جهاز لجنة الرقابة وانـسحاب القوات الغربيـة من المنطقة السوفيـتية يمكن أن يحدثا مـعا فى وقت واحد، على أنه بات واضحا الآن- تـبعا لملاحظات «جوكوف» - أن الأمر لـيس كذلك وأن الروس غير مستـعدين لدرس المسائل التى تهم لجنة الرقابة قبل أن تكون القوات البريطانية والأمريكية قد انسحبت من مناطقها، فلم يكن هناك إذن شىء آخر يمكن فعله فى الوقت الحاضر سوى اطلاع حكوماتنا على ما جرى، وطلب تعليمات جديدة.

كما رأينا، لم يسفر الاجتماع الأول لقواد الحلفاء الأعلين عن أية نتائج، فالموقف الروسى، على الرغم مما ارتداه من طابع الود، كـان مبهمـا يصعب سبـر أغواره، وكانت لدينا أدلة دقـيقة على وجود دعـاية شيوعـية روسية فى بعض أجـزاء المنطقة البريطانية، وقد تشكلت خلايا فى كل المناطق التى يحتلها الحلفاء الغربيون، واقتضى هذا الأمر مراقبة بأشد اليقظة، إذ أن هذه الخـلايا الشيوعية توقد النار فى كل مكان تبدو فيه أمارات خلاف فى المعسكر الغربى، وكانت الدعاية الشيوعية ناشطة بشكل خاص فى المعـسكرات التى أقمناها للأشـخاص النازحين، وكـانت مسألة التـغذية تشغل بالى، فإذا لم تتحـسن الأوضاع الغذائية فقد نواجه فى الشتـاء المقبل مجاعة

خطيرة، ولا تكاد المنطقة البريطانية تنتج نصف الأغذية التى يحتاج إليها عشرون مليونا من السكان.

ولم تكن الحصة المخصصة للشخص الواحد فى اليوم الواحد أكثر من ١٢٠٠ وحدة حرارية، وإذا أردنا رفع هذه الحصة إلى ١٨٠٠ وحدة حرارية، فهذا يقتضى أن نستورد خلال اثنى عشر شهرا مقبلة ما يساوى مليونى طن من القمح، أضف إلى ذلك أن الكثير كان يتوقف على وسائل النقل والتوزيع، وهذه الوسائل كانت غير مستقرة، وفى كل مكان كان الفحم يشكل أولى الحاجات الملحة، وكان لدينا ١٤٠ منجما تنتج يوميا ٤٠ ألف طن، ولم تكن هذه الكمية كافية إلى حد بعيد، وإذا أردنا الحصول على مزيد من الفحم فإن علينا تغذية عمال المناجم تغذية ملائمة، وكان لدينا أيضا مليونان ونصف مليون من أسرى الحرب، وقد أطلق سراح هؤلاء وأرسلوا إلى العمل بواقع ١٢ ألفا كل يوم، وكانت سياستى إزاء هؤلاء الأسرى الإفراج عن أولئك الذين يمكن اعتبارهم غير مؤذين، والاحتفاظ بجنود القمصان السود فى المعسكرات.

وإذا شئنا أن يعمل جميع الألمان فى تجديد بلادهم، فإن علينا أن نكف عن لعنهم، فالحرب مع ألمانيا قد انتهت، ويتوجب علينا إعطاء الألمان أوامر محددة ونسهر على أن تنفذ هذه الأوامر، علينا أن نكون صارمين لكن عادلين.

وكان علىّ أيضا أن أهتم بجيشنا، فمن المهم عدم إزعاج الجنود باستخدامهم فى المهمات الناشئة عن الإحتلال، وعدم إرهاقهم بأعمال حراسة تتكرر أكثر مما ينبغى، فنحن لا نستطيع مراقبة كل شىء، وقررت ألا نحرس إلا المنتجات الغذائية والمتفجرات وبعض الأسلحة والسجناء الخطرين.

وبدأ تطبيق خطة التسريح، وكنت أشعر أننى لا أستطيع أن أترك أولئك الذين أبلوا البلاء الحسن يذهبون دون أن أوجه إليهم كلمة شكر على ما قاموا به، فقررت أن أرسل إلى كل ضابط وكل جندى يغادرنا رسالة شخصية مطبوعة على بطاقة.

وبعد اجتماعنا فى برلين فى ٥ يونيو مباشرة، اتخذت قرارا بتوزيع المقرات العامة الرئيسية للجنة الرقابة، الأقسام العسكرية والمدنية، فى المنطقة البريطانية بين هانوفر وأوسنابروك، ولم يكن ممكنا إدخال برلين فى الحساب فى الوقت الحاضر، وقررت أن يكون لى مقر عام تكتيكى مع الأمريكيين فى فرانكفورت، وهو تدبير أقره «إيزنهاور»، وأملت أنه بهذه الطريقة تستطيع حكومة تتصرف بانتظام أن تعمل بسرعة فى المنطقة البريطانية وتساير خطوات الأمريكيين، وعندما سنتمكن من الذهاب إلى برلين سأنقل مقرى العام التكتيكى من فرانكفورت إليها، وفى الحقيقة أننى كنت أنوى الاحتفاظ بأهم أقسام لجنة الرقابة فى المنطقة البريطانية، إذ فى هذه المنطقة تفرض المشاكل نفسها، أما ما سننقله إلى برلين فلا يخص أحد سوانا، ولم يكن فى نيتى أن أدع الروس يسنون لى القوانين فى هذه المنطقة.

بعد أن أعطيت أوامرى فيما يتعلق بجميع هذه المسائل وكثير غيرها، توجهت فى ١٦ يونيو إلى لندن لأحاول الحصول على مقررات حول بعض الشئون السياسية، وأهم المسائل التى أثرتها كانت المسائل الثلاث الآتية:

أ - لن يتعاون معنا الروس فيما يتعلق بالمسائل التى تعود إلى لجنة الرقابة، مادام الحلفاء لم يسحبوا قواتهم إلى مناطقهم، ولم يكن هناك بالنسبة إلينا أى مبرر ذى طابع عسكرى للبقاء حيث نحن، ولا مفر فيما يبدو من الشروع فى أسرع وقت بالمباحثات حول المسائل التى تتعلق بلجنة الرقابة، وقد ضاع حتى الآن كثير من الوقت الثمين وما تزال قرارات هامة معلقة بانتظار عقد اجتماع بين أعضاء لجنة الرقابة، ولذلك نصحت بإلحاح أن يحصل اتفاق فى موعد قريب حول الإنسحاب إلى المناطق المحددة من قبل.

ب - ما لم يحتفظ بعدد كبير من الضباط تطبيقا لمادة الضرورة العسكرية الملحة، فإن عمليات التسريح المرتقبة ستكون نتيجتها أن تخسر بعض أقسام أركان

الحرب أكثرية ضباطها المدربين الذين يشكل تعيين سواهم فى أمكنتهم أكبر الصعوبات.

جـ - لقد جمعت كميات ضخمة من السلاح والعتاد الألمانى، وأصبح على الجندى البريطانى بالإضافة إلى كل واجباته الآخرى أن يقوم الآن بالحراسة حول تجميعات هذه الأسلحة، وبالنظر إلى عدد هذه المستودعات وأحجامها، يصعب حراستها بصورة ملائمة، وهناك خطر كبير فى أن يعود جزء من هذه الأسلحة إلى أيدى العدو، ولذلك أعطيت التعليمات بحفظ هذه الأسلحة سليمة، وأنا الآن ألح على إلغاء هذا الأمر لأتمكن من تدمير الأسلحة.

وأثناء إقامتى فى لندن شرحت للحكومة البريطانية المشاكل التى يتحتم علىّ أن أواجهها واستحالة تحقيق كثير من التقدم فى إدارة ألمانيا ما دام جهاز اللجنة المركزية لا يستطيع أن يعمل، فعلمت أن مباحثات تسير سيرا حسنا بين رئيس الوزراء والرئيس «ترومان» والمارشال «ستالين» فيما يتعلق باحتلال المناطق المخصصة للدول الأربعة الكبرى فى ألمانيا أم فى النمسا، حيث يحتل الروس منطقة كبيرة يجب أن يسلموها للحلفاء الغربيين.

وفى ١٩ يونيو، أبلغت أن المارشال «ستالين» وافق على الانسحاب المتزامن فى المناطق المشار إليها من ألمانيا والنمسا وانتقال حاميات إنجليزية فرنسية أمريكية إلى برلين، على أن تبدأ هذه التحركات المختلفة فى حوالى أول يوليو، وقد علقت على هذا الإتفاق أهمية عظمى اذ أن مؤتمر الأقطاب الثلاث كان يجب أن يعقد فى منتصف يوليو ببرلين، وكان من المنتظر أن يكون كل من الحلفاء قد عاد إلى منطقته فى هذا التاريخ.

وعلى أثر هذا الاتفاق بين الحكومات على الانسحاب المتزامن إلى المناطق المعنية، سافر الجنرال «ويكس» والجنرال «كلاى»، وهما يمثلان بريطانيا وأمريكا فى

لجنة الرقابة، بالطائرة إلى برلين فى ٢٩ يونيو للتباحث مع المارشال «جوكوف» فى الطريقة التى يجرى بها الانسحاب، وتقرر فى هذا الاجتماع أن تبدأ عمليات الانسحاب فى أول يوليو، فيخلى البريطانيون متكأ فيسمر فى يوم واحد، ونتوء ماجدبورج فى يومين، ويستغرق جلاء الأمريكيين عن القسم الذى يحتلونه من المنطقة الروسية ما بين ستة وتسعة أيام، وتحتل طلائع بريطانية وأمريكية قطاعاتها فى برلين فى أول يوليو، وتتبعها مجموعة القوات العظمى فى ٤ يوليو، وأوضحت للروس ضرورة الوصول بحرية ودون عقبات إلى هذين القطاعين، فقبل الروس بأن يمنح البريطانيون والأمريكيون طريقا بريا وخطا حديديا مع الحق باستخدامهما، على أن يتحمل الروس مسئولية العناية بهما والإشراف عليهما، وكذلك وافق الروس على تخصيص مطار طوال انعقاد مؤتمر الأقطاب الثلاث، أما تخصيص مطارات أخرى فقد أُرجىء النظر فيه إلى مباحثات لاحقة، واتفق على إنشاء ممر جوى إلى برلين يبلغ عرضه عشرين ميلا، وسمح باستخدام هذا الممر مع تحفظ يقضى بإبلاغ الروس قبل ساعة من الزمن كلما أرادت طائرة أن تدخل أجواء منطقتهم.

وكنتيجة لهذا المؤتمر، بدأت فى أول يوليو الأنسحابات إلى المناطق المتفق عليها، وفى اليوم نفسه توجهت الطلائع إلى برلين.

وتم الاتفاق أيضا على الترتيبات الواجب اتخاذها لعقد مؤتمر الأقطاب الثلاث فى برلين، وشرع القطاع البريطانى فى برلين بالأشغال التى يقتضيها انعقاد المؤتمر، وجرى تسليم منطقتى فيسمر و ماجدبورج إلى الروس دون اصطدمات وأنتهى ذلك فى ٤ يوليو، وفى الوقت نفسه توجهت قوة مؤلفة فى معظمها من الفرقة السابعة المدرعة لاحتلال القطاع البريطانى فى برلين، وحلت هذه القوة محل الروس الذين سحبوا معظم قواتهم، ولكنهم رفضوا أن يسحبوا القوات التى كانت تشكل فى برلين الحكومة العسكرية ما لم يتحمل البريطانيون مسئولية تغذية ٩٠٠ الف ألمانى

يعيشون فى هذا القطاع، وواجه الأمريكيون شرطا مثل هذا فى قطاعهم أيضا، وكانت برلين تتلقى عادة فى مجملها موادها الغذائية من المنطقة الواقعة على بعد ٥٠ ميلا من العاصمة، وهى الآن محتلة كلها من الروس، ولذلك بدا ما يشترطونه غير معقول، وبعد مباحثات طويلة واجتماعات كثيرة تم الإتفاق أخيرا على أن يؤمن البريطانيون والأمريكيون لمدة شهر تغذية سكان قطاعيهم فى برلين دون أن يؤثر هذا على القرار المقبل الذى سيتخذ فى المسألة المبدئية وهى التى ستبحث فى مؤتمر الأقطاب الثلاث.

وفى هذه الأثناء كانت مسألة مستقبل ألمانيا وعمل لجنة الرقابة قد تركت ليتخذ بشأنها القرار المناسب فى مؤتمر الأقطاب الثلاث الذى سيفتتح فى برلين فى ١٦ يوليو، وكان قد إتضح لى أن الروس لن يوافقوا على إعادة بناء ألمانيا كوحدة اقتصادية ، فالجيوش الروسية كانت فى منطقتها تعيش عالة على البلاد ناهبة خيراتها لانتظام.

وبعد تعيينى عضوا بريطانيا فى لجنة الرقابة الحليفة تلقيت توجيها مسهبا لكن غير دقيق، يتعلق بالمسلك الذى يجب علىّ إنتهاجه، وكان هذا التوجيه يفترض أن لجنة الرقابة ستعمل، وأنها ستحل بقرارات اجماعية جميع المشاكل التى تواجهها، غير أن الموقف كان فى الواقع مختلفا كل الاختلاف عما يراه السياسيون، فالروس لم يكونوا مستعدين لأن تشرع لجنة الرقابة فى العمل، أضف إلى ذلك إنه لم يكن فى ألمانيا أية سلطة مركزية تستطيع هذه اللجنة بمساعدتها أن تعمل، ولمواجهة هذا الوضع طلبت من هوايتهول أن تعطينى تعليمات جديدة، وأخيرا خولنى وزير الحربية حق العمل بمبادرة شخصية منى على أن أحاول جهدى أن أعمل بقدر المستطاع بالانسجام مع الخط الأمريكى، فحررت عندئذ لأركان حربى سلسلة من المذكرات أشرح لهم فيها سياستى العامة المتعلقة بإدارة المنطقة البريطانية فى ألمانيا، وكان كلما تقدم صيف ١٩٤٥ اتضح أن الأمور لا تسير فى الاتجاه الذى توقعناه،

وكان هذا عائدا لمتاعبنا مع الروس ولاختلاف الآراء أيضا بين الحلفاء الغربيين أنفسهم، لقد كنا مقيدين ببروتوكول بوتسدام الذى ينص فيما ينص عليه، على تعويضات متوجبة للروس من المنطقة البريطانية، وعلى إسكان اللاجئين فى المنطقة البريطانية، وعلى معاملة ألمانيا كوحدة اقتصادية تحت إدارة ألمانية مركزية وكانت هناك مشكلة أخرى متأتية من أنه إذا كان على ألمانيا أن تدفع نفقات الإحتلال البريطانى فيجب أن تتاح لها القدرة على فعل ذلك، ولكن طاقتها الصناعية كانت منخفضة انخفاضا كبيرا، وسفنها اضمحلت وأموالها فى الخارج مجمدة، واللاجئون يتدفقون كالسيل على ألمانيا الغربية، وكان هذا يقتضى إطعام عدد من السكان أكبر، وتوفير عمل لهؤلاء السكان الذين يستحيل تصديرهم، وما دامت ألمانيا لم تستأنف مبادلاتها الدولية فلن تتمكن من الدفع ولم يكن الروس ليهتموا بكل هذا، ففى رأيهم أن على ألمانيا أن تدفع تعويضات سريعة على شكل آلات وعلى صورة عمل، ذلك أن ألمانيا المستاءة المقطعة الأوصال ستساعد على انتشار الشيوعية.

وكان الفرنسيون يدركون وجهة النظر البريطانية، ولكنهم كانوا حذرين إزاء كل محاولة لإعادة بناء ألمانيا عدوتهم القديمة.

أما الأمريكيون فلم يكونوا يحبذون فكرة إيقاف ألمانيا على قدميها بمساعدتهم لمجرد إيجاد سوق لبريطانيا العظمى أو للتوفير على المكلف البريطانى.

وكانت مهمة لجنة الرقابة توليد أوروبا جديدة، أوروبا يعيش فيها ٧٠ مليون ألمانى بسلام، كوحدة تامة، ولم نكن نستطيع أن نبلغ هذا الغرض إلا برقابة رباعية على حكومة ألمانية مركزية، ويتوقف المستقبل على قدرتنا على النجاح أكثر مما يتوقف على قدرة ألمانيا إذا تركناها وشأنها.

وكانت المنطقة البريطانية تشكل همى المباشر، وكنت حريصا على أن أستخرج شيئا من النظام من قلب الفوضى القائمة، وأن أجعل العشرين مليون ألمانى يجتازون الشتاء دون صعوبة، ولم يكن فى نيتى أن أدع متاعبنا مع الروس تثنينى عن عزمى.

الفصل الرابع والعشرون
النضال لإنهاض ألمانيا

فى منتصف يوليو ١٩٤٥، حل المقر العام الأعلى لقوات الحملة الحليفة، ولكن «إيزنهاور» بقى قائدا أعلى وحاكما عسكريا للمنطقة الأمريكية.

ولقد كنت دائما أرى أن هذا التدبير خطأ كبير من جانب الحلفاء الغربيين، فكل شرقى ألمانيا يؤلف منطقة يحكمها رجل واحد هو «جوكوف»، بينما قسمنا نحن ألمانيا الغربية إلى ثلاث مناطق مستقلة، يحكم كلا منها حاكم عسكرى مختلف، وكان رأيى وجوب احتفاظ «إيزنهاور» بحكم نصف ألمانيا الغربى، فبذلك كان الروس يواجهون جبهة واحدة، ولقد ارتدت علينا نتائج هذا الشموخ القومى.

وعندما توقف المقر العام الأعلى لقوات الحملة الحليفة عن ممارسة الحكم، كانت كل من الدول الأربع المحتلة قد تسلمت منطقتها فى ألمانيا وأنشأت حكومة عسكرية وكان الانتقال بين مناطق الحلفاء الغربيين حرا، ولكن الدخول إلى المنطقة الروسية كان ما يزال ممنوعا، ولكى يسمح الروس للحلفاء الغربيين بالوصول إلى قطاعاتهم فى برلين، أعطوهم طريقا بريا، وخطا حديديا، وممرا جويا، لكن لم يكن يسمح بأى تحول عن هذه الخطوط، أما فى داخل برلين فكان التجول مسموحا به بين كل القطاعات.

وفى المنطقة البريطانية، كان تسريح الجيش الألمانى يجرى بصورة مرضية، وأرسل عدد كاف من الرجال إلى الريف ليعملوا فى الحصاد، لكن مقابل ذلك وصل عدد كبير من الأسرى من النرويج، فبلغ مجموع الأسرى الألمان الموجودين الآن فى المنطقة البريطانية، مليونا وثمانمائة وخمسين ألفا، وازداد إنتاج الفحم بالتدريج، إذ

تحسنت تغذية عمال المناجم، واستأنفت مصالح النقل والتوزيع العمل بمقدار ما كان يسمح توفر السيارات وإصلاح الطرقات والخطوط الحديدية.

واستؤنفت صناعة صيد السمك على طول الشاطئ، وبفضل هذه الصناعة أمكن إكمال المخزون من المواد الغذائية، وكانت مشكلة الأشخاص النازحين الذين بقى منهم مليون وثلثمائة ألف دون عمل، ما يزال حلها شديد الصعوبة، وكان الروس يقبلون بانتظام مستمر رعاياهم النازحين، ويرفضون رفضا باتا استقبال البولونيين، ما دام رعاياهم لم يعادوا إلى وطنهم بعد.

ومن جهة أخرى بدأنا الآن نعرف كيف يدير الروس منطقتهم فى ألمانيا، فمنذ توقف القتال أخذ الروس ينهبون هذه المنطقة بانتظام، مفككين جميع الآلات ومرسلينها إلى الشرق مع كل المخزونات التى يمكنهم وضع أيديهم عليها، وكانوا يعتبرون هذا العمل تعويضا جزئياً عن كل ما نالهم على يد الألمان من أذى، وما نهبه هؤلاء من روسيا، أضف إلى ذلك أن الجيش الروسى يعيش عالة على البلاد مستهلكا حتى آخر حبة مخزونات الأغذية فى المنطقة الروسية.

وأخيرا أعطى الروس كل الأرض الواقعة شرق خط أودر - نيسه إلى بولونيا، وكثير من سكان هذه المنطقة الألمان الذين كان عددهم يبلغ قبل الحرب نحو عشرة ملايين، طردهم البولونيون إلى المنطقة الروسية من ألمانيا، أما العدد القليل من السكان الذين بقوا فى هذه المنطقة عالية الإنتاج فلم يكن كافيا لحرثها وزرعها وجعلها تنتج بعض ما كانت تنتجه فى الماضى، وعلى ذلك فلم يعد لدى المنطقة الروسية من ألمانيا، كما كان لديها فى الماضى، فائض من الأغذية يسمح لها بإطعام ألمانيا الغربية، بل كانت فى حالة الموت من الجوع، أضف إلى ذلك أن طاقة ألمانيا الشرقية الصناعية تضاءلت يوما بعد يوم حتى أصبحت لا تذكر.

فى ١٥ يوليو، وصل رئيس الوزراء والرئيس «ترومان» والمارشال «ستالين» إلى برلين لحضور مؤتمر «بوتسدام»، وفى اللحظة التى بدا فيها أن المؤتمر قد توصل إلى

بعض القرارات، اضطر الوفد البريطانى إلى العودة إلى إنجلترا فى ٢٦ يوليو ليعرف نتائج الانتخابات العامة، واتخذت كل الترتيبات لعودة المستر «تشرشل» ووفده إلى بوتسدام فى صباح ٢٧ يوليو، ولكن هذه العودة لم تتم.

وكان إنهزام حكومة تشرشل النهائى فى الانتخابات مفاجأة كبرى للجميع، وأحدث تشكيل حكومة جديدة تأخيرا طفيفا فى وصول وفد بريطانى إلى بوتسدام، ونتج عن ذلك بالطبع بعض الشك فى الأثر الذى سيتركه تغيير الحكومة على مباحثات المؤتمر، على أن جميع الشكوك زالت عندما وصل المستر «أتلى» والمستر «بيفن» إلى بوتسدام، فقبضا بأيديهما على المشاكل القائمة، وتركا لدى الجميع انطباعا ممتازا.

وبدت نتائج المؤتمر مرضية لأول وهلة، وهاك أهم النقاط المتعلقة بألمانيا:

أ - إنشاء لجنة من وزارة الخارجية لإعداد معاهدات السلام مع إيطاليا والدول الدائرة فى فلك المحور، ولإعداد ترتيب للسلام مع ألمانيا يطبق عندما تقوم حكومة ألمانية بصورة نهائية، ولدرس بعض المسائل المتعلقة بالأراضى الأوروبية.

ب - اتفاق الدول الثلاث على معاملة السكان الألمان معاملة واحدة، إلى الحد الذى يكون ذلك ممكنا عمليا، وإقصاء جميع النازيين عن الوظائف العامة، وحرية القول والصحافة والدين، وتشكيل نقابات حرة خاضعة للإشراف العسكرى، ولا مركزية البنية السياسية، إذ ليست أية حكومة ألمانية مركزية موضوع البحث فى الوقت الحاضر.

جـ - اتفاق تعامل ألمانيا بموجبه كوحدة اقتصادية إذ اعتمدت اللامركزية للاقتصاد الألمانى، ويجب فى البداية أن يستخدم حاصل عمليات التصدير لدفع أثمان المستوردات الأساسية التى توافق عليها لجنة الرقابة.

د - تستطيع الدول المحتلة أن تحصل من ألمانيا على تعويضات بشكل بضائع إلى الحد الذى تستطيع معه ألمانيا تسليم تجهيزات صناعية.

هـ - الاتفاق المتعلق بنقل السكان الباقين فى بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا إلى ألمانيا، وهذا النقل يجب أن يجرى فى ظروف ملائمة وبروح إنسانية.

ولم يكن هناك أى جهاز مركزى لحكم ألمانيا، لكن بفضل النشاط الكبير الذى أبداه بشكل خاص الجنرال «ويكس» رئيس أركان حرب المنطقة البريطانية، فإن دوائر مختلفة مبنية على أساس ثلاثى أُنشئت بغية العمل بشكل يجعل الحكومات العسكرية لكل منطقة من مناطق الحلفاء الغربيين تسير بخطى واحدة، وبحيث تدرس المشاكل الاقتصادية لهذه المناطق فى جملتها، ومع ذلك فقد انتهى وجود هذه الدوائر الآن بقيام الجهاز الثلاثى، وقد بدأ هذا الجهاز يعمل بعد اجتماعنا فى ٣٠ يوليو، واتخذ التنظيم كله اسم سلطة الرقابة الحليفة، وكان منقسما إلى ثلاث شعب:

١ - المجلس، ويتألف من قادة المناطق البريطانية والأمريكية والروسية والفرنسية.

٢ - لجنة التنسيق، وتتألف من المندوبين الأربعة لهؤلاء القادة.

٣ - أركان حرب الرقابة، وتشتمل على ١٢ قسما تعمل معا أغلب الأحيان بغية وضع سياسة مشتركة.

وفى آخر يوليو، اضطر الجنرال ويكس بسبب مرضه للاستقالة من أعماله كمندوب وكرئيس لأركان حرب المنطقة البريطانية.

وفى هذه الأثناء، كنت أفكر تفكيرا عميقا فى مشكلة تقويم عقلية الشعب الألمانى، وكان لابد فى سبيل ذلك من خطة، ولم تكن لدينا بعد مثل هذه الخطة، ولذلك عزمت على وضع خطة تتلخص فيما يلى:

١ - السماح للألمان بمناقشة مشاكلهم فيما بينهم، وبأن يتخذوا بوجه عام هم أنفسهم التدابير التى تصونهم من عودة الماضى.

٢ - تحطيم أفضل حلفاء النازية، البطالة والضجر والخوف من المستقبل ، وإحلال الأفكار السليمة والأمل محلها.

٣ - الوصول قبل كل شىء إلى الشبيبة الألمانية.

وكان أول ما يجب فعله إطلاع الألمان على هذه الخطة، فبينما كان مؤتمر بوتسدام منعقدا حررت رسالة ثالثة إلى الشعب الألمانى فى المنطقة البريطانية، وكانت مؤرخة فى ٢٥ يوليو ١٩٤٥، ولكننى احتفظت بها حتى تنشر نتائج المؤتمر، وأخيرا أذيعت فى ٦ أغسطس.

فى مطلع أكتوبر ١٩٤٥، انتهى مؤتمر وزراء الخارجية فى لندن بخلاف بين الوزراء، وكان قد انعقد لرسم الطرق المؤدية إلى معاهدات الصلح مع الدول المعادية السابقة، على نحو ما تم التفاهم عليه فى مؤتمر بوتسدام، وقد أصبح الآن واضحا كل الوضوح أننا أمام صعوبات كبرى.

وفى ذلك الجنى، كانت لجنة الرقابة تلاقى فى برلين عقبات جدية وتجد نفسها فى طريق مسدود، والسبب المباشر لهذا الوضع ناشىء عن معارضة فرنسا لإنشاء إدارة ألمانية مركزية، ففرنسا التى هوجمت ثلاث مرات فى قرن واحد كانت تريد الأمن قبل كل شىء، وكانت تعتبر ألمانيا مقطعة الأوصال أقل خطرا عليها، أضف إلى ذلك أن الفرنسيين كانوا يتمنون أن تفصل عن ألمانيا وتدول منطقة الروهر التى تشتمل على جزء كبير جدا من إمكانيات ألمانيا الحربية، وكانوا يعتبرون أن إنشاء إدارة ألمانية مركزية - بينما لا يزال الروهر يشكل جزءا من ألمانيا - من شأنه أن يمس بمصير هذه المنطقة.

ولقد كان كل العمل الهام الذى قام به الجهاز الرباعى مستندا إلى فكرة إنشاء إدارة ألمانية مركزية، فاستبعاد هذه الفكرة أوقف فعليا عمل الجهاز الرباعى.

وبعد فشل اجتــماع وزراء الخارجية الذين لم يستطيعـوا التوصل إلى اتفاق حول مصيــر ألمانيا، توجهت إلى لندن للاجــتماع بـ رئيس الوزراء المستــر «أتلى»، ولقد قابلته فى مطلع أكتوبر ١٩٤٥، وأوضحت له أن العقبة المباشرة فى وجه تقدم اللجنة الرباعية هى المعــارضة الفرنسية لإقامــة إدارة ألمانية مركزية، على أن سياســة الستار الحديدى الروسيــة تصبح هى العقبــة الحقيقــية إذا هى استمرت إلــى ما لا نهاية، إذ بدون حرية انتقال الموظفين من الألمان والحلفــاء، وبدون حرية الصحافة والطيران،لن تستطيع الإدارة الألمانية المركزية أن تعمل، فإذا استــمر الروس فى الاحتفاظ بالستار الحديدى بيننا وبين منطقتهم فليس هناك أى أمل باستمرار ممارسة الرقابة الرباعية.

ويجب أن نجــد لمشكــلتنا حلولاً ســريعــة، إذ أن ألمانيــا تنــزلق نحــو الفــوضى الاقتصادية، وهــذا لا يمكن تجنبه إلا باتخاذ قرارات هامة دون تأخيــر بشأن العملة والضرائب والقروض، وبأن تنشأ لهذا الغرض إما إدارة مالية مركزية، أو إدارة مالية فى كل منطقة، ويجب الاخــتيار بين هاتين الطريقتــين بسرعة، فإذا ما تم الاخــتيار فلن يكون سهلاً أن نعود القهقرى.

وباقتراب الشتاء، أخذ يبدو أن مخاوفى المتعلقــة بالأوبئة ستتحقق، فالتغذية كانت غير كافية إلى حد بعيد، وبسبب رداءة الأحوال الجوية كان الحصاد سيئا على عكس آمــالى الأولية، ولم يكن هناك فــحم لتدفــئة المــنازل، ولم يكن لدى السكان الألمان المقاومة الجــسدية الضرورية لمواجهة وباء كــبير، وأخذت التقــارير الواردة من المنطقة الروسية تشير إلى أن كثيراً من الألمان- وخطوصاً من الأطفال - قد ماتوا فعلاً ببطء من الجوع فى بعض أجزاء ألمانيا الشرقية، وستنتشر بلا ريب الأوبئة التى ظهرت فى هذه المنطقة بين الأهالى الذين أنهكهم الجوع، ولا مساكن لهم ولا ألبسة ولا وسائل كافية للتدفئة.

أما تنظيمنا نحن فكانت الأمور تسير فيه دون عقبات، ففى فترة انتقال تدريجى، حل محـل الجهاز العـسكرى الصرف - الـذى أقامتـه مجـموعـة الجيـوش الحادية والعشرين - تنظيم مدنى يشتمل على إدارة ألمانية تحت الرقابة البريطانية.

وفى هذه الأثناء كتـبت توجيهاً يتـعلق بتطور إدارة المنطقة البريطانيـة، وكان هذا التوجـيه قائما عـلى مبدأ يقضى بأن يـحل محل الحكومة العـسكرية- حالما يمكن ذلك- نظام حكم مدنى، أما السـرعة التى سيجرى بها هذا التعـديل فتتوقف على التقدم الحاصل فى حقـل نزع السلاح وحل الجيش ونزع النازية وإنشاء نهج للإدارة الديموقراطية.

ولكى يتاح لهذا أن يتحقق دون عقبـات يتوجب تطبيق برنامج ذى مراحل متوالية على الفور، فـفى المرحلة الأولى يكون قواد المقاطعـات ما يزالون يهتـمون بواسطة أركان حربهم بما يقع على عـاتقهم بوصفهم حكاماً عـسكريين، وفى المرحلة الثانية يدرب مفوضون إقليميون على أن يحلوا مـحل قواد المقاطعات كحكام عسكريين، وفى المرحلة الثـالثة يكف قـواد المقاطعـات عن أن يكونوا فى الوقت نفـسه حكامـا عسكريين، وفـى المرحلة الرابعة يتخـذ ملاك الحكومـات العسكرية بالتـدريج طابعاً مدنيـا مع تخفيض محـسوس فى صلاحيـاته، وبعد تحقـيق أهداف المرحلة الرابعة تحقيقـاً كاملا، يحكم الألمان أنفسهم بأنفسهم بشـرط ممارستنا لإشراف عام، ويكون على رأس الإدارة رجل مدنى لا رجل عـسكرى.

فى أواخر عـام ١٩٤٥، أخذت أتأمل فى التـقدم، أو فى عدم التـقدم، الذى حققناه فى المـنطقة البريطانية، وكـانت معركة الشتـاء مستمرة وأنـا آمل أن نربحها، وكانت لجنة الـرقابة تعمل، ويبـدو أننا نتقـدم إلى الأمام، أما مـا يهددنا الآن فـهو التفاؤل المستسلم، لقد بدأنا بداية حـسنة، لكن ما يزال هناك الكثير مما يجب عمله، وكنت أحس باقتراب العاصفة.

وبينما كانت خططنا لإنهاض ألمانيا المعنوى تسير بانتظام، كانت المنطقة البريطانية هادئة، فالألمان مشغولون بصعوباتهم المباشرة، ومهتمون بشكل خاص بإيجاد الغذاء ووسائل التدفئه، ولكننى شعرت بأن منازعات ستحدث فيما بعد، فإذا نجحنا بأن نجعلهم يجتازون الشتاء بصورة ملائمة، فإنهم سيستعيدون قوتهم فى عام ١٩٤٦، وسيرون مصانعهم مفككة وفحمهم غير موجود، وسيتحققون من أنه لن يسمح لهم الاستفادة من نهوض بلادهم، فلقد كانت سياستنا الصناعية والاقتصادية موضوعة بصورة تجعلها مرتبطة ببطالة عامة.

ولقد نحينا عددا كبيرا من الألمان الاشتراكيين الوطنيين عن مناصبهم، وكثير من هؤلاء قديرون جدا ومنظمون من الطراز الأول، وهؤلاء أصبحوا الآن عاطلين عن العمل، وقد يكونون سببا للاضطراب، ولقد سرحنا فى منطقتنا نحو مليونين من المحاربين القدماء، ويمكن إضافة نصف مليون إلى هذا الرقم، وكان فى ذلك بلا شك أرض خصبة يستطيع أن يبذر فيها قوم سيئو النية بذور الاستياء والاضطراب.

وبينما كانت هذه الأفكار تراودنى، خلصت إلى أن علينا ألا ندع قواتنا المسلحة فى ألمانيا تتناقص بسرعة أكثر مما ينبغى، فقد كان علينا أن نحتفظ بقوات كافية للمحافظة على النظام وتطبيق القانون ومساعدة السلطة المدنية إذا هى ناءت بأعبائها.

وكان هناك احتمالات كثيرة لحدوث اضطرابات، ويمكن أن تسوء أمور كثيرة مما جعلنى أفكر فى أن علينا أن نكون واثقين من الأرض التى نقف عليها قبل أن نمضى قدما إلى الأمام.

وفى هوايتهول كان هناك ميل إلى التقدم بسرعة إلى الأمام، أما أنا فكنت أرى أن السير بسرعة أكثر مما ينبغى سيجعلنا نواجه مضاعفات غير سارة.

على أن رؤسائى من حزب العمال لم يكونوا جميعا موافقين على هذا، وكانوا يقولون إنهم يفهمون أكثر منى فى السياسة، وهذا بالتأكيد صحيح، لكنى كنت أنا المسئول عما قد يحدث، ولذلك رفضت تغيير سياستى.

ومع ذلك فقد علمت أن الأمور استعجلت بعض الشىء بعد أن غادرت ألمانيا فى مايو ١٩٤٦.

* * * *

الفصل الخامس والعشرون
أيامى الأخيرة فى ألمانيا

فى ٢٦ يناير ١٩٤٦، أبلغت رسميا أن الاختيار قد وقع علىّ لمنصب رئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية، وأن علىّ أن أتسلم مهام هذا المنصب فى ٢٦ يونيو، وحيث إننى سأغادر ألمانيا بعد بضعة أشهر، وجهت عنايتى إلى مسألتين كانتا فى رأيى هما الأساس فى كل شىء، **أولاهما:** مشكلة السكان الألمان، **والثانية:** تطوير الإدارة فى المنطقة البريطانية لمواجهة هذه المشكلة.

وكان أحد أهم أهدافنا فى ألمانيا يتلخص - على ما أعتقد - فى تعديل أحاسيس الشعب الألمانى ونمط حياته، ففى خلال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة أدخلت أفكار اشتراكية وطنية ودكتاتورية بقوة فى العقول الألمانية، وتضاءلت السلطة العائلية كما تضاءل نفوذ الكنيسة وازدادت قوة الدولة، وقد اقترنت هذه الفترة بالنسبة للشعب الألمانى بالاستخدام الكامل وبمستوى معيشة مرتفع، أما الآن فلم يبق إلا البؤس، وكان هناك خطر من أن نرى الشعب الألمانى يلقى نظرة إلى الوراء بحنين إلى النظام الماضى، وبحسب معلوماتى كانت هناك نسبة مئوية كبيرة ، ربما بلغت ٦٠ ٪ من الشعب الألمانى، أشتراكيون وطنيون متعصبون، وفى منطقتنا كان الرأى العام يتطلب إزاء المنطقة البريطانية نحو ٢٠ مليون ألمانى سيشهدون أوقاتا عصيبة بسبب قلة الأغذية، وعلينا بلا ريب أن ننتظر الدخول فى نزاع معهم، وكان يجب التأثير عليهم وتوجيههم إلى حد ما كى لا يكونوا فى المستقبل سببا للمتاعب ، فكيف السبيل إلى ذلك؟

ولبلوغ مقاصدى كان يبدو لى أن باستطاعتنا أن نقسم هذه الكتلة البشرية إلى ثلاث فئات:

فهناك أولا الأولاد، وهؤلاء لن يصعب توجيههم رغم أن هناك خطرا دائما من أن يحدث عليهم تأثيرا سيئـا أعضاء عائلاتهم الأكبر منهم سنا ممن لا يزالون نازيين مؤمنين.

ثم يأتى الشباب من الجنسين، ممن تتراوح أعمـارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، وهذه المشكلة هى بلا أدنى شك أصعب مشكلة علىّ.

وأخيرا كان هناك الأشخاص الأكبـر سنا، وربما كان كثيرون من هؤلاء ينحازون إلى جانبنا.

ورأيت أن أفضل طريقة للتأثير على هذه الفـئات الثلاث، هى التركيز أولا على المجال الاقتصادى، ففيـه يوجد بلا شك الحل العام لهذه المشكلة، وكان يجب أيضا أن نعطى الشعب الألمانى الأمل بأيام أفـضل، وأن نوضح للشبان بأنهم لن ينـشئوا لأنفسهم مستقبلا قيما إلا بعملهم الخاص.

وبعد أن نعـيد الألمان إلى العمل، يبقى علينا أن نجـابه المشكلة السياسيـة، فعلى الصعيد العملى كانت تتحـتم لامركزية الحكم والمصالح المدنية، ورأيت أيضا أن من المفيد تشـجيع الاتصالات مع العالم الخـارجى كى يتمكن الألمان من دراسة عـقيدة جديدة تحل محل عقيدة النازيين.

وكان حلمى الكبير اخـتيار عدد من فتيان هذا الجيل وفـتياته يمكن إرسالهم إلى إنجلترا للتعود على نمط حياة جديد عليهم.

كنت قد أصدرت الأمر بأن يسلم قـادة الجحافل فى ١٥ أبريل ١٩٤٦ سلطاتهم إلى إداريين مـدنيين، وهكذا نكون قـد اجتـزنا المرحلة الثـالثة التى أشـارت إليهـا التعليمـات التى أصدرتها فى ديسمبر ١٩٤٥، وأصـبح من الضرورى الآن إصدار تعليمات للإنتقال إلى المرحلة الرابعة، فوزعت مذكرة بهذا الصدد فى ٢٥ مارس.

كان عليّ أن أغادر ألمانيا فى ٢ مايو ١٩٤٦، إذ يجب أن اتسلم مهماتى الجديدة فى وزارة الحربية فى يونيو، وبعد التفكير مليا رأيت أن من واجبى إعداد مذكرة للحكومة عن الوضع فى ألمانيا كما أراه، وهاك نصها:

١ - اللوحة مظلمة إن لم تكن سوداء، والأزمة الغذائية فى الوقت الحاضر تضع كل ما تبقى فى المرتبة الثانية، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الهام الأوحد فى الوضع الخطير.

٢ - فالاقتصاد مريض، والفحم غير كاف، والصناعات الأساسية هى الوحيدة التى يمكن تنميتها، أما الصناعات الأخرى فمشلولة وإنتاج البضائع الاستهلاكية محدود، ولا يجد السكان فى المخازن شيئا يشترونه.

ولقد عقد الحلفاء اتفاقا يحدد المستوى المقبل للاقتصاد الألمانى، وقريبا يبدأ تفكيك عدد كبير من المصانع الألمانية، وسينتج عن ذلك بؤس أكبر للسكان وبطالة متزايدة فى المنطقة البريطانية.

ومستوى الإنتاج الحالى هو من الإنخفاض، بحيث أن صادراتنا لا تؤمن أثمان مستورداتنا.

٣ - إن الاقتصاد المريض لا يسمح بوجود نقد سليم، فلا يمكن شراء الكثير بالماركات بينما يميل السكان إلى تعاطى المقايضة للحصول على الأطعمة، وشيئا فشيئاً يخسر المارك قيمته لدى السكان، وفى مثل هذه الظروف يستحيل تسيير الصناعة من جديد، إذ هى تفتقر إلى الحافز، إننا نجد أنفسنا فى بداية تضخم.

إن علينا أن نعمل وفقا لخطة محددة محسوسة تستهدف تغيير أحاسيس الشعب الألمانى، إننى أعلن أن الخطة الاقتصادية يجب أن تكون القاعدة لخط هجومنا.

ويجب أن يعرف الألمان مـا هو مستقـبل بلادهم، ولذلك يجب توفير مـستوى معيشة معقول لهم وإعطاؤهم الأمل بحياة مقبولة.

وإننى أرى أننا إذا لم نتـصرف على هذا النحـو، فإن إحـتلالنا لألمانيـا سيتـهى بفشل.

٥ - إذا أردنا التقدم يلزمنا:

* اقتصاد سليم.

* ميزانية متوازنة.

* رقابة مالية مركزية.

ومن الضرورى إنتاج مقدار أكبر من بضائع الاستهلاك.

والقسم الأكبر من تمويل التـعويضات يجب أن تتحمله ألمانيا كلهـا، أما الآن فهو يقع بعبئه الأكبر على المنطقة البريطانية حيث توجد معظم الصناعات.

٦ - بينما الوضع الاقـتصادى غيـر مستقر، يجـرى تشكيل الأحزاب السيـاسية والنقابات، ولكن يجب الإقـرار بأن هذا يشتمل على خطر مـحتمل، ولا شك فى أن قيام حزب اشتراكى ديمقـراطى قوى فى ألمانيا مكتفية، سيكون ذا فائدة كبيرة، كما سيكون مساهمة فى السلام والأمن فى أوروبا الغربية.

أما إذا كان للألمان على العكس أسباب للاسـتياء، وإذ نحن لاقينا عداوة منظمة تجاه الدول المحتلة، فـالشعب الألمانى سيجد فى الأوسـاط السياسية والنقابيـة جهازا يستطـيع استخـدامه لغـايات إجراميـة، إن هذا الوجه من وجـوه المشكلة يجب أن يدرس بعناية فى السـنوات المقبلـة ، ويجب أن تكون الدعـاية القادمـة من المنطقـة الروسية موضوع رقابة دقيقة.

٧ - سيكون علينا أن نقرر ماذا يؤلف ألمانيا؟ لقد حـددت الحدود الألمانية الشرقية في مؤتمر بوتسدام، على أنه لم يجر إتفاق بعد على الحدود الألمانية الغربية، إن هذه الحدود هى جزء من مشكلة مسـتقبل السار والروهر والريناني، إن علينا أن نُعلم الشعب الألماني كيف ستتألف ألمانيا الغد.

٨ - من الممكن إيجاد مـستوى معـيشة معـقول فى ألمانيا على أساس المـستوى الصناعى المتفق عليـه، لكن بشروط معينة أهمـها وجوب اعتبـار ألمانيا كلا اقتـصاديا، وليست هذه هى الحـال الآن، أولا بسبب معـارضة الفرنسـيين وثانيا بنتيـجة موقف الروس، وأشك كثيـرا فى أن الروس كانت لديهم يوما نية معاملة ألمانيا اقتصـاديا ككل ، بالمعنى الذى نعطيه نحن لهذه الصفة، وأنا مـتأكـد من أنهم لن يفـعلوا ذلك إلا إذا مـارسنا عليـهم نحن وحلفـاؤنا الآخرون ضغطا شديدا.

٩ - إن البلاد كلها فى درجـة من الفوضى تجعل السبيل الوحـيد للعمل هو أن ندع الألمان، ينظمون الحالة بأنفسهم، وهذا ما تفعله المجالس التحكيمية فى المنطقة الآن، ولكنه غـير كاف، بل يجب أن تكون هناك إدارات مـركزية، وليس لدينا مـثل هذه الإدارات، ومن الضرورى الحـصول علـى موافـقة الفرنسيين لإنـشائها، ويجب الانتباه الشديد إلى ضرورة إنـشائها تحت رقابة رباعية صحـيحة، وإلى ألا تكون فى تشكيلها ووظائفها خـاضعة لنفوذ دولة أكثر من خضوعها لنفوذ الدول الأخرى.

١٠ - ويتحـتم علينا أن نقـرر هل سنطعم الألمان أم سندعهـم يموتون جـوعا؟ والفروق الموجودة بين المستوى الغذائى فى منطقتنا وهذا المستوى فى المناطق الأخرى يجب إزالتها تحقيقا لمستوى واحد بموجب إتفاق يعقد لهذه الغاية.

١١ - إننى أعتبر النقاط الأربعة التى تضمنتها الفقرتان السابعة والعاشرة من هذه المذكرة، كالدعامات الأربعة التى يجب أن نبنى عليها ألمانيا الجديدة، والدعامة الرئيسية هى الرابعة، أى الغذائية، فإذا هى انهارت، إنهارت سائر الدعامات، وحتى الآن ليست الدعامات الأربعة موجودة، فلا نستطيع إذن التقدم إلى الأمام، فيتحتم علينا الشروع فى بناء الدعامات الأربعة، وعلينا قبل كل شىء أن نعلم الشعب الألمانى بما سيحل به وببلاده.

فإذا لم نفعل لا هذا ولا ذاك، فإن من المحتمل أن نواجه فشلا، وسيكون نتيجة هذا الفشل عداء متعاظما من قبل الأهالى الذين سينتهون إلى التطلع نحو الشرق.

إن ألمانيا كهذه تشكل تهديدا لسلامة الامبراطورية البريطانية، وعلى العكس من ذلك، فإن ألمانيا المكتفية المزودة ببناء سياسى سليم يمكن أن تكون ذات فائدة ثمينة فيما يتعلق بسلامة الامبراطورية وسلام العالم.

* * * *

الفصل السادس والعشرون
قبل العمل فى هوايتهول

لقد أدركت أن من مقتضيات عملى فى لجنة رؤساء أركان الحرب، أن أعمد فور وصولى إلى هوايتهول إلى تقديم رأيى، والاشتراك فى القرارات المتعلقة بمشاكل تقوم فى جميع أجزاء العالم المضطرب، ولن يمكننى بالطبع أن أتكلم بالسلطان الضرورى دون أن أكون قد زرت مسبقا البلدان التى يتناولها البحث، وانتهيت إلى أن علىّ أن أزور على الأقل بلدان المتوسط التى ترابط فيها قوات بريطانية، (مالطة، مصر، فلسطين، اليونان، وإيطاليا)، وأن ألقى نظرة كذلك على شرقى الأردن، وأن على أن أفعل ذلك قبل أن أبدأ عملى فى هوايتهول، وعندئذ أصبح فى وضع يمكننى فيه أكثر مما يمكننى الآن أن أعطى رأيا فى المشاكل الجارية للجنة رؤساء أركان الحرب وللوزارة بعد أن أتسلم مهمام منصبى كرئيس لهيئة أركان حرب الامبراطوية.

عندما قمت بزيارتى لمصر، فى يونيو ١٩٤٦، كانت المفاوضات المتعلقة بعقد معاهدة مستمرة منذ بعض الوقت قد بلغت نقطة جمود، وكنت أعرف الشرق الأوسط معرفة كافية لجعلى أدرك أننا قد نطلب فى زمن الحرب - أو إزاء خطر الحرب - تسهيلات شبيهة بتلك التى استفدنا منها فى ظل المعاهدة الإنجليزية المصرية القادمة، ولم يكن لنا غنى فى زمن السلم عن استعمال قناة السويس، والاستفادة من التسهيلات التى نحتاج إليها لمواصلاتنا الامبراطورية مع الهند وإستراليا والشرق الأقصى، ويجب أن نكون قادرين على الإحتفاظ بمنشآتنا الأساسية التى تستعملها قواتنا فى وقت الحرب، وأن يكون لنا حق إبقاء قوات فى المناطق الاستراتيجية وحق مرورها فى الشرق الأوسط.

ولكن الوفد البـريطانى الذى كان موجوداً آنذاك فى مـصر أطلعنى على أن كل محـاولة نبذلهـا للإحتـفاظ بمتطلباتنـا ستكون نتيـجتـها حدوث اضطرابـات خطيرة والاضطرار لاستعمال القوة واللجوء أخـيرا إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وارتأى الوفد - كحل وحيـد ممكن - أن نقترح سحب جميع القـوات البريطانية فى مصر، والمفاوضة بعد ذلك فى سبيل الوصول إلى اتفاق مرض، وقد أدلى بتصريح بهذا المعنى ولكنه لم يعط النتائج المرجوة، إذ لم يبد المصريون أى قبول ولا أى عزم على ملاقاتنا فى منتصف الطريق.

وفى هذه الظروف وصلت إلى مـصـر فى ١٠ يونيـو، بعد أن قـضـيت الليلة السابقـة فى مالطة، وجرت لى أحـاديث مطولة مع سفـير بريطانيا، السـير «رونالد كامبل»، ومع القائـد الأعلى للشرق الأوسط، الجنرال «برنارد باجت»، وكذلك مع ملك مـصـر ورئيس وزرائه صـدقى باشـا، ولقد تحـدثت مع هذين الأخـيـرين بصراحة، فقلت لهما: إننا نرغب فى أن يكون مفهوما فى مصر أن مصلحتها، فى حال وقوع حرب عالمية، أن تتعاون قوات بريطانية مع الجيش المصرى للمحافظة على كيـان مصر ودول الشـرق الأوسط العربية، ولذلك يجب أن تـقدم فى زمن السلم تسهيـلات كافية للقـوات البريطانية من أجل إقامـة قاعدة فى الحدود التى تتطـلبها حاجات الحرب، وإذا كان الوضع على خلاف ذلـك، فإن البلدين سيبدآن الحرب بسلسلة من الكوارث لا يستطيعان النهوض منها، وهذه القاعدة يجب أن تكون فى مصر.

ولكن شيئا لم ينتج عن هذه المباحثات، لأن الوفد المصرى لم تكن لديه تعليمات واضحة من رؤسائه السياسيين.

ولم يبد على الملك أنه إهتم أى اهتمـام بأقوالى، ولم يكف عن تكرار أن مصر قد عـانت منذ أربعين سنة من سـوء الإدارة البريطانيـة، ولذلك لم أضُع معه وقـتا

آخر، أما «صـدقى» فقد أظهر تفـهما أكثـر، وأعلن موافقتـه على اسلوب عرضى للمشكلة واعدا بالتعاون.

وأعلنت أننا سنخلى فى أقـرب وقت ممكن مدن الدلتـا، وسرعـة هذا الإخلاء سيقابلها إخلاء بطىء لمنطقـة القناة التى قد يتطلب الجلاء عنها خمس سنوات حسب تطور الوضع الدولى.

ثم أرسلت إلى هوايتهول تقريرا عن نتائج المحادثات التى أجريتها فى مصر. وقد انتهيت - بعد زيارتى لمالطة ومصر - إلى أننا لا نزال نستطيع - دون إحتلال مصر- أن نسيطر على المتوسط الشرقى، وأن نكون قادرين على حماية مصالحنا الحيوية فى حالة الحرب بشرط إمكان تحقق المتطلبات الآتية على الأقل:

أ - الوصول إلى اتفاق يعطينا حق إقامة ما نشاء من القوات فى ليبيا، ويمكن أن تكون ليبيـا قاعدة ممتازة لقواتنا الجوية، فـحين تكون مالطة فى أيدينا، وتكون لنا قوات بريـة وجوية فى ليـبيا، فسـنكون فى وضع جيد لحـماية مـصالحنا الحيوية فى المتوسط وأفريقيا الشمالية.

ب - إقامـة قوات أمـاميـة برية وجوية فى قـبرص، وقـوات جوية فى شـرقى الأردن، وفقا لاتفاقات تعقد لهذا الغرض.

جـ - الاحتفاظ بكامل حقوقنا العسكرية فى فلسطين.

د - الاحتفاظ بحق العودة إلى مـصر فى حال خطر الحرب، على أن يحافظ لنا المصريون على نواة لقواعدنا فى زمن السلم.

هـ - من المهم أن نبـقى أقـوياء فى السـودان فى حـالة نشـوء صـعـوبات مع المصريين، كى نكون قادرين على السيطرة على النيل شريان مصر الحيوى.

وكانت فلسطين المحطة التالية فى رحلتى، وكان الوضع فيها قد تدهور منذ زمن طويل، وقامت المنظمـات اليهودية غيـر الشرعيـة مثل منظمة «إيرغون»، وعـصابة

«شترن» بأعمال إرهابية، وقبل زيارتى بقليل وضعت اللجنة الإنجليزية الأمريكية تقريرها مقدمة توصيات، بينها توصية بقبول ١٠٠ ألف يهودى على الفور، وكان هذا التقرير ما يزال قيد الدرس، وقد أحدث نشره تباطؤا مؤقتا فى أعمال الإرهاب، ولكن اليهود أبدوا دلائل نفاذ صبر بسبب التأخير فى تحقيق رغباتهم، وكان يبدو أن الهدوء لن يدوم طويلا.

وكنت منزعجا كل الإنزعاج مما سمعته ومما رأيته، فكان إتخاذ قرار سياسى أمرا ضروريا بالتأكيد، ولكن لم يكن فى الوقت الحاضر من صلاحياتى تعيين حدود هذا القرار، وظهر لى أن المفوض السامى عاجز عن اتخاذ قرار، فالتردد يسود كل مكان، ابتداء من هوايتهول، لقد كان يجب تحديد خط للسلوك، وكانت قوة الشرطة الفلسطينية أقل خمسين بالمائة عما كان يجب أن تكون عليه، خاصة فى وقت يقترب فيه الوضع من الإنفجار، ومن كل هذا نتجت حالة لم تعد فيها السلطة البريطانية إلا سلطة إسمية، وبدا لى أن الذين يمسكون حقا بزمام السلطة هم اليهود.

وقد أبلغت القائد الأعلى فى فلسطين بوضوح أننا نخطىء السبيل، إن قرار إعادة السلطة البريطانية بشكل فعال قرار سياسى- وعلينا تطبيقه- فإذا أسفرت عن ذلك حرب مع اليهود، فستكون من وجهة نظر الجيش حربا ضد عدو متعصب واسع الحيلة أسلحته القتل والخطف والتخريب، وسيقاتلنا النساء كما يقاتلنا الرجال، ولن يعرف أحد الصديق من العدو، وكل هذا يتطلب مراجعة دقيقة لنشاط الموظفين المكلفين فى فلسطين بالمصالح العمومية، ويجب أن تعلق النشاطات الاجتماعية وتتخذ أدق التحفظات، وبصورة عامة على كل فرد أن يعى مسئولية المهمة التى تنتظره، وألححت على أن تعطى توجيهات صارمة وبالغة الوضوح إلى الشرطة والجيش، قائلا: إن القوات ستنال تأييدى الكلى لتنفيذ مهمتها الصعبة.

وقبل أن أغادر فلسطين، أبرقت إلى هوايتهول معربا بقوة عن وجهة نظرى قبل أن أسافر إلى الهند، توجهت بالطائرة إلى عمان وتناولت الغذاء مع الملك عبد الله الذى كان صديقا قديما لى، وأكد لى الملك أنه سيستخدم كل نفوذه للدفاع عن القضية البريطانية لدى الدول العربية، وأضاف أن اتخاذ قرار لمصلحة العرب فى فلسطين لا غنى عنه للمصالح البريطانية فى الشرق الأوسط، فأجبته أن هذا شأن الرجال السياسيين، وأنى سأطلع رئيس الوزراء على ملاحظاته، وقد فعلت ذلك.

قضيت فى البصرة ليلة فى طريقى إلى الهند، وكان الاهتمام الأكبر هنا بالطريقة التى تجرى فيها الأحداث فى إيران وخصوصا فى المناطق البترولية بإيران الجنوبية، فقد أقام حزب توده بنفوذ الروس وتأييدهم حكومته الخاصة فى مقاطعة أذربيجان التى أعلنت مؤخرا استقلالها، وهو يبذل قصارى جهده لمساعدة السياسة الروسية فى بقية إيران، ويشتمل هذا على محاولات لمضايقة المصاح البريطانية فى المنطقة البترولية، وقد درست المشكلة مع القائد الأعلى للقوات البريطانية فى العراق، وكانت مهمتة حماية الأرواح والمصالح البريطانية والهندية فى «عبادان» وفى مناطق آبار البترول الرئيسية الخمس على بعد نحو ١٥٠ ميلا شمالى شرقى وشمال عبادان، ولم تكن لديه قوات كافية لذلك، وهو يحتاج إلى لواء مشاة إضافى، فأبلغت لندن بالأمر موصيا بأن يعسكر اللواء المشار إليه فى الشعيبة مع مساندة جوية بمستوى فوج.

ومناخ هذا الجزء من العالم لا يلائم الجنود البريطانيين الشباب مهما كانت مدة الإقامة، فعزمت على أن أسال نائب الملك فى الهند وقائده الأعلى إذا كانا يستطيعان إرسال لواء هندى، إذ أن أهمية هذه المنطقة البترولية كبيرة جدا بالنسبة للهند، كما هى كبيرة بالنسبة لبريطانيا، وقد قبل هذا الطلب فيما بعد وجاء اللواء فى مطلع أغسطس ١٩٤٦ من الهند إلى الشعيبة.

وفى الهند، كانت المشكلة العسكرية متوقفة على القرارات السياسية المقبلة، وقد قال لى «وايفل» إنه مقتنع بأن على البريطانيين أن يتركوا البلاد للهنود، ولم يكن هناك إقبال على التوظف فى المصالح المدنية، ولم نكن نستطيع أن نحكم البلاد فترة طويلة فى مثل هذه الظروف، وكان «وايفل» يريد السير بالتدريج، إبتداء من الجنوب، بينما كانت الحكومة البريطانية تريد أن يتم الأمر بسرعة، وكانت هناك فى ذلك الحين بعثة من الوزارة البريطانية فى دلهى، وكنت مهتما بالمضاعفات العسكرية أيا كانت الخطة التى ستتبناها الحكومة أخيرا، فإذا نشأت اضطرابات من جراء تطور الموقف فسيكون على العسكريين أن يحافظوا على الأرواح والمصالح البريطانية، وفى هذه الحال سيكون موقف الجيش الهندى عاملا بالغ الأهمية.

وبالإضافة إلى محادثاتى المطولة مع نائب الملك ومع أوكنلك، جرت لى مناقشات مع المرحوم مولانا «آزاد» رئيس حزب المؤتمر، ومع السيد «جناح» رئيس الرابطة الإسلامية وأعرب «غاندى» عن أسفه لعدم تمكنه من المجىء إلى دلهى لمقابلتى، إذ كان يشترك فى اجتماع للجنة حزب المؤتمر العليا.

وكانت هذه المحادثات قيمة بالنسبة لى، لا لأنها تنبأت بالمستقبل فحسب، بل لأنها أيضا أظهرت أن زعماء الحزبين السياسيين راغبون على السواء فى الإبقاء على القوات البريطانية فى الهند مهما كانت أقوالهم العلنية.

وكنت أنا محتارا بشأن الموقف الذى ستجد القوات البريطانية نفسها إزاءه إذا تسلمت حكومة هندية صرفة زمام الأمور، وقد بدا لى أن اهتمام «أوكنلك» منصرف إلى الجيش الهندى كليا، فهو قليل الإهتمام برفاهية الجنود البريطانيين فى الهند، ولذلك قررت بموافقة «وايفل» التامة أن أسعى لتعيين ماجور جنرال للقوات البريطانية فى مقر القيادة العليا فى دلهى، وإرساله فورا إلى الهند، ووافقت لندن وعينت الماجور جنرال «هويسلر» فى هذا المنصب.

وقد جـرت كل هذه المحادثات فى دلهى خـلال يومين اثنين، ولكنـها زودتنى بصورة صحيحة عما كان عليه الوضع العام فى الهند، وهكذا تبين أن توسيع نطاق رحلتى كان مثمرا.

وكانت عودتى يجب أن تتم بطريق أثينا ونابولى، ولكننى قررت أن أتوقف ساعة فى اللد فى فلسطين لأتحدث مرة أخرى مع الجنرال باركر، ورجوت كذلك الجنرال «باجت» أن يلقانـى فى اللد، ومرة أخرى أوضـحت أنه يجب أن لا يكون هناك أى ضـعف فيـما يتـعلق بالمحافـظة على النظام وتطبيـق القانون عندمـا يتصل الأمـر بالإغتيالات والمحاولات الإرهابية.

وكان «باركر» يـشكو من عدم مساندة السلطات الحكومـية له، فوعدته بتـأييدى الكامل فى مهمته الشاقة، ثم واصلت سـفرى نحو أثينا مع توقف فى قبرص للتزود بالبترول.

عرض لى السـفيـر البريطانى السـير «كليـفورد نورتون»، والقائد الـعام الجنرال «كروفورد»، الموقف فى اليونان، وكان الصراع بين اليمين واليسار قد أصبح مشكلة خطيرة، وقد أثارت الأعمـال الوحشية التى إرتكبها اليـسار المتطرف فى الإنتخابات الأخيرة حـقدا عميـقا على الشيوعيـين لدى أكثرية الشعب اليـونانى، ولولا وجود القوات البريطانية لنجحت الأقلية الشيوعية التى يدعمها النفوذ الروسى فى الاستيلاء على الحكم بالإرهاب وبقـوة السلاح، وفى ذلك الحـين لم تكن الشرطة اليـونانية، حتى مع دعم الجـيش اليونانى، قـادرة على فرض احـترام القانون والمحـافظة على النظام، وكانت السلطات المدنية والعسكريـة البريطانية فى اليونان ترى أن هناك خطرا حقيقيا فى ترك اليوغسلافيين والبلغاريين والروس يتدخلون فى شئون اليونان، وقيل لى إن حجم الجيش البريطانى فى اليونان يجب أن يتوقف على ضرورة الحيلولة دون وقوع إنقلاب مدعوم بأسلحة أجنبية، ولكننى أوضحت أن سياستنا فى اليونان يجب أن تقوم على أن اليونانيين يعود إليهم هم أمـر فرض إحترام القانون والمحافظة على

النظام فى بلادهم، فهذه هى مسئوليتهم الأولى، ونحن لا نستطيع أن نبقى القوات البريطانية فى اليونان إلى الأبد.

أما أكثر مهمات الجيش البريطانى فى اليـونان إلحاحا فهى مساعدة الجيش اليونانى وتدريبـه من أجل جعله قـادرا فى أقصـر وقت ممكن على السـيطرة على الوضع الداخلى فى البلاد، فـلا ريب أن الإعتداء من الخارج لن يحـدث إلا إذا إنفجرت اضطرابات داخلية خطيرة لا يمكن السيطرة عليها.

إن تعديل برنامج رحلـتى بإضافة الزيارة إلى الهند أدى إلى تقـصير إقـامتى فى إيطاليا ثمانى عشرة ساعـة، كى أستطيع العودة إلى إنجلترا فى ٢٦ يونيو، وهو اليوم الذى يجب أن أتسلم فيه مهمام عملى الجديد.

وبعد أن نزلنا فى نابـولى توجهنا إلى كاسـرتا، حيث إنصرفنا فـورا إلى العمل، وكان فى إيطاليا خوف من أن يغزو اليوغوسلافيون مقاطعة البندقية.

وكما كان الأمر فى اليونان، كانت خطورة الموقف تولى مقدارا من الأهمية أكبر مما يبرره مظهرها المحلى، فحرب الأعصاب الروسـية لم تكن تعتبر خدعة بل دليلا على أن العمليات الحربية يمكن أن تنفجر فى كل لحظة.

وقلت إن نشوب حرب صـغيرة مع يوغوسـلافيا لا يمكن إلا أن يسـتتبع حرباً عالمـية عظمى، مما يدركه المعسكـر الخصم كل الإدراك، فإذا اضطررنا للقـتال من أجل منطقة البندقية، فسيكون من واجب الحلفاء الغربيين أن تكون قواتنا قادرة على مجابهة العدو فى ظروف جيدة، وليست هذه هى الحال الآن.

ووعدت بألا أغـفل المسألة ، وبالوصول إلى اتفـاق للجلاء عن بولا، فلم يكن لتعهـدنا بشأنها ما يبرره من الوجـهة العسكرية، وكان يبـدو لى أن الإلتزامات التى أخذناها علـى عاتقنا فى النمســا وإيطاليا كـانت مترابطة أوثق الـترابط، وكنت أرى

تخفـيض حجم القـوات البريطانيـة فى النمسـا لتعـزيز القوات الموجودة فى مـنطقة البندقية.

وغادرت إيطاليـا فى صبـاح يوم ٢٦ يونيو، ووصلت فى مسـاء اليوم نفـسه إلى لندن متعباً، لكن مقتنعا بأننى أفضل تزودا لإبداء رأيى فى المشاكل الخارجية مما كنت عندما غـادرت ألمانيا فى شهـر مايو، فقد علمت أن قـوادنا العسـكريين فيـما وراء البحار يكافحـون كثيرا من المشاكل الصعـبة، وأن القوات المتوفرة لديهم غيـر كافية على الإطلاق، وقد بذلت قصارى جهدى فى كـل مكان لأزرع الثقة واعدا بتقديم مساعدتى من أجل حل المشاكل وبتقديم تأييدى لمجابهة أوضاع غير سارة.

* * * *

الفصل السابع والعشرون
أيامي الأولى في هوايتهول

لم يسبق لى أن علمت فى وزارة الحربية، ولم أكن أعلم إلا القليل من تنظيمها وعن طريقتها فى العمل، وسرعان ما أدركت ضخامة العمل الذى أنجز فى هذه الوزارة خلال الحرب، وقبل أن أتركها فى عام ١٩٤٨ خلصت إلى الإعتقاد بأن وزارة الحربية هى بلا شك أفضل وزارات هوايتهول.

وفى أول اجتماع حضرته لمجلس الجيش، قدمت مذكرة كنت أعددتها فى «هندهيد» فور عودتى من ألمانيا فى مايو ١٩٤٦ حول مشكلة جيش ما بعد الحرب، وهاك النقاط الرئيسية فى هذه المذكرة:

أ - ضرورة الاتفاق على البنية التى يجب أن تكون بنية الجيش فى السنوات العشر أو الخمس عشرة المقبلة.

ب - أهمية الجيش المكتفى والعوامل الضرورية لتحقيق ذلك.

جـ - الجيش النظامى والأمة المسلحة يجب أن يشكلا كلا متوازنا قادرا على العمل السريع عندما تنفجر الحرب، والوحدات الاختصاصية التى لا يمكن الإحتفاظ بها بسبب الحد الأعلى لإعداد جنود الجيش النظامى يجب أن يقدمها الجيش الشعبى.

د - ضرورة قيام صلة جيدة مع جيوش الدومنيون.

هـ - بناء الجيش النظامى وقوته العددية، القوات القاعدة وقوات الأمن الموزعة فى كل الامبراطورية مع القوات الاحتياطية الاستراتيجية فى المملكة المتحدة والشرق الأوسط.

و - بناء الجيش الشعبى وقوته العددية ودوره.

ز - أهمية الأبحاث العلمية وتنميتها.

ح - مفهوم الحرب الحديثة، عقيدة واضحة مستوحاة من دروس الماضى يجب أن تلقن للجيش كله.

ط - التدريب الجماعى يجب أن يكون خلاقاً واقعيا منسجما مع شروط القتال الحديث، ويجب أن يجرى فى كل الفصول لا فى فصل الصيف وحده كما جرت العادة سابقا.

ى - مدارس عسكرية لإكمال تعليم الضباط، لا فى سلاحه فحسب بل فى دائرة أوسع أيضا تشمل تعاون جميع الأسلحة والتنظيم والإدارة.

ك - تدريب كبار الضباط والقادة على مستوى أعلى.

ل - المعنويات، ضرورة درس هذه المسألة وتعليم الطريقة التى يمكن الحصول بها على معنويات عالية.

م - أهمية إقامة تعاون وثيق مع سلاح الجو الملكى.

وقد ألحقت بهذه الوثيقة ملاحظات تتعلق بمبادىء الحرب الأساسية، كما ألحقت بها مذكرة ألححت فيها على إدخال نظام مختلف عن النظام الموجود فى الجيش فيما يتصل بالعلاقات بين القائد الأعلى وأركان حربه، وكان النظام البريطانى يترك آنئذ للقائد الأعلى مسئولية تنسيق أعمال أركان حربه، والتجارب التى جرت خلال الحرب العالمية الثانية أقنعتنى بأن هذا النظام أصبح بالياً، إذ يجب أن يكون للقائد الأعلى إمكانية رؤية جوهر المشاكل التى يواجهها مع التفاصيل البالغة الأهمية فعلا، لكن مع هذه التفاصيل وحدها، ففى هذه الظروف فقط يمكن أن يضع القائد الأعلى بنفسه خطة من الخطط، ولا يجوز أن يضعها شخص آخر، ولا يجوز أن

تفرض عليــه هذه الخطة لا من جانب أركان حــربه ولا من جانب الظروف ولا من جانب العدو.

وأعلنت أن نظامنا القائم لأركان الحرب لا يعطى أفضل النتائج، فالقواد الأعلون المنهمكون بكثير من التـفاصيل معرضون لإهمال الإعتبـارات الكبرى، أن التفاصيل هى من شــأن أركان الحـرب، ورئيس أركان الحـرب المكلف بالتنسـيق لا غنى عنه ليخفف عن القائد الأعلى، ويتيح له التفكير والتأمل فى هدوء.

وكانت فى وزارة الحربية معارضة كبيرة لهذا التعديل سواء من جانب العسكريين أو الموظفين المدنيين، ولإقتناعى بأن مثل هذا التغيير فى نظام أركان الحرب ضرورى للوصول إلى إدارة حسنة فى زمن الســلم، ولتحقيق قيادة فـعالة فى زمن الحرب، فـقد إنتـهيت إلى القـول بإننى إذا لم يدخل نظام رئيس أركـان الحرب فى الجـيش البريطانى فســأقدم إستقالتى، وأدع لرئـيس الوزراء أمر الاهتمام بتعـيين رئيس آخر لهيـئة أركـان الحرب الامبــراطورية، وقد وضع هذا حـداً نهائيـا للمناقشــة وجرى التغيير، لكن الأمر إقتضانى السعى عدة أشهر لتحقيقه.

وبعد أن قضـيت بضعة أسابيع فى وزارة الحـربية إنتهيت إلى استـنتاج أن ليست هناك سيــاسة واضحة فـيما يتعلق بالبـحث العلمى، وضرورة الإنتقـال إلى مرحلة الإنتاج فى مدة مـعينة، فالآراء المتعـارضة والتردد قد وضع هذه المســألة فى المرتبة الثانية، وقد أدركت أن من غير المجدى طلب المشورة فى هذا الموضوع من الرجال السياسيـين، وبعد أن درست كل الوثائق المتصلة بهذه القضـية، خلصت أن الجيش النظامى يجب أن يجهز تجهيزا كافيا فى مهلة خمس سنوات، ١٩٥١، ليتغلب على الصعـوبات الصغـرى التى يمكن أن تنشأ، يضــاف إلى ذلك أن المجمـوع المتوازن للجيش النظامى والجيش البرى يجب أن يكون فى مهلة خمسة عشرة سنة، ١٩٦١، لجهة العتاد وإعـداد الجنود والذخائر والاحتياطى، مستعـدا لمواجهة حرب عظمى،

وأن يحافظ فـيما بعد على هذا المستوى، ولقد أحدث اتخاذ قـرار حازم فى هذه المسألة إرتيـاحا كبيـرا لدى الجميع فى وزارة الحربيـة، وأبلغت بالطبع رئيس الوزراء ووزير الحربية ولجنة رؤساء أركان الحرب بالتـعليمات التى أصدرتها، ولم يكن هناك تعليق، وفيما بعد أبلغت الجنرال «إيزنهاور» ورؤسـاء أركان حرب جيوش الدومنيون بما فعلت فكانوا جميعا موافقين.

أما فيما يتعلق ببنية الجيش، فقـد تحققت خطوة كبرى إلى الأمام، وانتهيت أخيرا إلى استنـتـاج أن ليس لدى الأوسـاط الوزارية والعـسكرية فى هوايتـهـول أية فكرة واضحـة عن الطريقة التى يجب أن نخوض بهـا حربا واسعة النطاق، وفى مـذكرة حول الدفاع عن الامبـراطورية - كتبتها قبل أن أصبح عـضوا فى لجنة رؤساء أركان الحرب - وصـفت الشـرق الأوسط بأنه إحدى مناطق إرتكازنا الـرئيسـية والأكـثر حيـوية، ولم يتقبل رئيس الوزراء «اتلى» هذه النظرية وقـاومها أثناء الاجتـماع الأول الذى شهدته، وبعد هذا الاجتماع، قلت لزميلى: إن على رؤساء أركان الحرب أن يضعوا دراسة عن الاستراتيجية الغربية فى حرب عامة، ورفعها إلى رئيس الوزراء، فلم يقبلا إقتراحى استنادا إلى نقص المعلومات الحـاسمة حول قوة الأسلحة المقبلة، وإلى أن أركان حربهم ليس لديها الوقت لكتـابة مثل هذه الدراسة فقلت عندئذ إننى سآخذ على عاتقى وسأقدم هذه الدراسة إلى وزارة الحـربية بعد اسبوع، وقد كتبت الدراسة فى اسـبوع واحد، وأرسلت منهـا نسخا إلى قـائد الأسطول الأعلى وإلى رئيس أركان حـرب سلاح الجو، وعلى الرغم من أن كليـهما لم يخـالفانى إلا فى النقطة الأولى من هذه الدراسة، والخـاصة بإقامـة كتلة غربية مـتينة لحماية شـعوب العالم الغربـى وأراضيه وحضارته ضـد غزو يأتى من الشرق، فقـد رفضا أن ترفع المذكرة إلى رئيس الوزراء بوصفها صادرة من لجنة رؤساء أركان الحرب.

تلك كانت بداية الصراع الذى كان على أن أخوضه فى هوايتهول للوصول إلى تحديد للاستراتيجية البريطانية يشترك فى وضعه الجميع، وتلك أيضا كانت بداية إحتكاكات كثيرة داخل لجنة رؤساء أركان الحرب.

ونشأ خلاف هام فى لجنة أركان الحرب يتعلق بطريقة وضع خطط المستقبل، وكان رأيى أن على رؤساء أركان الحرب أن يعطوا توجيهات كبرى لهيئة المخططين المشتركة، حين تدعى هذه الهيئة إلى درس المشاكل القائمة، وحين تتصل هذه المشاكل على الأخص باستراتيجية الحرب وسيرها، وكان زميلاى يريان أن الأفضل ترك الهيئة تعمل دون توجيهات ليتاح المجال على هذا النحو لوضع أفكارها الخاصة، وكان ردى أنه حين يتعلق الأمر بمشاكل تقتضى استخدام وحدات هامة من الجيش البرى وسلاح الجو والبحرية، فليس من المعقول أن يطلب إلى ضباط صغار أن ينصرفوا إلى العمل دون توجيهات مسبقة، وواجبنا هو على العكس أن ندلهم أين توجد وجهة الحل، على أن حججى لم تؤثر فى رئيس الأركان الاخرين، ولذلك لم تعط أعضاء هيئة المخططين المشتركة أبدا أى رأى رسمى، بيد أننى أبلغت زميلى أننى بوصفى رئيسا لأركان الحرب الامبراطورية سأعطى دائما ممثلى الجيش البرى المكلفين بوضع الخطة مع ممثلى الطيران والبحرية وجهة نظرى فى المواضيع المطروحة، وبما أن ممثلى السلاحين الآخرين لم يكونوا مطلعين على وجهة نظر رؤسائهم، فقد كان رأى وزارة الحربية هو الذى يسود بصورة عامة.

ويجدر أن تذكر أيضا نقطة خلاف أخرى، فعلى جانبى الأطلسى كان يسود الإهتمام بمعرفة إلى أين ستقودنا متاعبنا مع الروس؟، وأصبح واضحا فى مطلع شهر أغسطس ١٩٤٦، أن على البريطانيين والأمريكيين أن يضعوا مبدأ مشتركا، وكانت هناك محادثات جارية فى هذا الصدد مع الأمريكيين على الصعيد الدبلوماسى، ولكن لم يكن هناك بعد شيء نهائى على الصعيد الحكومى.

وذهب زميلاى فى لجنة رؤساء أركان الحرب إلى أن علينا أولا أن نستعرض مشاكل الساعة العالمية، واستخدام هذا العمل المسبق كمدخل لبحث المشاكل التى يعتبر حلها أقل إلحاحا، وكان هذا هو أيضا رأى الأمريكيين كما اتضح من تبادل وجهات النظر بين الدبلوماسيين.

ولم أكن موافقا على ذلك، بل أوضحت أن من غير المنطقى النظر فى العمليات المحلية، فى منطقة البندقية أو فى ألمانيا، أو فى أى مكان آخر، خارج نطاق الاستراتيجية التى أعددناها إحتياطا لاحتمال نشوب حرب عالمية ثالثة، فالحروب المحلية قد تثير حربا شاملة، ولذلك يجب أن تكون خططنا المحلية داخلة فى إطار واسع.

وبعد مناقشة طويلة إنتهيت بإقناع القائد الأعلى للأسطول الذى وافق على وجهة نظر وزارة الحربية، وعندئذ تخلى قائد سلاح الجو الملكى عن معارضته.

وفى ١٩ أغسطس ١٩٤٦، أبحرت فيه من ليفربول إلى كندا لزيارة هذه البلاد وزيارة الولايات المتحدة أيضا.

وقد قمت بهاتين الزيارتين تلبية لدعوتين وجههما إلى المستر «ماكنزى كنج» باسم الحكومة الكندية، والجنرال «إيزنهاور» وكان القصد الأول تمكينى من رؤية هذين البلدين اللذين لم أكن أعرفهما بعد، واللذين كانت جيوشهما قد خدمت فى مناسبات مختلفة تحت قيادتى خلال الحرب، وبالطبع كانت هناك فى كلتا الزيارتين مواضيع أهم أنوى معالجتها، وبعد ذلك أتاحت لى الظروف فرصة تجاوز المجال المحدد أولا ومباشرة أعمال كانت تبدو فى بداية الرحلة خارج الموضوع تماما، وكنا قد واجهنا فى (أوتاوا) مسألة توحيد مستوى الأسلحة والعتاد وإجراءات العمليات بين بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وقد أرسلت تقريرا إلى رؤساء أركان الحرب فى لندن مقترحا أن تدرس هذه المسألة الآن فى المراجع العليا من جميع وجوهها

وسائلا إن كان لدى هوايتهول إعتراض على أن أبحثها فى واشنطن، ولدى وصولى إلى جسبر تلقيت برقية تأذن لى بالمضى قدما فى الطريق الذى اقترحته، لكن فى جسبر كانت أفكارى قد تجاوزت مسألة توحيد المستوى هذه، إذا أخذت فى ذهنى فكرة أن الوقت قد حان كى تتعاون بريطانيا العظمى وكندا والولايات المتحدة تعاونا تصميمياً فى جميع الميادين المتصلة بالدفاع، فالمباحثات يجب أن لا تقتصر على توحيد المستوى بل يجب أن تشمل كل ما له صلة بالتعاون والعمل المشترك فى حالة نشوب حرب وقد أعلن رئيس وزراء كندا أنه موافق كل الموافقة على اقتراحاتى، وأذن لى أن أنقل هذا الموقف إلى رئيس الولايات المتحدة.

وصلت إلى الولايات المتحدة فى ١٠ سبتمبر، ووافق «إيزنهاور» على أن الوقت قد حان لدراسة عمل مشترك والتخطيط له، لا فيما يتعلق بتوحيد المستوى فحسب، بل فيما يتصل بجميع وجوه الدفاع والاستعداد لكل الإحتمالات، وأن الأوان قد آن فى رأيه لجعل رؤساء الدول يتدخلون.

وقابلت الرئيس فى صباح اليوم التالى، وكنا وحدنا، فافتتحت الحديث قائلا: إن «إيزنهاور» وأنا نعتبر أن الوقت قد حان للدخول فى مباحثات تتعلق بمشكلة الدفاع فى مجملها وحدثته عن موافقة «ما كنزى كنج»، وقلت له أخيرا إنه إذا تفضل رؤساء الدول بأن يعطوا موافقتهم فقط، فإن هيئات أركان الحرب ستنصرف فورا إلى العمل، فوافق الرئيس دون تردد.

وعلى هذا النحو إنتهت هذه الزيارة المكللة بالنجاح بشكل ظاهر، وإلى أبعد ما يمكن لى أن أحلم به، فقد تجلى أن رئيس الولايات المتحدة ورؤساء أركان الحرب الأمريكيين قبلوا- دون مناقشة- استمرار عمل جهاز أركان الحرب المشتركة.

والحقيقة أننى نجحت فى فترة من الزمن لا تتجاوز بضعة أيام، فى الحصول على موافقة رؤساء الدول، ورؤساء أركان الحرب لكل من كندا والولابات المتحدة

والمملكة المتحدة، بشأن إفتتاح مباحثات عسكرية على أساس واسع، مما قاد الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة إلى توحيد سياستهما الدفاعية وخططهما قبل أن تفرض عليهما حرب أخرى.

* * * *

الفصل الثامن والعشرون
رحلاتي فيما وراء البحار
في عام ١٩٤٧

خلال الحرب، توليت قيادة قوات من كندا واستراليا ونيوزيلندا وأفريقيا الجنوبية وروديسيا الجنوبية والهند وكثير من المستعمرات، وعندما إنتهت الحرب تلقيت من حكومات هذه البلدان دعوات لزيارتها.

في مؤتمر بوتسدام، الذى انعقد في يوليو ١٩٤٥، تعرفت على المارشال «ستالين» الذى دعانى لزيارته فى موسكو فى موعد لاحق، ووافق رئيس الوزراء تشرشل على أن ألبى هذه الدعوة.

ووصلت إلى موسكو فى ٦ يناير ١٩٤٧ على طائرة من طراز يورك تابعة لسلاح الجو الملكى، وكان فى استقبالى المارشال «فاسيليفسكى»، رئيس أركان حرب القوات الروسية، على رأس جمهور من المارشالات والمصورين والصحفيين.

وكانت أكثر لحظات زيارتى إلى موسكو إثارة حين تحدثت إلى «ستالين»، وقد جرى هذا الحديث فى مكتبه بالكرملين فى الساعة ١٧ من يوم ١٠ يناير، وهو آخر يوم من أيام إقامتى فى روسيا.

ومن كل ما رأيت وسمعت نشأ لدى الإنطباع بأن روسيا فى حالة سيئة، فالغزو الروسى قد أحدث فيها تدميرا هائلا، وفى روسيا البيضاء دمرت القرى والمدن، وفى أوكرانيا كانت المعارك عنيفة والتدمير مريعا، وهذه المنطقة التى تضم نحو ٦٠ بالمائة من إمكانات روسيا الصناعية قد خربت خرابا تاماً، وكان الطعام قليلاً، إذ أن موسم ١٩٤٧ كان ضعيفا، وكانت ظروف السكن مرعبة، وكان إنطباعى أن الروس

منهكون، وليس الأمر مجرد تعب ناشىء عن الحـرب، إذ قد قيل لى إن البلاد فى مجملها متـعبة، وإنما أنا أقدر أن روسيا كانت عاجـزة كل العجز عن الإشتراك فى حرب عالمية ضد ائتلاف قوى للدول الحليـفة، وأنها كانت تعرف ذلك حق المعرفة، إنها تحتاج إلى وقت طويل من السلام لتنهض.

فى ٢١ يونيو ١٩٤٧، غـادرت لندن بطريق الجو لزيارة أسـتراليا ونيـوزيلندا بناء على دعوة من حكومتى هذين البلدين، وفى مـؤتمر رؤساء وزارات الدومنيون عام ١٩٤٦ أعلنت أستراليا ونيوزيلندا أنهـما تتمنيان أن تتحملا مسئولية أكـبر فيما يتعلق بمسـائل الدفاع فى المحـيط الهادىء، ولذلك كـان لموقـفى أثناء هذه الرحلة أهميـة خاصة فى هوايتهول، ورأيت أن من واجبى أن أكـون على أتم الاستعداد للتباحث مع حكومات الدومنيون.

اتخذت عدتى لـزيارة الهند وأنا راحل إلى أستراليا لسـببين، أولهمـا بغية وضع منهاج إنسحاب القـوات البريطانية من هذا الجزء من العالم، وثانيهمـا بغية الوصول إلى اتفاق مبدئى للإسـتمرار فى استخدام وحدات الغـوركا فى الجيش بعد أن تنال الهند استقلالها.

ووصلت إلى دلهى ظهـر يوم ٢٣ يونيو، وبدأت المحادثات مـع «نهرو» و«جناح» بعد الظهر، وفى ذلك الحين كان مشروع التقسيم قد قبل، فلم تكن هناك صعوبات حول هذه النقطـة الأولى، وكان «نهرو» و «جناح» مـتفقـين على أن يبدأ إنسـحاب القوات البريطانيـة فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧، وهو موعد إنتقـال السلطة، وأن ينتهى فى آخر فبراير ١٩٤٨.

وقد ناقش «نهرو» وحده النقطة الثـانية، فأثار عدة اعتراضات ولم يعلن مـوافقته النهائية إلا فى مساء اليوم التالى ٢٤ يونيو.

غادرت دلهى فى ٢٥ يونيو وطرت إلى سنغافورة مارا بسيلان حيث قضيت السهرة، وفى سنغافورة أطلقت شرارات أثارت ردود فعل غير حسنة، إذ قلت إننى أرى أن على القائد الأعلى للأسطول فى الشرق الأقصى أن يقيم مقره العام فى سنغافوره، مع زملائه قواد الطيران، بدلا من أن ينعزل فى هونج كونج، وقد أعربت رسميا عن وجهة نظرى لرؤساء أركان الحرب فى لندن، وفى الوقت نفسه اطلع بحارة الإميرالية عليها، وقد غضب وزير البحرية غضبا شديدا ، وطلبت أن ترفع مسألة المكان الذى يجب أن يقوم فيه المقر العام البحرى إلى رئيس الوزراء لإتخاذ قرار بشأنها، وأخيرا ربحت القضية ونقل المقر العام البحرى فى الشرق الأقصى إلى سنغافورة ، على كل حال كنت سعيدا بمغادرة سنغافورة فى ٣٠ يونيو.

وصلت إلى دارون فى ٣٠ يونيو وتوجهت إلى كانبرا فى اليوم التالى، أول يوليو، وكانت رحلتى تشتمل على زيارة كل ولاية من ولايات أستراليا، وجرت لى محادثات طويلة مع أعضاء الحكومة الأسترالية الذين توثقت بينى وبين كثير منهم عرى الصداقة، وقد إستأثر بمحادثاتنا موضوعان هامان، أولهما مقدار المسئولية التى تعتبر أستراليا نفسها على استعداد لتحملها فى تطور مشاكل الدفاع التى تثيرها سلامة منطقة المحيط الهادىء، ففى لندن كانوا يعتقدون أن أستراليا مستعدة لأن تأخذ على عاتقها فورا مسئولية رئيسية فيما يتعلق بمصالح الكومنولث الإستراتيجية فى المحيط الهادىء، ولكن سرعان ما اكتشفت أن هذا الإفتراض غير صحيح، فالذى تريده أستراليا قبل كل شىء هو إنشاء جهاز مختص تستخدمه لتوسيع نطاق مسئوليتها بالتدريج، وكنت شخصيا موافقا على وجهة النظر الأسترالية، وأبلغت لندن بذلك.

والموضوع الآخر يتعلق بمسألة تمثيل الأسلحة الثلاثة فى أستراليا كما كانت تمارسه بريطانيا العظمى، وفى هذا الموضوع كنت على خلاف كلى مع زميلى عضوى لجنة

رؤساء أركان الحرب البريطانيين، فحسب النظام القائم كان رؤساء أركان الحرب البريطانيين ممثلين فى أستراليا بهيئة ثلاثية، وكل ممثل يتلقى من قيادة سلاحه فى هوايتهول تعليمات خاصة، وكان الأستراليون مصممين على الوصول إلى إزالة هذا النظام، أى أنهم كانوا يريدون أن يكون لرؤساء أركان الحرب الثلاثة ممثل وحيد مع هيئة أركان حرب تشترك فيها الأسلحة الثلاثة وتعمل تحت إدارته، يضاف إلى ذلك أن هذا الممثل يجب ألا يكون عضوا فى لجنة رؤساء أركان الحرب الأستراليين- كما كانت الحال بالنسبة لأعضاء الهيئة الثلاثية الحالية- ويجب ألا يحضر اجتماعاتهم إلا عندما تبحث مسائل تؤثر فى المصالح البريطانية.

وكنت موافقا كل الموافقة على وجهة النظر هذه، ورفعت تقريرا بهذا المعنى إلى لندن، مصراً على أن تقبل وجهة النظر الأسترالية، ولكننى أبلغت أن وزير البحرية ورئيس أركان حرب سلاح الطيران لم يكونا موافقين، وأن وزير الدفاع طلب إليه أن يفصل فى الخلاف، وباختصار إنتهت القضية أخيرا وفقا لوجهة النظر الأسترالية.

فى ١٦ يوليو ١٩٤٧، غادرت أستراليا بطريق الجو ووصلت فى اليوم نفسه إلى نيوزيلندا وتناولت المحادثات العسكرية بشكل خاص الطريقة التى ستمثل فيها نيوزيلندا فى جهاز الكومنولث الدفاعى فى هذا الجزء من العالم، وكان رئيس الوزراء يرغب فى التعاون الوثيق مع أستراليا، ولكنه أضاف أنه يجب أن يكون للحكومة النيوزيلندية صوت فعال فيما يتعلق بتنفيذ السياسة المقررة، وأن التوحيد مع أستراليا يجب أن يكون على أساس المساواة.

وقبلت دعوة وجهت إلىّ لزيارة اليابان بطريق عودتى للإجتماع بالجنرال «ماك أرثر» والوقوف على وجهة نظره فيما يتعلق بهذا الجزء من العالم، لكن بينما كنت فى نيوزيلندا تلقيت من لندن أنباء خطيرة عن أزمة اليد العاملة والصعوبات الاقتصادية، وعن التهجم الذى يتعرض له الجيش نتيجة تهربات الحكومة فى الشرق

الأوسط على العمـوم وفى فلسطين على الخصـوص، وتفيد هذه الأنبـاء أيضا أن «سمبســون» نائبى فى رئاسة هيئة أركان الحرب الامبـراطورية، يتلقى وحده غضب وزير البـحرية ورئيس أركـان حرب سـلاح الطيران بشـأن المسائل التى أثرتهـا فى سنغافـورة وفى أستـراليا، وكان ألمى يزداد لكل هذا، إذ كنـت أخشى أن يكون له مضاعفات سيئة على الجيش إذا لم أكن مـوجودا هناك لاتخاذ جميع الإحتياطات، فرأيت أنه مـن الضرورى أن أعود إلى إنجلتـرا بأسرع وقت ممكن، ولذلـك ألغيت بأسف زيارتى لليـابان وغادرنا نيوزيلندا فى ٣١ يوليـو، فقضـينا يومين فى سـيدنى لتوضيح بعض النقاط الغامضة، وعقدنا مؤتمرات فى سنغافورة وفى مصر مع القائد الأعلى فى كل منهما وعدنا إلى لندن فى مساء ٨ أغسطس.

وفى منتصف شهر نوفمبر ١٩٤٧، غـادرت لندن للقيام برحلة فى أفريقيا تشمل البلدان الآتيـة: مراكش الفرنسـية، جـامبيـا، شاطئ الذهب، نيـجيريا، الـكونغو البلجيكى، إتحاد جنوب أفريقيا، روديسيا الجنوبية، كينيا، الحبشة، السودان، مصر.

وخلال هذه الرحـلة جرت لى محـادثات مع كثـير من الناس من كل الفـئات الاجتماعية وطرحت علىّ أسـئلة ذات صلة بالجيش، وتلقيت طلبات باتخاذ قرارات أو بإصدار توجيهات.

وقد ختمت رحلتى فى أفريقيا بزيارة للقوات البريطانية فى منطقة قناة السويس.

* * * *

الفصل التاسع والعشرون
غيوم سوداء فى سماء فلسطين

منذ زيارتى للمتوسط الشرقى فى يونيو ١٩٤٦، خلف «دمبسى» باجيت كقائد أعلى للشرق الأوسط، وبقى باركر قائدا للقوات البريطانية فى فلسطين، وقد إزداد الموقف فى هذا البلد خطورة.

وفى أواخر أكتوبر ١٩٤٦، فكر وزير المستعمرات «كريتش جونس» أنه إذا أطلق الإنجليز سراح زعماء الإرهابيين، وعلقت أعمال التفتيش على الأسلحة، فقد ينشأ جو أفضل ، بل قيل إننا إذا تصرفنا على هذا النحو، فستتخلى الوكالة اليهودية عن الإرهاب وتوجه نداء إلى جميع اليهود الواعين لمحاربته، ونتيجة لذلك أفرج عن زعماء الإرهابيين المعتقلين جميعا فى مطلع تشرين الثانى، وتوقفت التفتيشات للعثور على الأسلحة باستثناء ما يجرى منها أثر حوادث إرهابية جديدة.

وكانت نتيجة هذا التنازل من جانب حكومة العمال أن فرضت قيود متزايدة على القوات البريطانية فى فلسطين لجهة نشاطها فى سبيل المحافظة على النظام، وفى هذه الأثناء استمر قتل الجنود البريطانيين وأفراد الشرطة الفلسطينية وجرحهم.

وقد أغضبنى هذا الوضع، فإتخذت استعداداتى للتوجه إلى فلسطين بطريق الجو فى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٦، وجرى لى مع رئيس الوزراء حديث عنيف فى هذا الصدد قبل سفرى، وأعلنت أن من الأفضل أن ننسحب من فلسطين إذا لم نكن عازمين على المحافظة على النظام وفرض إحترام القانون فيها، وأضفت أننى لا أستطيع أن أقبل أن يقتل جنود بريطانيون شبان من أجل لا شىء.

وقد أحدث هذا التصريح ضجة كبرى، وطلب منى رئيس الوزراء تقريرا سريعا فى الموضوع، فتوجهت عندئذ إلى فلسطين.

وفى ذلك الحين كان المندوب السامى فى فلسطين، الجنرال السير «آلن كننجهام»، وفى ٢٩ نوفمبر عقدنا اجتماعا أنا و«كننجهام» و«دمبسى» فى القدس تدارسنا فيه الموقف العام، ولم نناقش العوامل السياسية العديدة التى تتداخل فى استخدام الجيش، لكن «كننجهام» اضطر إلى الإقرار من الوجهة العسكرية بأنه لم يكن هناك عمل عسكرى مناسب فى فلسطين، وأن الجيش لم يقم بمساعدة قوة الشرطة على المحافظة على النظام وفرض احترام القانون بسبب القيود التى فرضت عليه، وكنت كلما أمعنت فى دراسة الوضع فى فلسطين إزداد استيائى منه، فقد كانت تحت تصرف المندوب السامى القوات الضرورية للمحافظة على النظام وفرض إحترام القانون، أعنى الشرطة والجيش، فلم تستعمل أى من هاتين القوتين استعمالا صائبا، وهكذا أصبح المجهود العام غير فعال.

بيد أن المندوب السامى أعلن أن الوكالة اليهودية والهاغانا سينتهيان بشرط أن نمتنع نحن عن إتخاذ أية تدابير تنفيذية ضد الفوضوية، وكان يقدر أننا لا نستطيع السيطرة على الفوضى بواسطة عمل هجومى، وأننا إذا حاولنا أن نفعل ذلك فلن نصل إلا إلى تنفير اليهود وزيادة الموقف خطورة، وبعبارة أخرى أننا لا نستطيع أن نحكم فلسطين إلا إذا خضعنا لليهود، فقلت: إذن فى هذه الحال، فلنترك فلسطين.

وحيث إننى كنت أجهل إلى أين يمكن أن تقودنا سياسة الحكومة فقد أصدرت الأمر برفض السماح بعد اليوم لعائلات العسكريين بالسفر إلى فلسطين، وبعد يوم واحد، إتبع المندوب السامى سياسة أكثر شدة مصدرا أمره بأن يغادر فلسطين على الفور جميع النساء والأولاد البريطانيين وجميع المدنيين البريطانيين الذكور الذين لا ضرورة لإبقائهم، وهكذا أصبح المجال مفتوحا الان للقيام بعمل.

وعندما بلغ الصراع فى فلسطين ذروته، قامت منظمات لا شرعية مختلفة بهجمات كثيرة على الأشخاص وعلى الأبنية ، حتى أن إحدى هذه المنظمات

وتدعى «عـصابة شـترن»، أرسلت أحـد رجال الـكومندوز إلى أوروبا وتمكنت من نسف السفارة البريطانية فى روما.

وفى فبراير ١٩٤٧، قررت الحكومة رفع قـضية فلسطين إلى الأمم المتحدة دون أية توصية بريطانية حول ما يمكن أن تقتـرن به هذه القضية من نتيجة، وعينت الأمم المتحدة لجنة كلفتها بأن تقدم إلى الجمعية العـمومية فى أول سبتمبر تقريرا لا يشتمل على معلومات إيجابيـة حول قضية فلسطين فحسب، بل على إقـتراحات أيضا من أجل حل هذه القضـية، وقد دافـعت روسيا عن قضـية اليهـود وأصرت فى وقت واحد على إنهاء الإنتداب البريطانى.

وإجتزنا فى فلسطيـن فترة عصبيـة خلال صيف عام ١٩٤٧ وأخذ يتـضح أكثر فأكثر أنه أياً مـا كان قرار الأمم المتحدة فالحكومة عـازمة على التخلى عن الإنتداب وسحب جمـيع القوات البريطانيـة من فلسطين فى أول أغسطس ١٩٤٨، لكن فى ذلك الحين اقترعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى آواخر نوفمبر ١٩٤٧ لصالح تقسـيم فلسطين بين اليهود والعـرب، وكلفت لجنة لتعيـين الحدود، وعلى أثر هذا القرار، أعلنت الحكومة البـريطانية عزمها على إنهـاء الانتداب فى ١٥ مايو ١٩٤٨، وإنجاز سحب القوات البريطانية فى أول أغسطس التالى، واخيراً جرى تعديل الموعد الأخير فقدم حتى أول يوليو.

وتدهور الموقف بسرعة فى فـلسطين ابتداء من ديسمبر ١٩٤٧، إذ أخـذ اليهود يسعون لأن يضمنوا لأنفسهم كل ما يستطيـعون أن يضمنوه من الإمتيازات التكتيكية أثناء الفترة السابقـة لنهاية الإنتداب، أما العرب فلم يعمدوا فوراً إلى الـقيام بأعمال حربية، باستـثناء جيشهم المسمى جيش التـحرير، مكتفين بتجميع قـواتهم النظامية، محـاولين دون نجاح كبـير الإتفاق على شكل القـيادة فى الكفاح المقـبل، ومطلقين التهديدات لليهود عما سيحل لهم بعد ١٥ مايو ١٩٤٨.

وفى ١٥ مايو سلمنا الإنتداب على فلسطين إلى الأمم المتحدة، وسحبنا قواتنا سليمة فى أول يوليو.

وكان من نتيجة اضطرارنا لمغادرة فلسطين إضعاف مركزنا الاستراتيجى فى الشرق الأوسط، وبصورة عامة إضعاف المركز الاستراتيجى للعالم الغربى فى الصراع بين الشرق والغرب.

وفى ذلك الحين فقدنا الهند التى قسمت إلى قسمين ، وكنا على وشك أن نطرد من مصر.

وقد بات ذا أهمية أكثر من أى وقت مضى أن يكون لنا الآن مركز متين فى السودان وفى ليبيا، وهذا ما لم أكف عن الإشارة إليه للسادة الوزراء .

* * * *

الفصل الثلاثون
أصبحت مصدر إزعاج فى هوايتهول

فى سبتـمبر ١٩٤٦، أصبح واضـحا أنه لابد من اتخاذ تدابير صـارمة إذا نحن أردنا أن نسيطر على الموقف الذى يزداد خطورة نتيجة السرعة التى تتم بهـا عملية التسريح منذ إنتهاء الحرب، وكان فـرض الخدمة العسكرية الإجبارية فى زمن السلم ضروريا ولا غنى عنه، وقد أملت الحـكومة فى أن تتضاءل إلتزامـاتنا العسكرية حالما تنتهى الحـرب، ولكن لم تكن هذه هى الحال، فـنحن على ما يبدو سنبقى بعض الوقت فى منطقة البندقية وفى اليونان، وكانت فلسطين تحيا فى حالة من الاضطراب الذى يبعث على القلق، ومصر فى غليان بسـبب التأخر الذى طرأ على مفاوضات المعـاهدة، وهناك اضطرابات تهـدد المنطقة البـترولـية فى الخليج الفـارسى، وينتظر نشـوب منازعـات داخليـة فى الهند. ولم يكن التطوع ليـوفـر أعـداد الجنود التى نريدها، فالخدمة فى الجيش لم تكن يوما عملا ذا شعبية وخصوصا على أثر إنتهاء حرب من الحروب.

ولدى عـودتى من أمريكا فـى سبـتـمـبر ١٩٤٦، خلـصت إلى أن التفـاهم مع الحكومة بشأن مسألة أعداد الجنود كلها أصبح أمرا لابد منه، ويجب أن يشمل هذا التفاهم الخدمة العسكرية الإجبارية، العملية والإحتياطية، ومقدار سرعة التسريح فى المستـقبل، ولم يكن زميـلاى فى لجنة رؤساء أركان الحرب يـهتمان بهـذا الموضوع إهتماما كافيا حتى يدرساه.

على أن هذا لم يثبط من عـزيمتى، فقدمت فى أكتـوبر ١٩٤٦ إلى لجنة رؤساء أركان الحرب دراسة شاملة تثبت حاجة الجيش الملحة إلى الخدمة العسكرية الإجبارية

فى زمن السلم، وبعد مناقشات كثيرة رفعت دراستى إلى الحكومة مع ملاحظة تقول إنه على الرغم من أن هذه الدراسة لا تتناول إلا الجيش البرى، فإن مبدأ الدعوة إلى الخدمة يجب أن يطبق بصورة متساوية فى الأسلحة الثلاثة، ومهرت الحكومة المشروع بموافقتها.

وفى مطلع مارس ١٩٤٧، أودعت الحكومة مكتب المجلس مشروع القانون القاضى بالخدمة الوطنية، وهو يجسد كل مقترحات وزارة الحربية، وقد أقر البرلمان مشروع الخدمة الوطنية، واقترن هذا المشروع بالموافقة الملكية فى يوليو ١٩٤٧، ودخل حيز التنفيذ فى أول يناير ١٩٤٩، فمنذ هذا التاريخ كان يجب على جميع المدعوين للخدمة العسكرية أن يقوموا بها مدة سنة ثم يقضوا ستة أشهر فى الإحتياطى أو فى القوات الإضافية مع فرض فترات من التدريب عليهم، ويقضى القانون بأن تخفض بالتدريج مدة خدمة المدعوين بين أول يناير ١٩٤٨ وأول يناير ١٩٤٩ من سنتين إلى سنة واحدة، وقبلت وزارة الحربية بكل هذا بشرط قيام سلام كامل.

لكن مع الأسف جاء شتاء ١٩٤٧ - ١٩٤٨ يحمل تعقيدات خطيرة فى الموقف الدولى بلغت ذروتها بحصار برلين الغربية الذى بدأ فى ٢٤ يونيو ١٩٤٨، وأصبح واضحا أن شرط السلام الكامل لن يتوفر قبل وقت طويل، وقد يستمر إختيار القوة على كل حال طوال السنة المقبلة على الأقل.

فما العمل إذن بأزمة أعداد جنودنا؟

لقد كان جواب الحكومة على هذا السؤال أنها إقترحت أن تتوقف جميع التسريحات مدة ستة أشهر.

وفى رأيى أن هذا لابد أن يؤدى إلى موقف غير معقول، فمن غير المنطقى أن نفرض هذا التدبير، وأن نطبق فى الوقت نفسه فى أول يناير ١٩٤٩ قانون الخدمة

الوطنية، فمن الناحية القانونية يترتب على المواطن الذى يدعى للخدمة فى ٣١ ديسمبر ١٩٤٨، أن يقوم بها سنتين، بينما لا يترتب على المواطن الذى يدعى بعد يوم واحد، أى فى أول يناير ١٩٤٩، إلا خدمة سنة واحدة.

والطريقة العملية الوحيدة لحل مشكلة الجيش هى ربط التسريحات بدورة مدتها سنتان من خدمة العلم الوطنية إلى أن يتسنى لنا أن نرى الأمور بوضوح أكثر، وقلت لرئيس الوزراء أن ما يريده الجيش قبل كل شىء هو الاستقرار ، فمسألة أعداد الجنود لا يمكن أن تحل بصورة مرضية كليا إلا بإنشاء خدمة وطنية مدتها ستان ابتداء من أول يناير ١٩٤٩، فيتحتم على الحكومة أن تعدل قانون الخدمة الوطنية وفقا لذلك.

وقد خلصت إلى الإعتقاد بأننا لن نتوصل إلى حمل الحكومة على القبول بأن ترفع مدة خدمة العلم الوطنية إلى سنتين، وإنما نستطيع أن نقدم مشروعا يحدد هذه المدة بثمانية عشر شهرا فلا يمكن الإعتراض عليه، ونسعى لإقراره.

وفى ٩ أكتوبر ١٩٤٨، جمعت الأعضاء العسكرين فى مجلس الجيش وسألتهم إن كانوا مستعدين للإستقالة من وظائفهم كجسم واحد أكون أنا على رأسه، إذا قررت الحكومة أن تكون مدة خدمة العلم الوطنية أقل من ثمانية عشر شهرا؟ فوافق الجميع على ذلك، وأبلغت ذلك لوزير الحربية، المستر «إيمانويل شنويل»، الذى بدا عليه القلق بعض الشىء، وكان عليه بالطبع أن يبلغ رئيس الوزراء أنه فى سبيل خسارة مجلس جيشه، وكان الأمر ملحا، إذا أن قانون الخدمة الوطنية سيدخل حيز التنفيذ بعد أكثر من شهرين بقليل، وقد راهننى أحد أعضاء أركان حربى على شلنين ونصف، على أن الحكومة ستتخذ قرارها فى أول نوفمبر، وكان على فى هذا التاريخ أن أترك وزارة الحربية لأترأس لجنة القواد العامين للإتحاد الغربى، وكنت أعتقد أن الحكومة ستنتظر ذهابى وتقرر عندئذ فترة السنة الواحدة للخدمة الوطنية

لعلمها أن الأميرالية ووزارة الطيران لن تثيرا على ذلك إلا قليلا من الإعتراض، وقد ربحت الشلنين ونصف الشلن، إذ لم تتخذ الحكومة قرارها إلا فى آخر نوفمبر، لكن فى هذه الأثناء وضعت بين يدى خليفتى« بيل سليم» كل معطيات المشكلة فاستطاع أن يحصل على قرار يجعل مدة الخدمة ثمانية عشرة شهرا، ولا أعلم أن كان قد هدد بالإستقالة من منصبة.

أما وقد قلنا هذا كله، فمن الإنصاف أن نمتدح شجاعة حكومة العمال التى قدمت فى زمن السلم مشروع القانون بإنشاء الخدمة الوطنية على الرغم من المعارضة القوية التى كانت تظهر فى قلب حزب العمال نفسه، فلقد استطاع «إتلى» و«بيفن» أن يقرا المشروع من أجلنا.

فى مطلع شهر أغسطس ١٩٤٧ أعلن وزير الدفاع المستر «الكسندر»، أن رئيس الوزراء يرغب فى أن تبحث على الفور إمكانية تخفيض أعداد الجنود فى أجهزتنا المقاتلة، وكان رئيس الوزراء يقول إن النفقات الإجمالية لتدابير الدفاع يجب أن تخفض إلى ٦٠٠ مليون جنيه استرلينى، وقد شجبت وزارة الحربية بقوة هذه الطريقة فى التخفيضات الاعتباطية، وقلت: إننا لا نستطيع فى أية حال قبول هذا الأسلوب فى تخفيض مجموع النفقات.

ومع ذلك فإن وزارة الدفاع أمرتنا بأن ننصرف إلى العمل على أساس أنه من المحتمل أن يكون الحد الأقصى لمجموع نفقات القوات المسلحة ٦٠٠ مليون جنيه، وأن علينا أن نتأكد من أن تجاوز هذا الحد المالى يتضمن مجازفات كبيرة.

وعلى هذا الأساس تقيد رؤساء أركان الحرب بهذه التوصيات مع الإحتجاج الشديد.

وبلغ الوضع درجة من الخطورة رأيت معها أنه لابد من إعادة تكييف الجيش البريطانى والعمل على أساس فكرة الجيش الوطنى، والجيش النظامى والجيش البرى

يجب أن يشتمل كلاهما على جنود يأتون من الجيش المحترف والجيش الوطنى، مع عنصر متطوع فيـما يتعلق بالجيش البرى، وما ينقص الجـيش العامل يؤمنه له الجيش البرى عند التعبئة، فيجب أن يصهر الجيشان بحيث يشكلان معا جيشا وطنيا متوازنا.

وكان المستـر «شنويل» قد جاء إلى وزارة الحربية، حيث جـرى التعديل الوزارى فى أكتوبر ١٩٤٧، وكانت التوصية بشـأن هذا الجيش النموذجى الجديد أول توصية قدمتها إليه، فقبلها.

وفى مطلع يناير ١٩٤٨، وزع وزير الدفاع مذكـرة ذكر فيها أن مجـموع موازنة الدفاع لعـام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ سيكون ٦٠٠ مليـون جنيه، وطلب أن يـخول توزيع هذا المبلغ وفقا للأفضليات التى سبق أن عرضها فى البرلمان فى ٢٧ أكتوبر ١٩٤٧.

وقد احتجـجت بشدة على هذا التمييـز طالبا ألا تستعمل كلمة أفـضلية عندما يتصل الأمر بتوزيع المخصصات بين الأسلـحة الثلاثة، وقد ربحت القضية فى هذا الصدد، إلا أن وزير الدفاع أنبأنى فى ١٤ يناير أن حصة الجيش من المبلغ الإجمالى هو ٢٢٢ مليون جنيه، وأن أعداد الجنود ستكون كما يلى:

١٨٥٠٠٠ جندى فى الجيش المحترف، بمن فيهم النساء.

١٠٥٠٠٠ جندى فى الخدمة الوطنية.

وقد استـتبع هذا عمليات بتـر جديدة حادة فى نظام وحدات الجـيش، ورفضنا قبول الرقم ١٨٥٠٠٠ الإجمالى للـجنود النظاميين، ذاهبين إلى أنه يجب أن يكون ٢٠٠ ألف، فتمت الموافـقة على ذلك، ونشر كتاب أبيض لوزارة الدفـاع فى شباط ١٩٤٨، وكـان علينـا عندئذ أن نضع تصـمـيم الجـيش للعـام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ والسنوات اللاحقة على أساس الأرقام المذكورة أعلاه.

وفى خلال الفـترة الممتدة من شهـر أغسطس ١٩٤٧ إلى شهـر فبراير ١٩٤٨، كنت أحـتج على الدوام مظهرا اسـتحالة حـصولنا على جـيش يبعث علـى الرضا

بالإعتمادات والأعداد المخصصة، نظر لالتزاماتنا، فنحن سائرون إلى وضع لن يسمح للبلاد بأن تكون لها قوة مقاتلة فعالة ذات حجم كبير إذا تطلبت الأحداث ذلك، والجيش يتدهور تدريجيا، ففى أول يناير ١٩٥٠ لن يكون ثلث الجنود فى الجيش العامل إلا فى الثامنة عشرة من العمر، مع أقل من سنة من الخدمة فى ظل العلم، وستضعف الوحدات المقاتلة إلى حد بعيد بانضمام جنود غير ذوى علم كاف إليها، وكان هذا وضعا لا يمكن قبوله على الإطلاق.

وفى أشهر عام ١٩٤٨ الأولى، ساء الوضع الدولى بالتدريج وباستمرار، وبدأ حصار برلين الغربية فى ٢٤ يونيو كما سبق أن ذكرت.

بيد أن الحكومة أقرت بأنه يمكن اتخاذ ترتيبات لجعل القوات المسلحة فى أفضل وضع ممكن فى حالة الحرب، بشرط ألا تتضمن هذه الترتيبات أية دعاية ولا تستتبع مضاعفات جدية على اقتصاد البلاد، وكان هذا أمرا لا يمكن تطبيقه، إذ لا يمكن عمليا أن يتحقق شيء دون دعاية أو دون نفقات إضافية فى النقود وفى المواد.

عندما جئت إلى وزارة الحربية فى يونيو ١٩٤٦، لم ألبث أن اكتشفت أن لجنة رؤساء أركان الحرب لم تعد ذلك الجهاز الفعال الذى كان فى الماضى، فذهاب الجنرال «إيسماى» والسير «أيان جاكوب»، وأعضاء بارزين عديدين من أركان حربهما قد أضعف أمانة سر تلك اللجنة إضعافا كبيرا.

فقد أظهر المستر الكسندر «أولا»، على الرغم من أنه كان وزير البحرية زمنا طويلا، أنه غير قادر كليا، على الاضطلاع بمهام وزير الدفاع، لقد كان وجها تافها فى البرلمان خلال المناقشات التى دارت حول قانون الخدمة المدنية، ولم يعط فى أى وقت من الأوقات الانطباع بأنه يفهم مشاكل الدفاع الامبراطورى وطريقة معالجتها.

أضف إلى ذلك أنه لم يكن بين رؤساء أركان الحرب أنفسهم أى انسجام ولا أية ثقة متبادلة، وكان الذنب ذنبى إلى حد كبير، فقبل أن أتسلم مهام عملى وبعد أن تسلمت منصبى، قمت برحلات كثيرة وزرت نقاط الاضطراب وبحثت المشاكل الأساسية، وشرحت كل ما بدا لى مغلوطا، وأبرقت إلى معاونى فى وزارة الحربية بالتعليمات الضرورية لكى يعالج الأمر على الفور فى هوايتهول، ولم تكن هذه الطريقة طريقة زميلى، بل كانا يكتفيان بترك الأمور تجرى فى مجراها بهدوء ولا يهتمان إلا بالمشاكل التى تحيلها إليهما أمانة سر وزارة الدفاع، ثم يتقيدان، بعد الدرس، برأى هيئة أركان الحرب المشتركة للأسلحة الثلاثة ، وبما أن هذه الهيئة مؤلفة من مدراء التصميم فى الوزارات الثلاث، الحربية والبحرية والطيران، فقد كانت التقارير التى تسفر عن ذلك تضمن دائماً توصية قائمة على تسوية، وكانت نتيجة مثل هذا الإجراء اعطاء هيئة أركان الحرب المشتركة صلاحية ليست لها ولا يمكن أن تكون لها، فأحيانا كان يطلب إلى أعضاء هذه الهيئة حل مشاكل كان رؤساء أركان الحرب أنفسهم عاجزين عن أن يصلوا بشأنها إلى اتفاق.

وكان ضميرى يثور ضد هذه الطريقة فى العمل، وأخشى أن أكون قد أظهرت ذلك بجلاء، ولم يكن زميلاى يبديان أفكاراً جديدة، إلا فى النادر، بل كانا ينتظران أن تأتيهما هذه الأفكار من أمانة السر، ولذلك لم يكونا يتقبلان الأفكار التى أتقدم بها بقبول حسن، ولم يخفف من استيائهما أن مقترحاتى كانت فى نهاية المطاف تقبل غالبا.

وقد درجت على عادة الإصرار بأن ترفع كل مسألة أراها هامة بالفعل إلى رئيس الوزراء لاتخاذ قرار نهائى بشأنها، وكان هذا القرار فى أكثر من حالة يجىء متفقا مع توصيتى.

وعندما أعـود بالذاكرة إلى تلك الفتـرة، استطيع أن أذكر ثلاثة أسـباب رئيسـية كانت هى وراء افتقار لجنة رؤساء أركان الحرب إلى الإنسجام والفاعلية:

١ - وجود وزير دفاع تافه.

٢ - وجود أمانة سر ذات مستوى أدنى من مهمتها فى الوزارة.

٣ - عدم توافق أمزجة رؤساء أركان الحرب الثلاثة.

وفى مارس ١٩٤٨، خلصت إلى الاقـتناع بأن الموقف أخطر من أن يسمح بأى تأخير جـديد، فكتبت مذكرة أوصـيت فيها بأن تدرس لجنة وزارية تنظيـمنا المتعلق بالدفاع فى هوايتهول، وأرسلت منها نسختين بصورة غير رسمية إلى رئيس الوزراء وإلى وزير الدفاع، وطلبت منهـما الإذن بتقديم هذه المذكـرة إلى لجنة رؤساء أركان الحرب، فـقد كان من شـأنها أن تحدث ضـجة فى هوايتهـول، ولم أشأ أن تكون مفاجأة للحكومة، فأجابنى المستر «إتلى» فى اليوم نفسه موافقا على ما طلبت.

والمذكرة مؤرخة فى ١٦ مارس ١٩٤٨، وهذه هى:

١ - إننى أرفع الآراء التالية بـشأن لجنة رؤساء أركان الحرب وبشـأن تنظيم جهاز الدفاع الذى نعتمده.

٢ - أن لجنة رؤسـاء أركان الحرب، وهى لجـنة فرعيـة منبثـقة عن لجنـة الدفاع الامبـراطورية قد أُنشئت عـام ١٩٢٤ بغرض تنبيـه الحكومة تنبيـها جماعـيا وأفراديا.

وبعد عشر سنوات أثبتت أنها أداة مفيدة لإجراء استشارات مشتركة بين الأسلحة الثلاثة على مسـتوى عال، فى وقت الأزمة، ولبحث الشئـون اليومية الأقل أهمية، ولكنها خيبت، بشكل ظاهر، الآمال الكبار المعلقة عليها.

٣ - والعلاج الذى اقترحـه اللورد «ترنشارد» فى عام ١٩٣٥ يتلخص فى وضع شخصـية وزارية بصورة دائمة على رأس لجنة الدفاع الامـبراطورية، تترأس

بانتظام اجتماعات لجنة رؤساء أركان الحرب الفرعية، على أن يكون لهذا الوزير سكرتير دائم للجنة الدفاع الامبراطورية، وهيئة أركان حرب مستقلة تتألف فى معظمها من ضباط لهم مستقبل يؤخذون من الأسلحة الثلاثة، وهذه الاقتراحات لم تقبل على ما أعلم، رغم أنه ظهر فيما بعد أن من الضرورى تعيين وزير مكلف على الأخص بتنسيق تدابير الدفاع ومخول بأن يدعو إلى الاجتماع من حين لآخر لجنة رؤساء الأركان الفرعية للاستشارة.

٤ - إن نظام تعيين وزير مكلف بتنسيق تدابير الدفاع استمر خلال الحرب حتى أبريل ١٩٤٠، حين ألقيت على عاتق المستر «تشرشل» وزير البحرية مسئولية خاصة مع صلاحية إعطاء توجيهات للجنة رؤساء الأركان، ودعوتها لهذا الغرض فى أى وقت للاستشارة، وقد عدلت هذه الترتيبات عندما أصبح المستر «تشرشل» رئيسا للوزراء، إذ أصبح أيضا وزيرا للدفاع، وبهذه الصفة أخذ يترأس اجتماعات لجنة الدفاع التى يحضرها بانتظام وزراء الأسلحة الثلاثة ورؤساء أركان الحرب، وكان وزير الدفاع يترأس أيضا فى زمن الحرب اجتماعات رؤساء أركان الحرب، وكان له فى هذه اللجنة ممثل خاص.

٥ - ما من شك فى أن الترتيبات التى اعتمدها المستر «تشرشل» فى زمن الحرب كانت فعالة، فكانت شئون الإستراتيجية العليا وخط سير العمليات تعالج بسرعة دون أن يسعى رؤساء أركان الحرب إلى إزالة الإختلافات الأساسية.

والكتاب الأبيض الصادر فى تشرين الأول ١٩٤٦ يعترف بهذا بوضوح، مع إظهاره نقائض النظام الذى استمر فى زمان السلم وحتى نيسان ١٩٤٠، وغرض

هذا الكتاب الأبيض الحض على إنشاء نظام لزمن السلم يكفل توحيد سياسة الدفاع، ولذلك دعا إلى تعيين وزير دفاع مستقل، تشبه علاقاته مع رؤساء الأركان، تلك التى كان المستر «تشرشل» قد حددها فى نيسان ١٩٤٠.

٦ - والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو ما إذا كانت الترتيبات التى دعا إليها الكتاب الأبيض عام ١٩٤٦ وطبقت قد أدت غايتها الرئيسية التى هى ضمان توحيد سياسة الدفاع؟، أما أنا فلا أتردد فى التأكيد أن هذه الغاية لم تتحقق، وسأعرض فيما يأتى أسباب هذا الفشل.

٧ - وأبدأ بالحقيقة البديهية السافرة التى تقول إن الحرب والسلم أمران مختلفان، وإن كان السلم فى الواقع حربا باردة، ففى زمن السلم تكون حاجات الأسلحة الثلاثة من الرجال والمال والعتاد ، حاجات محدودة بالضرورة وعلى الرغم أنه من البديهى القول إن مبلغا أدنى لنفقات الدفاع الوطنى يجب أن يكون أول ما تقتطعه الدولة من مواردها، فإنه ليحدث فى حالات نادرة جدا أن تعطى الأسلحة الثلاثة مجتمعة ما تعتبره منفردة كحد أدنى لابد منه، ويحدث هذا على الأخص حين لا يكون لدى الدولة ما يكفى من المواد الأولية، واليد العاملة والموارد الآتية من الخارج لتحافظ على سير حياتها، وهذا التضييق يتجلى أقل بكثير فى زمن الحرب، لأن حاجات الدفاع حينئذ يجب أن يكون لها الأفضلية على جميع الحاجات الأخرى باستثناء حد أدنى من المواد الغذائية والملابس للمحافظة على حياة السكان المدنيين وصحتهم وإنتاجهم، ومن المحتمل إذا اعتمدت بريطانيا فقط على مواردها الخاصة وخصوصا تلك التى تردها من صادراتها، ألا تكون قادرة أبدا على خوض الحرب بالمقدار الذى نريده من الزخم والعزم والشدة.

ولكننا فى الحربين الأخيرتين الكبيرتين تلقينا مساندة ضخمة هى مساندة قوة الولايات المتحدة الإنتاجية وعزمها الصادق، ولذلك يمكننا القول أن القليل من

طلباتنا العسكرية قد صرف عنه النظر منذ البداية باعتباره غير مبرر، وفى هذه الظروف أمكن لرؤساء أركان الحرب أن يتوصلوا بسهولة إلى الاجماع بإقرارهم صحة طلبات زملائهم، ولم تختلف اراؤهم إلا بشأن أى من هذه الطلبات تكون له الأفضلية.

٨ - فى الفترة التى توجد فيها تحديدات منذ البداية تسود اعتبارات مختلفة جدا، فرؤساء الأركان الثلاثة هم- مهنياً - على رأس أسلحتهم الخاصة، أنهم ليسوا فقط مستشارى الحكومة فيما يتعلق بالاستراتيجية والتكتيك، ولكن كلا منهم هو أيضا المدافع عن مصالح سلاحه الحاضرة والمقبلة وحامى آفاق المستقبل لأعضاء هذا السلاح إلى حد ما، فكل منهم يكافح بصورة طبيعية لقضيته الخاصة ولا يتنازل عن شيء، وأحد الثلاثة هو رئيس اللجنة، وهى مهمة عاقة لرئيس أركان حرب، إذ مطلوب منه أن يكون رئيسا حياديا مما هو بشريا مستحيل لأنه يميل إلى فرض رأيه الخاص على الباقين.

٩ - وهكذا نصل إلى الوضع الذى وصفه اللورد «ترنشارد» عام ١٩٣٥، وأننى أرى أن هذا الوصف ينطبق حرفيا على وجه التقريب على الظروف الحالية.

١٠ - ومع ذلك فأنا لا أرى أن العلاج موجود فى اقتراح اللورد «ترنشارد»، أى فى تعيين شخصية وزارية تترأس على الدوام لجنة رؤساء أركان الحرب وإنما أرى أن ما نحتاج إليه هو اعتماد طريقة تزود وزير الدفاع برئيس أركان حرب لا يكون ضابطا بالضرورة، فمثل هذا التدبير يدفعنا خطوة كبيرة إلى الأمام نحو هدفنا النهائى، ورئيس أركان حرب وزير الدفاع هذا يكون حكما الرئيس الدائم للجنة رؤساء أركان الحرب.

١١ - إن ما يحتاجه وزير الدفاع هو أن تقدم إليه هيئة رؤساء أركان الحرب خطة دفاع منسجمة يدرسها ثم يوصى بها الحكومة، وهذه الخطة يجب أن:

أ - تبقى فى حدود الموارد التى تكون الحكومة على استعداد لتخصيصها للدفاع.

ب - تحدد بوضوح ودون إلتباس الحصة التى تعود إلى كل من الأسلحة الثلاثة والهيئات المدنية المتصلة بها.

جـ - تكون متلائمة فى عناصرها المختلفة.

على أن وزير الدفاع لا يمكنه فى الوقت الحاضر أن يحصل على شىء من اللجنة فيما يتعلق بوجوه سياسة الدفاع الأبعد مدى، لأن آراء رؤساء أركان الحرب الثلاثة مختلفة إلى حد أنهم يلجأون إلى موقف الامتناع دون أن يضعوا أى تقرير، أو يقدموا توصيات لا طعم لها ولا تؤدى إلى أية غاية.

وكان يمكن الوصول إلى نتيجة ما لو أن رؤساء أركان الحرب يقدمون إلى وزير الدفاع بيانا مشتركا يعرض خلافاتهم، ولكن الحاجة إلى أكثر من هذا، فوزير الدفاع يحتاج إلى الإنتهاء من المناقشات العقيمة فى لجنة رؤساء الأركان، وعليه أن يحصل على خطة تقف على قدميها وتكون قابلة للتحقيق ويسهل شرحها للرؤساء الذين سيتخذون بشأنها القرار.

وإذا كان لوزير الدفاع رئيس أركان حرب هو فى الوقت نفسه رئيس للجنة رؤساء أركان الحرب لأمكنه فى كل الأحوال الحصول على الأمرين التاليين:

أ - عرض بعيد عن الهوى لجميع وجهات النظر المتعارضة.

ب - خطة تأخذ بعين الأعتبار حدود الموارد، خطة معقولة ومتوازنة ولا تتعارض إلا بأقل قدر ممكن مع توصيات كل من الأسلحة الثلاثة.

١٢ - إننى أدرك أنه ليس من الســهل العـثور على رئيس أركـان الحرب المثـالى لوزير الدفـاع، ولكن هذا لا يؤثر فى المبـدأ بأية صـورة، إن علينا أولا أن نقرر إن كنا نقبل المبدأ وإن كان مثل هذا التعيين ضروريا، ويمكننا فيما بعد أن نجد الرجل، ويكفى لكى يـؤدى المهمة التى تقع على عـاتقه أن تكون له خبرة عملية واسعة بالحـرب الحديثة، وأن يكون قد تولى قيادات عليا، وأن يتقبل الأفكار الجديدة.

١٣ - إننى مقتنع بأن علينا أن نبدأ بالقيام ببعض التقدم نحو إيجاد توازن لقواتنا، وقريبا ينقضى على انتهاء الحرب العالمية الثانية ثلاث سنوات، فنحن لـم نتلكأ عن التقدم فحسب ، بل كان لدينا ميل إلى أن نرجع القهقرى.

١٤ - لقد أنشأ كل سلاح فى داخله نظاما يحتـاط للإختصاص الذى يحتاج إليه ويضمن وحـدة الاتجاه بصـورة عامة، ولكن الواقع أننا لـم نتوصل إلى أن نوجد للأسلحة الثلاثة مجتمعة نظاما شبيها بالذى أوجده كل سلاح لنفسه، إن الاخـتصـاص قائم، هـذا صحـيح، ولكن مـا ليس موجـودا هو هذا الترابط على مستوى أعلى، وهو وحده الذى يؤمن لنا الحذق الاستراتيجى الذى نسعى إليه.

١٥ - إن هناك أسبابا كـثيرة يجب علينا من أجلها ألا نتسامح فـى استمرار هذا الوضع.

أولاً: إن مهمات الأسلحة الثلاثة ليست متباعدة إلى الحد الذى إعتدنا أن نظنه، فالأسطول لديه طائـرات، وسلاح الجو يوجـه جزءا كبـيرا من جهـوده نحو تحطيم جيش العدو ونحو نقل جيشنا، والأسلحة الثلاثة تخوض العمليات باسم واحد حين يكون الموضوع موضوع غزو.

ثانيــا: إن تقدم الإكتـشافات العلمية أوجد أفكارا وأسلحـة لا تتفق مع صورة الأسلحة الثلاثة مستقلة بعضهـا عن بعض، إنها تجنح إلى توحيد العمليات الحربية، وقد أصبح من المهم أكثر من أى وقت مضى أن تتولى عقول موضوعية تطبيق العلم على الحرب.

ثالثاً: إن أمتنا فى موقف عصيب جدا، ولا نستطيع أن نسمح لأنفسنا وقتا أطول بممارسة ترف الجـمع بين أعمال متـعددة، ولا بالتبذير الناشىء عن إضـافة طلبات الأسلحة الثلاثة بعضها إلى بعض.

١٦ - إننا بحاجة إلى تصميم موحد للدفاع، وليس الأمر فقط أن ليس لدينا مثل هذا التـصميم الآن، بل لـيس لنا أى أمل بأن يكون لدينا تصمـيم فى ظل نظامنا الحالى.

١٧ - إننا بحاجة إلى تحقيق تقدم فيما يتعلق بجعل قواتنا الوطنية متوازنة، ونحن لم نحقق أى تقدم.

١٨ - إننا بحاجة إلى نظام فـعال للقيادة، وللإشراف على مـختلف الميادين فى زمن السلم يجـعلنا قادرين على توثيق جـهودنا وتنمـية إمكانياتـنا إلى الحد الأقصـى دون أن نخشى أن يتـخلخل هذا النظام بالتعـديلات الناشئـة عن الأخطار الخارجية، وليس لدينا الآن مثل هذه النظام.

١٩ - إننى أوصى بأن تدرس لجنة وزارية الموضوع فى مجمله ودون تأخير.

وفى اجتماعات مختلفـة ناقشت هذه المذكرة مع زميلى ، وسرعان ما اتضح أن أية مناقشة داخل لجنة رؤساء أركان الحرب لن تؤدى إلى تسوية الخلافات فى الرأى القائمة حول هذا الموضوع، وكنت الوحيد الذى يريد أن يدرس تنظيم الدفاع، أما رئيسا الأركان الآخـران ورئيس أركان وزير الدفاع ، فقد كانوا ضد مـثل هذا الدرس، أو ضد أى تعـديل للنظام، واتفقنا أخـيرا على أن

يرفع رئيس أركان الطيران بوصفه رئيسا للجنة، المسألة إل وزير الدفاع لاتخاذ قرار فيها، ففعل فى ١٤ أبريل ١٩٤٨.

وجاء رد الوزير بعد خمسة أيام، وقد احتمى وراء الرأى الذى أعرب عنه وزير البحرية ورئيس أركان الطيران، وهكذا انتهت محاولتى للحصول فى هوايتهول على تنظيم سليم للدفاع الوطنى، ولكننى نجحت على الأقل فى طرح الموضوع والدفع إلى درسه وفى تسجيل القرار رسميا.

وفى عام ١٩٥٥، شرعت حكومة «إيدن» فى تحسين جهاز هيئة الدفاع الوطنى بعض الشىء، لكن لم يعط يومئذ لوزير الدفاع حق التقرير الذى هو صلاحية أساسية ولم يكن له أبدا رئيس أركان حرب، ولم يقبض على زمام الأمر بقوة إلا فى عام ١٩٥٧، ففى يناير من هذا العام أعطت حكومة «ماكميلان» توجيهات واضحة لوزير الدفاع الجديد حددت له فيها ما يجب عليه عمله وأعطته صلاحيات مطلقة لذلك.

وأخيرا صار لوزير الدفاع رئيس أركان حرب مسئول إزاءه، ورئيس أركان الحرب هذا أصبح رئيسا للجنة رؤساء الأركان.

* * * *

الفصل الحادى والثلاثون
بداية التعاون الدفاعى فى أوروبا

لدى مجيئى إلى وزراة الحربية فى يوليو ١٩٤٦، لا حظت أنه ليست هناك فكرة واضحة عما يمكن أن تكون الإستراتيجية البريطانية فى حرب كبرى، وأن زميلى فى لجنة رؤساء أركان الحرب لم يكن من رأيهما أن علينا أن نحرر فى ذلك الحين مذكرة فى هذا الصدد، ولم أكن على اتفاق معهما، فنشأت عن ذلك مناقشات بيننا، وأخيرا وضعت وزارة الحربية مذكرة تحدد الإستراتيجية.

وفى ٢٥ يوليو، أحلت هذه المذكرة إلى لجنة رؤساء أركان الحرب، وأهم ما تضمنته هذه المذكرة أن علينا أن نوطد قوة حلفائنا الفعليين فى أوروبا وإنشاء كتلة غربية متينة على هذا النحو تحمينا جميعا ضد غزو يأتى من الشرق، وعلينا نحن أن نكون مستعدين ومنظمين للقتال إلى جانب حلفائنا على أرض القارة الأوروبية بكل ما يقتضيه ذلك.

وفى عام ١٩٤٧، تبدل المشهد، فقد اشترك وزراء خارجية الدول المحتلة لألمانيا فى مؤتمر إنعقد فى لندن بشأن هذه البلاد - ألمانيا - وأصبح واضحا أنه لا يمكن الوصول إلى أى اتفاق مع روسيا.

وعندما عدت من جولتى فى أفريقيا، استدعانى «أرنست بيفن» فى ٢٣ ديسمبر ١٩٤٧ ليقول لى إنه اقترح على وزير الخارجية الفرنسى أن الوقت قد حان للإهتمام بتشكيل اتحاد أو مجموعة أوروبا الغربية، وحث الأمريكيين على الإشتراك فيها، وأضاف أن على بريطانيا وفرنسا أن تتفقا أولا على استراتيجية ما، وأن محادثات أركان حرب يجب أن تجرى فى هذا الصدد.

وبمبادرة من وزارة الخـارجية، دعى الجنرال ريفـير، رئيس أركان حـرب الجيش الفرنسى، لزيارة لنـدن وجرى لى معه حـديث طويل حول مـجمل المشكلة، وفى هذه الأثناء كان المستر «بيفن» يدفع إلى الأمام بمشروع إقامة إتحاد غربى.

ورحب الجنرال مارشـال، وزير الخارجيـة الأمريكى، بحرارة بفكرة إنشـاء اتحاد سياسى واقتصادى لبلدان الغـرب الأوروبى والمتوسط فى الخط المشار إليه، وتشجع بيفن بهذه الموافـقه، فاقترح أن نبدأ محـادثات غير رسمية مع الأمـريكيين، إنطلاقاً من فكرة أنهم قد ينضمون أخيـرا إلى تحالف أوسع، على أن الأمريكيين لم يقبلوا هذا إذ لم يكونوا مـستعـدين لمواجهة الكونجرس فى ذلك الحين بشأن التـقيد بالتزام بالقتال فى أوروبا.

وكانت وجهـة نظرى فى جميع هذه الأمور أن علينا أولا، وقـبل البدء بالحديث مع الآخرين، صـياغة أفكارنا الخاصـة بشأن استراتيـجية المملكة المتحـدة فى حال نشوب حـرب فى أوروبا قد تؤدى إلى حرب شاملة، وكنت أقـول إن على رؤساء أركان الحرب تقـديم مذكرة فى هذا الموضـوع نشترك جميـعا فى كتابتـها، وكنت مستـعداً لأن أقوم بالبادرة الأولى بتقـديم مذكرة فورية تحـمل رأى وزارة الحربية، ولكن هذا لم يقبل، وكان ضباط الأسلحة الثلاثة المكلفون بوضع خطة منهمكين فى إعداد مذكرة يرفعونها إلى رؤساء الأركان، وكنا نحن ننتظرها، وجاءتنا هذه المذكرة فعلا، وقد أشارت إلى ثلاثة طرق للعمل فى أوروبا:

١ - استراتيجية جوية.

٢ - استراتيجية قارية.

٣ - استراتيجية نصف قارية، تشتمل علـى الحفاظ على أسبانيا والبرتغال وتحرير أوروبا عن طريق هجوم يشن عبر جبال البرانس.

وقد استبعدت المذكرة الاستراتيجية القارية ببضعة أسطر، تاركة الخيارين الاستراتيجية الجوية واستراتيجية جبال البرانس.

وقمت بإحداث ضجة قائلا إننى لا أوافق كليا على استنتاجات التقرير، فماذا يعنى القول: إن أفضل استراتيجية هى الاستراتيجية الجوية على ما يبدو؟

إن علينا أن ندافع عن أوروبا لا أن نحررها، فإذا تركنا الشرق يجتاحها فلن يبقى شيء تقريبا لتحريره.

وقلت إن هذه الدراسة تظهر مرة أخرى كم هو غير مجد ترك هذا الفريق الممثل للأسلحة الثلاثة يحرر المذكرات حول مواضيع ذات أهمية حيوية من غير أن يتلقى مسبقا توجيهات من رؤساء أركان الحرب، وأضفت أننى سأقدم فى اليوم التالى مذكرة تلخص وجهة نظرى الخاصة، وقد قلت فى هذه المذكرة المؤرخة فى ٣٠ يناير ١٩٤٨:

إن علينا الإقرار بأن دول الإتحاد الغربى مضطرة إذا هى هوجمت، لأن تصد الهجوم فى أبعد مكان ممكن إلى الشرق، وعلينا أن نعلن بوضوح أن بريطانيا العظمى ستقوم بقسطها الكامل من مسئوليات هذه الاستراتيجية المشتركة وأنها ستدعم النضال بكل ثقل قوتها البرية والجوية والبحرية.

وما لم يتم إقرار بريطانيا لهذه النقطة الأساسية فى استراتيجيتنا وموافقتها عليها بكل صدق، فلن يكون للإتحاد الغربى أى أمل بالحياة ، وستجد بريطانيا نفسها عندئذ فى خطر كبير.

وتناقشنا أنا وزميلاى فى هذه المذكرة فى ٢ فبراير، ولم يوافقا كما توقعت، وانتهى الاجتماع فى غموض، لكن بعد أن توصلت إلى الموافقة على أن ترفع مذكرتى إلى رئيس الوزراء.

وانعقد المؤتمر مع رئيس الوزراء في ٤ فبراير ١٩٤٨، فقلت إنه سيكون أمرا بالغ الصعوبة تحقيق إتحاد غربي فعال إذا نحن لم نتمكن من تقديم مساندة برية في حال الحرب، فعارض رئيس الوزراء عندئذ معارضة شديدة تقيدنا بأي التزام بأن نرسل جيشنا إلى القارة الأوروبية.

ورددت بأن لدينا الآن جيشا هناك، هو جيش، الراين البريطاني، فهل يقترح رئيس الوزراء أن نسحبه، عن طريق دنكرك، إذ قام الروس بهجوم؟إن مثل هذه الفكرة غير معقولة.

وعندئذ قام «أرنست بيفن» بهجوم مضاد على أتلي، وكذلك فعل المستر «الكسندر»، فأيدني كل منهما على طريقته، واتفقنا أخيرا على درس مقتضيات الاستراتيجية التي أدعو إليها، بما فيها مضاعفاتها في حال إقرارها على بنية قواتنا المسلحة وإتساعها، وهكذا هزمت على كل حال أصحاب استراتيجية البرانس،

وعندئذ بدأ نشاط كبير واستمر خلال شهري مارس وأبريل ١٩٤٨، وواصلت شرح آرائي للجميع دون إستثناء والتأكيد على الإيمان، بالاتحاد الغربي، وكنت مقتنعا بأنه لا مفر من حملة في أوروبا الغربية، وأن الأزمة ستحدث عام ١٩٤٨، أو بعد عشر سنين أو حتى عشرين سنة، فالذي لم يكن منه إذن بد هو درس الطريقة التي يجب أن تتبع لمواجهة هذه الأزمة.

وقد انطلقت من الفكرة الآتية: إن فرنسا ودول البنلوكس ليس لها في الوقت الحاضر إلا قيمة عسكرية محددة، إذ يجب أن يعاد تنظيم قواتها، وخصوصا قواتها البرية، وأن تنفخ فيها روح مقاومة العدوان، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا اتبعت حكومات الإتحاد الغربي نهجا واضحا يؤكد أنه مهما جرى فإن أي اعتداء روسي سيلاقي مقاومة تجابهه بكل القوة والوسائل المتوفرة، وعلى كل منا أن يقاتل بكل ما يملك، ومع الوقت ستتعاظم الطاقات العسكرية لدى الدول الغربية، أما إذا لم يتم

إقرار مبدأ المقاومة الفعالـة الكلية لأى تهديد روسى ضد أوروبا الغربية، فإن بإمكان الإتحاد الغربى أن يقفل أبوابه.

وواضح أننا بحاجة إلى المساعدة الأمريكية، لكن ما دامت الولايات المتحدة غير مقتنعـة بأننا سنقاتل جميعا مـهما كان الموقف، فلن نحصل على مسـاعدتها، ولن نكون جديرين بهذه المساعدة.

وكانت حـجتى أنه إذا ارتابت فـرنسا ودول البنلوكـس فى أن القوات البريـطانية المرابطة فى ألمانيا سـتسحب فى حـال الحرب، فلن يكون هناك أمل فى حثـها على أداء دورها، إن بلدان أوروبا الغـربية قـد إحتلهـا الألمان خلال الحـرب وهى الآن تكافح لتنهض ، وأشد ما هى بحاجة إليه زعامة ملهمة.

إن على بريطانيا العظمـى أن تضع قدمها فى أوروبا وتؤمن هذه الزعـامة، وإذا بقينا مبتـعدين، فإن فرنسا ودول البنلوكس وألمانيا الغربية أيضـا ستنهار تحت الضغط الشيوعى المـتزايد الآتى من الشرق فنخسـر عندئذ السلام، وفى اجتمـاع عقد فى ١٠ مايو ١٩٤٨ مع وزير الدفاع توصلت إلى الموافقة على الضرورة الجوهرية للقتال فى أوروبا الغربية، بكل ما يشتمل عليه هذا القرار وكان هذا إنتصارا كبيرا.

وتبـدل الموقـف فى أوروبا بسـرعـة خـلال النـصف الأول من عـام ١٩٤٨، وتوصلت إلى الإقـرار بأن نحـارب فى أوروبا إذا لزم الأمـر، وكان هذا حـاصل نضال شديد إسـتمر أكثر من أربعة أشـهر، وقد أصبحنا نحتـاج الآن إلى أكثر من هذا، إلى تنظيم يعتـمد بصورة ملائمة لقـيادة القوات التى ستـخوض هذه الحرب والإشراف عليـها، وحقائق الحـرب القاسية تفـرض أن نصاب بكوارث إذا لم يكن لدينا مثل هذه التنظيم، والتنظيم الجيد فى ميدان القـيادة سيتيح لنا أيضا حل مشاكل

أخرى كتنمية روح القتال وإنشاء أجهزة وطنية تعمل على إيجاد القوات المطلوبة، وكان لا يزال هناك أسئلة كثيرة دون جواب، منها مثلا:

* من يتولى قيادة القوات البرية فى أوروبا؟

* من يقرر كيفية تجمع الجيوش بالنظر إلى طبيعة الأرض الجغرافية؟

* من يقرر المكان الذى يستند إليه الجناح الأيسر أو الجناح الأيمن، والمكان الذى يجب أن يعزز فيه الموقف، وأين يمكن تجربة الحظ؟

* من يقرر القوة التى يجب أن تحفظ فى الإحتياطى من أجل القيام بهجوم مضاد؟

* من الذى يمزج جيوش الغرب ليجعل منها آلة حرب فعالة؟

لقد كان الجواب على كل هذه الأسئلة واحدا، وهو أنه لم يكن هناك أحد يقوم بكل ذلك، وفى أول يونيو ١٩٤٨، لفت نظر زميلى إلى هذه النقاط، ولكنهما أجابانى إجابات متهربة، وأخيرا رفع الأمر للتحقيق إلى الفريق الممثل للأسلحة الثلاثة والمكلف بوضع التصميم، وكان الوقت مضى، وفى ٢٣ يونيو، كنا ما نزال نتناقش دون نتيجة، وقد مالت الأكثرية نحو إيجاد سلطة فى لندن، تكلف بوضع التصميم وتكون شبيهة بهيئه كوساك القديمة.

وقد أعربت عن رأيى بقوة معلنا دون لبس أن المسألة يجب أن تكون مسألة جهاز محدد بسيط مخصص لقيادة قوات الإتحاد الغربى، والإشراف عليها إشرافاً فعليا، وأن هذا الجهاز يجب أن يوجد على الفور.

وفى ٢٤ يونيو ١٩٤٨ بدأ الروس حصار برلين الغربية، وكان رد الفعل فى لندن سريعا، ففى ٢٨ يونيو، أعلن رؤساء أركان الحرب للحكومة أن أجد سبل لإقناع الروس وإقناع دول أوروبا الغربية أيضا بعزمنا وتصميمنا، هو تعيين قائد أعلى

حليف لقوات الإتحاد الغربى، ولكن فى اجتماع لاحق ذهب وزير البحرية إلى أن اقتراح تعيين قائد أعلى حليف ليس إلا بادرة سياسية ذات صلة بأزمة برلين التى أخذت - كما قال - تظهر منها أمارات التضاؤل وألح من جديد على إنشاء نوع من هيئة كوساك.

ومع ذلك فقد أخذت «تدر» رئيس أركان الطيران بعد الاجتماع على انفراد، وقد سبق أن واجهنا معا خلال الحرب عددا كبيرا من المعارك القاسية، فأقر معى بأن إنشاء هيئة صالحة للقيادة، قد أصبح الآن مسألة جدية ملحة.

وعقدت بضعة اجتماعات أخرى، وفى ٩ يوليو وافقت الحكومة على أننا بحاجة إلى:

أ - لجنة دفاع للإتحاد الغربى مؤلفة من وزراء الدفاع.

ب - لجنة رؤساء أركان الحرب للإتحاد الغربى.

جـ - هيئة قيادة تقرر بنيتها فيما بعد.

وهكذا ربحنا معركة أخرى فى هوايتهول، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد تدخل الروس المباشر فى برلين.

وفى ٢٠ سبتمبر ١٩٤٨، استدعانى وزير الدفاع فى الساعة ١٢,٤٥، وعرض المستر «الكسندر» علىّ تعيين رئيسا للجنة القواد العامين للإتحاد الغربى. وفى ٢٧ أيلول وافق وزراء الدفاع فى دول الاتحاد الغربى الخمس المجتمعين فى باريس، بالاجتماع على تعيينى، وأعلن هذا التعيين فى الصحف فى ٣ أكتوبر.

وهكذا توصلنا إلى ما كافحت من أجله كثيرا، أى إلى قرار يقاتل الجيش البريطانى بموجبه على أرض القارة الأوروبية فى حال الحرب، وإلى شىء ملموس فيما يتعلق بتنظيم القيادة، لكن ذلك إقتضى جهدا شاقا إستمر عدة أشهر، وها أنا الآن مضطر للعناية بالتفاصيل.

الفصل الثاني والثلاثون
وحدة الغرب

لكى نفهم المحاولات التى بذلت خلال السنوات التى أعقبت الحرب من أجل تحقيق الوحدة والتعاون فى أوروبا الغربية، يجب علينا أن نعود إلى عام ١٩٤٥.

فعندما إنتهت الحرب مع ألمانيا فى مايو من ذاك العام، أخذت الدول الأوروبية تضل السبيل شيئا فشيئا، ومع ذلك فقد عقد بعد ذلك عدد من المعاهدات التى سجلت بداية الأمن الجماعى فى أوروبا، وأولى هذه المعاهدات معاهدة «دنكرك» التى عقدت فى مارس ١٩٤٧ بين فرنسا وبريطانيا، وكانت تستهدف صد أى عدوان ألمانى جديد، أما المعاهدة الأخيرة، وهى أهمها، فمعاهدة شمالى الأطلسى المعقودة عام ١٩٤٩.

وفى ربيع ١٩٤٥، كانت دول أوروبية كثيرة فى وضع اقتصادى سىء، وسرعان ما اتضح أنه لابد من مساعدة خارجية، وأن الحاجة إلى هذه المساعدة ملحة، إذ أن الشيوعية الروسية كانت قد بدأت فى الانتشار نحو الغرب، حيث توجد تربة ملائمة لنمو هذا الشر الخفى المخادع.

وقد تحقق ذلك فى الولايات المتحدة، ففى ٥ يونيو ١٩٤٧ ألقى الجنرال مارشال فى جامعة هارفرد خطابه الشهير عن مساعدة أوروبا، الذى عرف منذ ذلك الحين باسم مشروع مارشال، وقد قبل «أرنست بيفن» هذا العرض بسرعة، ونظم مؤتمرا يعقد فى باريس فى شهر يوليو بغية تحديد التفاصيل، وفى هذا المؤتمر أعلن الروس أنهم لا يرغبون فى مساعدة مشروع مارشال لأنفسهم، ولا لأى بلد من البلدان الدائرة فى فلكهم.

ومع ذلك فعلى الرغم من الرفض الروسى اكتسب مشروع مارشال الصفة الشرعية فى الولايات المتحدة فى ٣ أبريل ١٩٤٨، وأنشئت اللجنة المكلفة بتنفيذ المشروع فى يوينو ١٩٤٨ برئاسة «أفريل هاريمان»، وأن دول أوروبا الحرة لمدينة أكبر الدين للولايات المتحدة لهذه المساعدة، التى قدمت إليها بكل حرية، وساهمت أكبر مساهمة فى نهوضها.

وعندما رفض الروس عام ١٩٤٧ مشروع مارشال ، إشتدت الحرب الباردة التى كانت مستمرة آنذاك منذ بعض الوقت، وأخذ القلق يستبد بمجموعة من دول أوروبا الغربية لهذا التهديد المتعاظم الآتى من الشرق، وتجلت الحاجة إلى الوحدة بغية التمكن من صد هذا التهديد، وكان البنلوكس- إتحاد بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج - أول منظمة أنشئت، وكان اتفاق هذه البلدان الثلاثة فى البدء منحصرا فى التدابير الاقتصادية، ثم ظهرت ضرورة قيام منظمة أوسع، فانضمت المملكة المتحدة وفرنسا إلى البنلوكس لتشكيل الإتحاد الغربى الذى أنشئ بموجب معاهدة بروكسل الموقعة فى ١٧ مارس ١٩٤٨، وقد اقتصرت هذه المعاهدة أيضا فى البداية على الشئون الاقتصادية وتقدم المبادىء الديمقراطية وما شابه.

وبعد توقيع معاهدة بروكسل بقليل، باشر الروس فى يونيو ١٩٤٨ حصار برلين الغربية الذى فشل نهائيا بفضل الإنتصار الكبير الذى حققه الجسر الجوى، وقد أوجد هذا الحصار توترا كبيرا فى العالم الغربى، الذى اشتد فيه القلق، واعتبر وضع خطة للدفاع عن الغرب أمرا ضروريا، فاجتمع وزراء الدفاع وقادة الأسلحة المشتركة للبلدان الخمسة الموقعة على معاهدة بروكسل لدرس مشاكل الرجال والعتاد، وهكذا تقرر فى سبتمبر ١٩٤٨، إيجاد منظمة الدفاع عن الإتحاد الغربى، تعد الخطط لعمل مشترك فى حال حدوث هجوم، وعينت رئيسا دائما للجنة القواد الأعلين للقوات البرية والبحرية والجوية للإتحاد الغربى، وأقمنا مقرنا العام المشترك فى فونتينبلو تحت اسم مختصر هو يونيفورس.

وفى هذه الأثناء كانت تجرى محادثات على الجانب الاخر من الأطلسى حول مقدار ملاءمة إقامة جهاز وحيد للدفاع المشترك يتضمن معاهدة بروكسل ويحل محلها، فقد أدرك المسئولون فى الولايات المتحدة وكندا أنهم إن كانوا يستهدفون الأمن الكامل فعلى هاتين الدولتين وغيرهما من بعض الدول أن تشترك فى الأمر كى يبقى المحيط الأطلسى آمنا إلى حد يسمح بمساعدة أوروبا مساعدة فعالة، وقد بدأت محادثات تمهيدية فى واشنطن فى شهر يوليو ١٩٤٨، بعد حصار برلين الغربية بقليل واستمر طوال العام.

وأخيرا وقعت فى ٤ أبريل ١٩٤٩ معاهدة شمالى الأطلسى التى إتحدث بموجبها إثنتا عشرة دولة فى تحالف دفاعى للحفاظ على السلام والأمن الدوليين، والمساهمة فى استقرار منطقة شمالى الأطلسى وغيرها، وأتخذ هذا التحالف اسم : منظمة معاهدة شمالى الأطلسى التى تعرف بالاسم الموجز «الناتو».

وأصبح واضحا لدى وضع الخطط أن المنظمة العسكرية للاتحاد الغربى يجب أن تمتصها منظمة «الناتو» العسكرية، فتم إجراء ذلك، ثم فى ٢ أبريل ١٩٥١ تولى الجنرال «إيزنهاور» الإشراف العملى على القوات العسكرية للحلف الدفاعى، وفيما بعد دخلت اليونان وتركيا الناتو فى ١٨ فبراير ١٩٥٢، مما رفع عدد الدول المشتركة إلى أربع عشرة دولة، وكانت آخر دولة دخلت الناتو، هى جمهورية ألمانيا الاتحادية، «ألمانيا الغربية»، التى انتسبت إلى الحلف فى مايو ١٩٥٥، وما تزال منظمة معاهدة شمالى الأطلسى «الناتو» تضم حتى اليوم خمس عشرة دولة.

وقد أنشئ مقر القيادة العليا للدول الحليفة فى أوروبا، وذلك فى ٢ أبريل ١٩٥١ فى باريس، وعلى رأسه الجنرال «إيزنهاور» كقائد أعلى، وأصبحت أنا نائب القائد الأعلى.

ومنذ البداية كان «إيزنهـاور» مصمما على وجوب أن ينسى جمـيع ضباط أركان حرب مقر القيادة العليا للدول الحليـفة فى أوروبا أنهم ينتمون إلى دولة معينة أو إلى جيش خاص، فكلهم يجب أن يكونوا دوليين ومن الأسلحة المشتركة.

وفى زمن السلم، يهتم مقر القيادة العليا للدول الحليفة فى أوروبا بصورة رئيسية بأن نكون مسـتعدين لـلحرب، وهذه الغاية تشـمل تنظيم القوات العـاملة وقوات الإحتياط التابعة لدول الناتو، وتعبئتها، والإحتياطات المتعلقة بعتادها وتدريبها ودعمها اللوجستى، وتنظيم المواصلات وتنظيم الدفاع الجوى.

أما فى زمن الحرب، فـمقر القيادة العليا يتـرك للقواد العامين التابعين لـه مهمة أدارة المعـارك التكتـيكية ليـنصرف هو إلى الإدارة الاسـتـراتيجـيـة ووضع الخطط والاستعلامات واللوجستيـا والأشراف على سلاح الجو والصواريخ، ولقد خدمت فى مقر الـقيادة العليا للدول الحليـفة فى أوروبا تحت قيادة أربعـة قواد أعلين ، ولا شك أننى الضابط الوحيد الذى أتيح له ذلك.

وكـان أول هؤلاء «إيزنهـاور»، ثم استـقـال «إيزنهاور» من الجـيش الأمـريكى وغادرنا، فقد قرر أن يرشح نفسه للرئاسة.

ووصل الجنرال «ريدجـواى» إلى باريس فى ٢٧ مايو ١٩٥٢ وخلف «إيزنـهاور» فى ٣٠ مايو، ولقد غادر «ريدجواى» أوروبا فى ١١ يوليو ١٩٥٣، وأصبح «غرونتر» قائدنا الأعلى الجديد، وفى نوفـمبر ١٩٥٦ حل محل غرونتـر «الجنرال نورستاد»، ضابط سـلاح الجو الأمريكى اللامع، وهـو صديق أكيـد لى، وقد كنت سعـيدا بالخدمة تحت قيادته.

ولقد إزدادت قوتنا العسكرية باستمـرار تحت قيادة إيزنهاور وخلفائه، أضف إلى ذلك أن تقـدم العلم زودنا بالأسلحة النـووية بكميـات متـزايدة على الدوام، ومنذ ذلك الحين أخذ عامـلان يؤثران فى استراتيجيتنا، أولهـما أن السلاح النووى زودنا

بإمكانية التدمير بأحجام لم تكن نعرفها من قبل، وهذه الإمكانية قد تصبح سلاحا هجوميا بالغ القوة إلى حد أصبح واضحا أن أية دولة لن تستطيع الإستفادة من الحرب، فالمعتدى قد يلحق أضراراً مرعبة بالحضارة الغربية، ولكنه سيصاب هو أيضا بأضرار مساوية لها أو تفوقها.

والعامل الثانى، أن دول «الناتو» أوجدت قوات تقليدية بقصد كسر الهجوم المعادى، وكان يبدو لى واضحا أننا إذا اعتمدنا فقط على مثل هذه القوات فلن نتمكن أبدا من أن نضاهى القوة التى قد تجابهنا، فلكى نضمن ذلك تلزمنا قوات متزايدة، مما سيضخم ميزانيات الدفاع تضخيما ليست الدول مستعدة لمواجهته، والبديل الوحيد هو أن نعلن صراحة أننا إذا هوجمنا فسنستعمل ضد المعتدى جميع الموارد التى فى حوزتنا بما فيها السلاح النووى، حتى لو لم يستعمل هذا السلاح ضدنا أولاً.

إن إقامة تنظيمنا الدفاعى على أساس السلاح النووى قد أدت إلى تعديل كبير فى مفاهيمنا، لكن كان لابد من إجراء هذا التعديل، واعتقد أننى لعبت دوراً ما فى تحقيقه، فلقد كنت دائما أذهب إلى أن الروس قرروا منذ البداية ألا يتورطوا فى حرب إلا بأقل المجازفات، وتكتيكنا يجعل الحرب الآن غالية جدا بالنسبة إليهم، إذ أنهم سيصابون بأضرار كبرى وخسائر جسيمة فى الأرواح، كما سنصاب نحن، ولذلك لن يهاجمونا ما دمنا أقوياء وقادرين على الرد فورا بأسلحتنا النووية.

وليس هناك بديل آخر لهذه الاستراتيجية إلا الإتفاق على نزع السلاح، وهذا ما لم نتوصل إليه، ولدينا الآن الرادع، وهذا شىء حسن، فقدحال دون حرب شاملة، ولكن ليس من المؤكد أنه أيضا أداة دفاع جيدة.

أما وقد تحقق لنا الآن الهدف الرئيسى الذى هو الدفاع الحائل دون الحرب، فقد حان الوقت لإعادة نظر كاملة فى منظمة «الناتو» كلها، وعلينا أن نبدأ بأن نعلن دون

أى تحفظ أن مساهمة «الناتو» فى ضمان أمن العالم الحر كانت مساهمة عظيمة، وهناك منظمتان إقليميتان آخريان هما «حلف بغداد» و«معاهدة جنوب شرقى آسيا».

وفى عام ١٩٥٨ ، أدخلت الأسلحة الذرية فى نظامنا الدفاعى وأنشانا رادعا نوويا قويا ضد الهجوم، ومن جهة أخرى أصبحت ألمانيا الاتحادية، فى عام ١٩٥٥ ، عضوا فى «الناتو» وشرعت تتسلح من جديد، وبات الهجوم المباشر الآن على (أوروبا الناتو) غير محتمل الوقوع على الإطلاق، فالخطر إنما يوجد فى غير هذا المكان.

إن على الزعماء السياسيين أن يدركوا الفروق فى المفاهيم الراسخة فى المناطق الرئيسية الثلاث المحيطة بالكتلة الشيوعية، فروسيا بما تستهدفه من السيطرة العالمية، المتحققة بواسطة الشيوعية الدولية، هى العدو فى أوروبا الغربية وفى مجمل منطقة الناتو على العموم، أما بالنسبة لدول الشرق الأوسط العربية، فالعدو المباشر ليس روسيا بل إسرائيل، وليس لدى العرب نية التعاضد لمحاربة الشيوعية، بل هم ينوون التعاضد فقط لمحاربة إسرائيل ومنع توسع الدولة اليهودية، وأما فى الشرق الأقصى، فلئن كانت الدول تخشى من خطر خارجى، فإنما هو الخطر الذى تمثله الصين لا روسيا.

إن الزعامة العالمية فى جميع هذه الأمور هى الآن من نصيب الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الدولة لم تكن دائما فى مثل هذا المركز، فقد إضطلع البريطانيون زمنا طويلا بالزعامة وعالجوا المشاكل العالمية خلال عدة قرون، أما الولايات المتحدة فليس لها إلا خبرة بعض العقود ، على أن العالم الغربى يجب أن يدرك أن الحلف الغربى ينهار بدون الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الولايات المتحدة من جانبها

أن تمارس بطريقة مقنعة كفاءاتها كزعيمة للعالم الحر فى الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وكثيرا ما رأيت أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية غير منسجمة، ففى الأمم المتحدة تبدو لها سياسة وعندما تكون مصالحها الوطنية الخاصة فى الميدان تكون لها سياسة أخرى، إنها تدعم الدول الاستعمارية السابقة فى أوروبا الغربية، ولكنها تعمل لتحطيم نفوذ هذه الدول وقوتها فى آسيا وفى أفريقيا، إن سياسة الولايات المتحدة هذه غير المنسجمة قد ساهمت كثيرا فى إضعاف مركز الغرب الاستراتيجى، وقد تؤدى إذا هى استمرت إلى إنهيار الحلف الغربى.

إن خبرتى كجندى دولى علمتنى أن على الغرب، إذا أراد أن يبقى أن ينمى أهدافه المشتركة ومسئوليته المشتركة إلى درجة أعلى بكثير مما فعل حتى اليوم، إنه أحوج إلى تعاون أوثق فى ميادين أوسع من ميدان الدفاع وحده عن الأراضى القومية، ولذلك يجب أن يستند الحلف الغربى إلى الوحدة والأمل والشجاعة، وأن تحكم لحمته القوة المتفاعلة الموحدة، قوة نحو أربعمائة مليون نسمة.

إن الوحدة الغربية هى الشيء الوحيد الذى يخشاه الروس، وكل خططهم مبنية على هذا الهدف الأساسى، الذى هو منع هذه الوحدة، إن وحدة الغرب يجب أن تقام بأى ثمن.

* * * *

الفصل الثالث والثلاثون
خواطر آخرى

ها قد بلغت نهاية هذا الحديث، ولقد سررت بلا شك فى كتابته، وإنى لأشعر الآن أننى - حين كنت تلميذا صغيرا وربما مراهقا أيضا- لم أكن أرى الرؤية الصحيحة إلا فى النادر، ولم تكن لى الرؤية الكاملة أبدا ، ولم أكن أفرق على العموم بين ما هو مهم وما هو تافه، لكن مع تقدمى فى السن أخذت أتعلم أمورا كثيرة، ومن الممكن أن يكون ما قد أفادنى أكبر الإفادة فى حياتى قدرتى على تبسيط أية مشكلة واكتشاف العنصر الجوهرى الذى يجب أن يكون فى أساس كل عمل، فأحصر همى به تاركا التفاصيل لإركان حربى.

وتعلمت أيضا أن أنظم حياتى، وألا أبالغ فى نشاطاتى الاجتماعية، وألا أقلق نفسى أبدا، وهاهنا أيضا اقتضانى بعض الوقت أن أتعلم أن الشخصية ذات أهمية كبرى فى هذه الحياة، فطريقتك الخاصة فى أن تكون سعيدا، واسلوبك فى الخدمة الصافية الصادقة، ويد النجدة تمدها، إلى الآخرين، واهتمامك بكسب ثقة الذين تعاملهم، هذا كله هو المهم على الخصوص.

ولقد شرحت فى الفصل الأول كيف تعلمت قبل أن أترك المدرسة أن بين الصفات المتعددة الضرورية للنجاح صفتين أساسيتين هما العمل الحثيث الدائب والتجرد المطلق، وأرغب الآن أن أضيف صفة ثالثة هى الشجاعة، وأقصد الشجاعة المعنوية التى بفضلها لا يخشى المرء أن يقول أو يفعل ما يعتقده صوابا.

وعندما يتحمل المرء مسئوليات مخيفة، ليس من السهل دائما أن يكيف حياته وفقا لهذه المثل العليا، وأخشى أن أكون فى أحيان كثيرة قد بقيت أقل مما كان يجب علىّ أن أكون.

ولقد كنت أشعر أيضا بقلق فكرى إزاء وجوه القيادة التكتيكية للحرب العالمية الثانية، كما كان يعذبنى التفكير بأن الشعب البريطانى اضطر لهذا السبب أن يتحمل آلامه زمنا أطول مما كان يجب مع كل ما يقتضيه ذلك من خسائر فى الأرواح.

وعندما يكون المرء مشدود الأعصاب على هذا النحو، يصعب عليه أن يظهر دائما بمظهر المبتهج، وقد يساق إلى إفراغ استيائه على شخص من الأشخاص، وهذا الشخص كان هيئة أركان حربى الشخصية، وأخشى أن يكون هذا قد آلمها أحيانا.

وأظن أننى قد اكتسبت بعض الشهرة فى الوقت الذى أترك فيه الحياة العسكرية العاملة، ولكننى تعلمت أن الطريق الذى يقود إلى ذلك طريق شاق مليء بالحجارة، وتعلمت كم هو صعب الطريق لبلوغ القمة.

ولقد استحوذت مشكلة القيادة على جزء كبير من حياتى، فالسلطة اليوم يجب أن تمارس بحكمة ومنطق.

ولقد دعيت غير مرة إلى الإشتراك فى الصراع السياسى، ولكننى رفضت الدعوة دائما، فأنا لا أعتقد أننى أستطيع أن أكون سياسيا جيدا.

إن معظم الكتب تبدأ بتوجيه الشكر إلى الذين ساهموا فى إخراجها وقد فعلت ذلك فى مقدمة هذا الكتاب، ولكن علىّ أيضا واجب الشكر والعرفان لبعض الأشخاص، فأنا حين ألقى نظرة على الماضى أذكر دائما إلى أى حد أثر أربعة أشخاص فى حياتى: والدى فى سنى صباى، والفيلد مارشال «ألن بروك» خلال حياتى العسكرية، والسير و«نستون تشرشل»، والجنرال «إيزنهاور».

ومنذ أخذت أقوم برحلات إلى الخارج، أى منذ خريف ١٩٤٨، حظيت بشرف معرفة رؤساء حكومات الدول الغربية ووزرائها، ومن بين أصدقائى شخصيات

تختلف كل الأختـلاف كقداسة البابـا والمارشال «تيتو» الذى كثـيرا ما كنت أزوره، وأقدر كل التقدير صداقة الدكتور سالازار رئيس وزراء البرتغال.

لقد تـركت الجيش العـامل فى سبـتمبـر ١٩٥٨، بعد خـمسـين سنة من تأدية الواجب دون أى عجـز فى خدمـة مليكى، ومنذ عام ١٨٥٥- وهو الـتاريخ الذى ألغى فيه مـجلس العتاد الحربى وأنشئت وزارة الحربيـة - لم يخدم أى ضابط أطول من هذه المدة.

وفى اللحظة التى أترك فـيهـا الجيش أود أن أوجه تحـية إلى الجندى البـريطانى، صديقى ورفيق سلاحى طوال هذه السنوات الأخيرة كلها.

والجندى البريـطانى ليس على الإطلاق فى المرتبة الثـانية من مـراتب المحاربين، وقد يكون جنود آخـرون أكثر منه إندفاعـا وأكثر انتظاما، ولكن مـا من جندى آخر يفوقة فى مختلف المزايا.

ولقد كان الجندى البريطانى الأمل الأخـير للعالم الحر فى أحيان كثـيرة، فصمد بقوة فى وجه الظلم والطغيان.

إننى أعرف أكثـر من أى شخص آخر أى مستوى يـستطيع الجندى الإنجليزى أن يبلغه، إن عظمتـه هى على قدر الخلق البريطانى، ولقد شـاهدت مزايا جنسنا تبرز أحيانا كثيرة فى ميدان القتال.

أما وقـد آذنت شمس حياتى بالأفـول، فإنى أضع جانبـا كثيرا من الإنطبـاعات ولكن الإنطبـاع الذى أحـتـفظ به فـوق كل شىء وكـأنه كنز، هو صـورة الجندى البريطانى وإخلاصه وقوة بأسه فى حـالة الشدة واعتداله فى حال النصر. إنه الرجل الذى كانت الأمة، دائما وأبدا، مدينة له بسلامتها وشرفها.

* * * *

الفهرس

الموضوع	صفحة

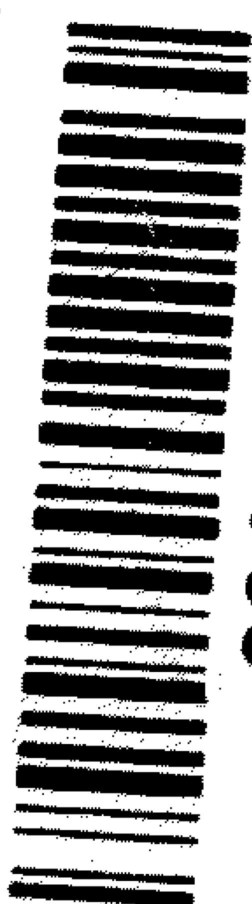




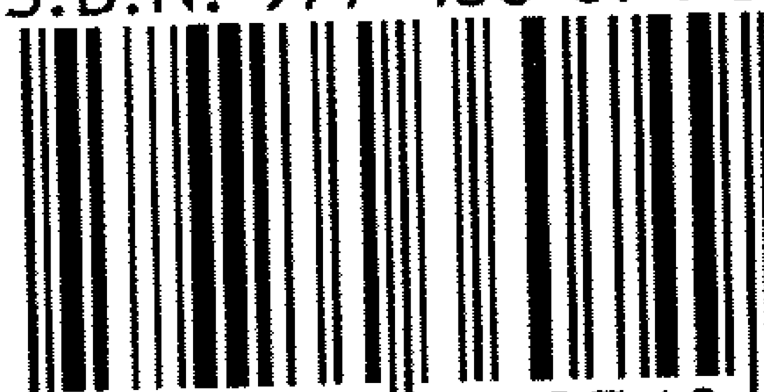
مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

- جوبلز
- ديجول
- مونتجمري
- آيزنهاور
- تشرشل
- موسوليني
- روميل
- أدولف هتلر





I.S.B.N. 977-436-074-5



مكتبة النافذة